الفرقان في تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصادقي

انتشارات فرهنگ اسلامی

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفرقان

١٣١٢

الكتاب	الفرقان في تفسير القرآن
المؤلف	الدكتور الشيخ محمد الصادقي
الجزء	الثاني عشر و الثالث عشر سورتا : يوسف و الرعد
الطبعة	الثانية
المطبعة	مطبعة أمير ـ قم
الناشر	انتشارات فرهنگ اسلامي ـ طهران تلفن : ۶۲۰۰۸۴
سنة الطبع	۱۴۰۶ ق ـ هـ
عدد المطبوع	۳۰۰۰ نسخة

سماحة الشيخ
الدكتور محمّد الصّادقي

الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن والسّنّة

الجزء الثاني عشر والثالث عشر
سورة يوسف ـ سورة الرّعد

دار التراث الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان

كافة الحقوق محفوظة ومسجلة
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١٢) سورة يوسف مكية
وآياتها إحدى عشرة ومائة

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ
قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ
أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن
كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ
لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ
رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ
لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ

مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ
يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

تنزل هذه السورة كلها في مكة المكرمة ، في فترة مُحرجة موحشة من هذه الرسالة القدسية ، يعانيها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من الجاهلية الجهلاء القرشية ، تهريجاً لجو مكة ضده ، وتحريجاً لصاحب الدعوة ، ضرباً وشتماً وحصراً في شعب ابي طالب وفي النهاية تهجيراً الى المدينة ، فقد أحرجوه طيلة العهد المكي حتى أخرجوه ، فتقص له فيها أحسنَ القصص توطيناً وتوطيداً لخاطره الشريف ، حين يسمع قصة أخ له من قبل يعاني صنوف المحن من إخوة له في النسب ، وهذا النبي يعاني المحن من قومه ، وعلى الجملة فإن هذه السورة ترسم له من قصصها صورة عسيرة من دعوة سابقة بين حاسدين يتربصون بها كل دوائر السوء ، وهي في ختامها يسيرة حيث يرجع صاحب القصة أميراً كبيراً بيده أزمة أمور المُلك بعدما عاش ردحاً بعيداً من زمنه عبداً صغيراً يُشرى بثمن بخس دراهم معدودة، ثم يُزجُّ في السجن في تهمة وقحة !

وكذلك أنت يا صاحب الرسالة القدسية ـ وبأحرى ـ فإن مع العسر يسراً ، سوف ترأس في مهاجرك دولة الإسلام ، ويصبح ختامك خير ختام بحول الله الملك العلام .

﴿ آلر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ(١) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٢) .

« الكتاب المبين » هو القرآن المفصل ، وهو المجمل المنزل ليلة القدر ، وهو أم الكتاب لدى الله علي حكيم [1] .

فـإن كـان هـو القرآن المفصـل، فـ «تلك» المفصـلات كهـذه السورة وسواها آياته، وإن كان هو المجمل فكذلك الأمر، ولكنها تفصيل آياته، أم إن «تلك» إشارة إلى «آلر» أنها آيات الكتاب المبين النازل على الرسول في ليلة القدر ، قرآناً على شخص الرسول كبرقية رمزية ، لا عربياً في لغته حيث الحروف المقطعة لا تخص لغة دون أخرى ، ولا عربياً في تعقّله حيث لا يعقلها غير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ ولكنها منها وليست كلّها ، إلّا ان ضمنيتها في هذه الثلاث تحل مشكلة التبعيض ، وقد تكون هذه الأحرف حاملة غير الذي أنزل عليه ليلة القدر ، ام تعمها ، ومهما يكن من شيء فإنها مفاتيح كنوز القرآن الخاصة بصاحب الوحي ، وهي الكنوز التي لا تفتح بآياته المفصلات ، مهما كانت مفاتيح لكنوز أخرى للمرسل اليهم .

فـ « إنا جعلناه » : الكتاب المبين للرسول ، المجمل عن غير الرسول « قرآناً عربياً » لغة عربية ولساناً عربياً : واضحاً لا خفاء فيه في أي حقل من الحقول ولكل العقول .

فـ « لعلكم تعقلون » لا تعني ـ فقط ـ العرب ، فإنه « هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان» بل تعني كافة العقلاء .

فالقرآن المبين ، المنزل على قلب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الحروف الرمزية أم سواها من رموز ، ليس عربياً يعقله غير الرسول ، وقد جعله الله بتنزيله للعالمين « قرآناً عربياً » واضحاً مكشوفاً لا تعقيد فيه « لعلكم تعقلون » .

---

(١) راجع تفسير الكتاب المبين الى سورة الزخرف تجد تفصيله الثلاث .

فهو عربي اللفظ والمعنى ، عربي الدلالة والمدلول ، عربي في التفهم والتطبيق ، لا تعقيد فيه دعوةً وداعيةً ، وقد يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بشأن العربي قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أحب العرب لثلاث ، لأني عربي والقرآن عربي وكلام أهل الجنة عربي » [1] وليس هذا من حب الذات ، وانما حب النبوة السامية ، وحب القرآن وحب الجنة ، فالقرآن ونبيّه عربيان واضحان دون خفاء ، والجنة عربية واضحة لأهلها !

« لعلكم » ايها العقلاء « تعقلون » فالعاقل قد يعقل إذا تعقَّل وشاء الهدى ، وقد لا يعقل إذا لم يتعقل أو شاء الردى ، فـ « لعل » الترجي هنا وفي سائر القرآن ، لا تعني شكاً في ترجٍّ لساحة الربوبية ، وإنما هما فيمن خوطب بالقرآن ، فالهدى محتومة في دعوة القرآن لأنه غير ذي عوج ، وهي غير محتومة في المدعوين بالقرآن بما فيهم من عوج .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾[3] .

القصُّ هو تتبع الأثر : « فارتدا على آثارهما قصصاً » (١٨ : ٦٤) « وقالت لأخته قصيه »(٢٨ : ١١) وهو الأخبار المتبعة : « فاقصص

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣ - أخرج الطبراني وابو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عن ابن عباس ، قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . . .
واخرج الحاكم عن جابر ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تلا قرآناً عربياً ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ألهم اسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً وفي تفسير الالوسي ١٢ : ١٧٢ عن الشيرازي في كتاب الالقاب بسند عن محمد بن علي بن الحسين عن آبائه (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : اوّل من فتق لسانه بالعربية المبينة اسماعيل وهو ابن اربع عشرة سنة .

القصص لعلهم يتفكرون » (٧ : ١٧٦) وليس جمعاً بـل هـو جنس الخبر المتبع والأثر : « إن هـذا لهو القصص الحق » (٣ : ٦٢) وإنما لم يـأت بـاسم الخبر او الأثر حيث القصص هو الخبر والأثـر المقصوص المخصـوص ، فليس القرآن كتاب حكاية ،ولا كل خبـر وأثر ، بـل فيه المقصـوص من أثر أو خبـر « عبرة لأولي الألباب » (١١١) « لعلهم يتفكرون » (٧ : ١٧٦) .

وقصة يوسف بين القصص هي أحسن القصص « بما أوحينا إليك هذا القرآن » وهو أحسن حديث في قصص وغير قصص :« الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني . . » (٣٩ : ٢٣) فـ (إن احسن القصص وأبلغ الموعظة وأنفع التذكر كتاب الله عز ذكره)(١).

ومهما كان القرآن أحسن حديث ، وقصصه أحسن القصص ، ولكن قصة يوسف قد احتلت القمة المرموقة بين القصص ، حيث فيها « عبرة لأولي الألباب » محلّقة على كل الأبواب معرفية وخُلقية ، فردية وجماعية ، اقتصادية وسياسية وثقافية ومن سلطة شرعية او زمنية أمّا هيه من حقول الدعوة والداعية ، والدوائر المتربصة بالدعات إلى الله .

و« بما أوحينا اليك هذا القرآن » يعمم الأحسن في وحي القرآن كله ومنه القَصص ، و « هذا القرآن » يميزه عن سائر قرآن الوحي المقرو على سائر رجالات الوحي ، فماذا بعد القرآن ـ إذاً ـ وهو أحسن الحديث

---

(١) روضة الكافي خطبة لامير المؤمنين (عليه السلام) وفي الدر المنثور ٤ : ٣ واخرج ابن جرير عن عون بن عبد الله قال : مل اصحـاب رسول الله (صلى الله عليه وآلـه وسلم) فقالوا : يا رسول الله (صـلى الله عليه وآلـه وسلم) حدثنا فأنـزل الله « الله نـزل أحسن الحـديث . . ثم ملوا مرة أخـرى فقالـوا يا رسـول الله حدثنـا فوق الحـديث ودون القرآن يعنون القصص فانزل الله « آلر تلك آيات الكتاب المبين هذه السورة فـارادوا الحديث وارادوا القصص فدلهم على أحسـن القصص .

واحسن القصص وكما يروى عن نبي القرآن تنديداً بمن نسخ كتاباً غير القرآن « يا ايها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لي اختصاراً ولقد آتيتكم به بيضاء نقية فلا تهوكسوا ولا يغرنكم المتهوكون ... »[1] .

وقد ذكرت قصص يوسف في العهد العتيق ولكنه سيء في جهات وحسن في أخرى ، وهي في القرآن أحسن القصص في بعديه ، نسبة إلى التورات ، وأخرى إلى سائر قصص القرآن من حيث كونها عبرة لأولي الألباب .

« نحن نقص .. وإن كنت من قبله لمن الغافلين » فإنه قبل وحي القرآن ما كان ليعلمه ، أبوحي يعلمه ؟ ولم يكن يوحى إليه ! أم بغير وحي ؟ ولم يكن يعلمه أصحاب الوحي من قبل فضلاً عن غير وحي !

قصص يوسف هنا في هذا القرآن تمثّل النموذج الأكمل لمنهج القرآن في الأداء الفني للقصص ، قدر ما يمثل نفسياً وعقيدياً وتربوياً وحركياً ، ويوسف هو الشخصية المثالية الرئيسية في القصة ، في عرض واسع ، ذكراً

---

(١) في الدر المنثور ٤ : ٣ واخرج ابو يعلى وابن المنذر وابن ابي حاتم ونصر المقدسي في الحجة والضياء في المختارة عن خالد بن عرفطة قال كنت جالساً عند عمر ـ وذكر انه ضرب رجلاً من عبد قيس لانه نسخ كتاب دانيال وامره بمحوه ثم قال له اجلس فجلس بين يديه فقال : انطلقت انا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ثم جئت به في اديم فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما هذا في يدك يا عمر : فقلت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كتاب نسخته لنزداد به علماً الى علم فغضب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى احمرت وجنتاه ثم نودي بالصلاة جامعة فقالت الانصار اغضب نبيكم السلاح فجاؤا حتى احدقوا بمنبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) . ايها الناس اني قد اوتيت ... قال عمر فقمت فقلت رضيت بالله رباً وبالاسلام ديناً وبك رسولاً ثمّ نزل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

لما فيه عبرة لأولي الألباب وحذفاً لما لا يعني إلاّ تطويل الأبواب .

تذكر خوضه في مختلف الإبتلاآت والبليات ، وخروجه عنها كلها نقياً متجرداً متبلوراً خالصاً عن كل رين وشين .

ومع استيفاء القصة لكل ملامح الواقعية في ذلك العرض العريض ، حيث أصبحت السورة كلها صورة رائعة عن هذه الشخصية اللامعة ، وعرضاً لثورة أخلاقية وعقيدية في معرض الإصطدامات الشديدة ، فإنها تمثّل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني الصادق الفائق لواقع القصة .

تظل القصة في ظلال ذلك الأداء الأمين الرصين نظيفة عن كل خالجة خارجة عن طور الواقع ، لتجعل أولي الألباب معتبرين بالأمر الواقع ، بعيدة عن التخيلات اللاّصقة ، والتطفلات اللاّحقة ، والمترنمات الماحقة لأصالة القصة .

فالسورة بكاملها ثورة أخلاقية عقيدية جماعية سياسية اقتصادية أمّاهيه ، بمن يحتّفون بشخصيتها المحورية ـ يوسف الصديق عليه افضل الصلاة والسلام ـ بين يعقوب الوالد الملهوف ، وبين الإخوة في كل حقد ومؤامرة ومناورة ، إلى أن شروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وبين عزيز مصر وامرأته بكل غرائزها واندفاعاتها الأنثوية الرديئة ، وبين النسوة من طبقة عليّة في مصر الفراعنة ، وبين أصحابه في السجن ، وإلى أن أصبح هو عزيزاً يرأس بلاد الفراعنة في كل صدق وصفاء وهيمنة الرسالة !

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾(٤) .

« يوسف » هو ابن يعقوب = اسرائيل ، وعلى حد تعريف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن

الكريم ، يوسف ابن يعقوب ابن اسحاق ابن ابراهيم »(١) .

و « أحد عشر كوكباً » أتراها معيَّنةً لديه معنيَّةً حين رآها كاتصال الإخوة بالأخوَّة ، وكما الشمس والقمر المعروفان ؟علّها هيه كما في رواية(٢) . أم ليست هيه إذ لا تلمح لها الآية ، اللّهم إلا نسبة بينها وبينه تلوّح للأخوَّة .

وهل السجدة هذه كانت ليوسف (عليه السلام) ؟ ولا يُسجد إلا لله ! إنما «سجدوا شكراً لله وحده حين نظروا إليه وكان ذلك السجود لله تعالى » (٣) وسجود الكواكب والنيرين هنا علّه سقوطها على قدميه ليعني غاية الخضوع ، وإلا فهي خاضعة لله منذ تكوينها وفي حركاتها .

---

(١)الدر المنثور ٤ : ٤ ـ اخرج احمد والبخاري عن ابن عمر ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : . .

(٢) المصدر ٤ : ٤ ـ اخرجها بطرق عدة مصححة عن جابر قال جاء بستاني اليهودي الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا محمد اخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف (عليه السلام) ساجدة له ما اسماءها فسكت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فلم يجبه بشيء فنزل جبريل (عليه السلام) فاخبره باسمائها فبعث رسول الله (صلى الله عليه وآله سلم) الى البستاني اليهودي فقال : هل انت مؤمن ان اخبرتك باسمائها؟قال: نعم قال (صلى الله عليه وآله وسلم): حرثان والطارق والذيال وذو الكفتان وقابس ودثان وهودان والفيلق والمصبح والضروح والفريخ والضياء والنور رآها في افق السماء ساجدة له فلما قص يوسف على يعقوب قال: هذا امر مشتت يجمعه الله من بعد فقال اليهودي اي والله انها لأسماءها.

(٣) نور الثقلين ٢ : ٤١٥ في تفسير القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر (عليه السلام) قال: تأويل هذه الرؤيا انه سيملك مصر ويدخل عليه ابواه واخوته ، اما الشمس فأم يوسف راحيل، والقمر يعقوب، وأما الأحد عشر كوكباً فاخوته فلما دخلوا عليه سجدوا شكراً لله . .

ولماذا « رأيت » مرتين وهي رؤيا واحدة ؟ كأن الاولى هي الرؤيا والثانية هي الرؤية فيها فالأبلغ الأفصح تكرارها .

وترى لماذا بالنسبة للكوكب والشمس والقمر « هم .. ساجدين » وهي لا تعقل؟ علّه حيث نسب إليها فعل من يعقل « ساجدين » ناسبها ضمير العاقل ، وكما في أضرابها : « وكل في فلك يسجون » « يا ايها النمل أدخلوا مساكنكم » « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا » « فظلت أعناقهم لها خاضعين » .

فقد حسن استعمال ضمير العاقل فيها لمكان فعل العاقل ، وهنا مزيدٌ تحويلاً لتأويل الرؤيا وهو ابوا يوسف واخوته ، فجرى الوصف على تاويل الرؤيا ومصير العقبى ، فزاد حسناً على حسن .

ثم الرؤيا هي الروءية في المنام ، وهي تعمها وكل ما يُرى في غير حالة اليقظة الكاملة من إغماء ، أم حالة بين النوم واليقظة ، كما المنام يعم النوم باختيار ودون اختيار ، وفي اختياره يعم اختيار مقدمات له ، أم اختيار النوم بتجريد النفس وتخليّها عن البدن بحواسه الظاهرة ، والرؤيا تحصل في كل هذه الخمس مهما كان أكملها النوم التام باختيار أم دون اختيار ، في نوم حَيْوَنة الحواس أم إنامتها باختيار .

والمناسب منها لساحة يوسف الصديق هو ما دون الإغماء ، والأنسب بين الأُخرى هو الإنامة باختيار، ولا برهان لها فيها هنا، فان رؤيَّ الأنبياء شعبات من الوحي ، كما في سائر الرؤيّ الصادقة ، فإن فيها لمحات الوحي ، حيث تُرى سيرة الواقع في ظلال الصورة المناسبة لها ، الوطيدة الصلة بها .

فقد يُرى الواقع الغيب بسيرتها وصورتها الحقيقية ، وهذه تخص رجالات الوحي ومن يحظو حظوهم ، إذ يحذو حذوهم ، ام ترى بصورتها

المثالية ، فهي بحاجة إلى تاويل ، وهذه تعمهم وسواهم ممن يرى الرؤيّ الصادقة، ورؤيا يوسف هذه من الثانية ، كرؤيا صاحبيه في السجن : «قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه . . » (٣٦) وكرؤيا الملك : « وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . .» (٤٣) .

وقد تكون منها رؤيا ما أوحي إلى أم موسى : « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم » (٢٠ : ٣٩) فإنه وحي الإلهام وعلّه في الرؤيا كما يُروى ، أم في اليقظة كما تحصل للصالحين . ومن رؤيا النبوة العليا للرعيل الأعلى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون » (٤٨ : ٢٧) و « إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر » (٨ : ٢٣) « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلاّ فتنة للناس » (١٧ : ٦٠) وفي ابراهيم « إني أرى في المنام أني أذبحك . . » (٣٧ : ١٠٢) .

والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يرى في هذه وتلك صورة الواقع نسخة طبق الاصل ، دون المثال الذي يحتاج الى تاويل .

فالنفس تتجرد حالة المنام عن حَيْوَنة التعلق ببدنها ، فقد تشفُّ أكثر مما كانت قبل المنام ، فترجع إلى عالمها المسانخ لها،فترى بعض ما فيه من الحقائق قدر استعدادها وفاعليتها وقابليتها ، وقد لا تكشف لبقية التعلّق والإتصال بما تحويها من حواجز خارجية او داخلية ليست لتتخلى عنها ، فلا تتحلى إذاً بالكشف عن الحقائق .

فالنفس الكاملة تدرك الحقائق مجردة عن الصور الطارئة ، وغيرها قد

تدركها بطارئة الصور التي تأنسها ، وهذه الصور قد تكون قريبة الصلة والحكاية عن حقائقها ، وهي للأصفياء ، أمّن يصفو لفترة مصلحية وإن لم يكن من الأصفياء .

وقد تكون متوسطة الصلة أو بعيدتها عن حقائقها، فيصعب تأويلها، حين تختلط وتتخربط الصور المماثلة والمضادة للحقائق ، فتضل عنها ولا مووّل لها مهما كان لها تأويل ، اللّهم إلاّ من علّم تأويل الاحاديث « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تاويل الأحاديث » .

فمن الرؤيّ ما هي صادقة حيث ترى فيها الحقائق بصورها الواقعية ، او القريبة ، ومنها الكاذبة حيث لا ترى فيها الحقائق إلا بصور غريبة بعيدة يصعب تأويلها إليها وهي أصغاث أحلام ، ذلك لاختلاف حالات النفس في منامها ، ومنها ما هي كاذبة لا تأويل لها إطلاقاً ، إلاّ حكاية عن طواريء النفس خارجية وداخلية .

فالرؤيُ المتجردة عن اسباب خارجية طبيعية في اليقظة والمنام ، وعن اسباب مزاجية او خُلُقية ، هي الصادقة ، سواء في الصور المجردة ، أم التي لها صلة بالواقع قريبة أم غريبة ، والأخيرتان بحاجة إلى تأويل .

ولكنها الرؤي المرتبطة باسباب سوى الواقع ، هي المرتبكة البعيدة عن الواقع ، وليس لها تاويل أبداً .

وعلى أية حال فلا مجال لانكار أن هناك الرؤي الصادقة[1] حيث تخبر

---

(١) وكما يقوله الباحثون الغربيون من علماء الطبيعة حيث لا يرون للرؤيا حقيقة ولا للبحث عنها وارتباطها بالحوادث الخارجية وزناً علمياً ، ولكنها المنامات الصحيحة المتواترة الكاشفة عن المغيبات ليست لتحمل على الصدف والاتفاقيات ، والا كانت الصدفة انجح من المحاولة القاصدة في الكشوف العلمية .

عن الغيب ماضياً او حاضراً او مستقبلاً ، حين تصفو النفس أصالة كالأصفياء ، ام ابتلاءً وتذكيراً لفترة او فترات كما في البعض من رؤي غير الأصفياء .

فما منا صالحاً وطالحاً إلاّ وقد رأى في منامه ما يكشف له بعض المغيبات ، ما لا سبيل إليها بالسبل الطبيعية والكسبية المتعودة ، واما رؤي الصالحين الصادقة فكثيرة كثيرة ، ودرجات الكشف في الرؤي حسب درجات أصحاب الرؤي ، كما وتأويلاتها في صورها المتوسطة والبعيدة بحاجة الى درجات من الكشف لمن يؤولها إلى حقائقها ، ومن أرقاها ما يلهمه الله أو يوحيه وكما ليوسف الصديق « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث . . » .

فالرؤي الصادقة هي ما تتخطى حواجز الزمان وحواجز المكان وحواجز الأحلام الكاذبة التي يعيشها الإنسان .

وكما تتخفى حواجز الأبدان وعالم الأبدان ، فتشفُّ الروح اكثر مما كان ، فترى الحقائق بسيرتها او صورتها متحللة عن مثلث الزمان ، وأبعاد المكان.ثم الكاذبة لا تحكي إلاّ عن هذه الحواجز الباقية على قدرها ، فلا رؤيا إلاّ ولها تأويل ، بين صادقة تكشف عن الواقع الحق ، ام كاذبة تكشف عن الواقع المختلَق(١) .

---

(١) وصح عن جابر أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم ومن شرها ولا يذكرها لاحد فانها لن تضره .

وفي تفسير روح المعاني للآلوسي ١٢ : ١٨١ وفي الصحيح عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : اذا رأى احدكم الرؤيا يحبها فانها من الله فليحمد الله تعالى وليحدث بها واذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هي من الشيطان فليستعذ =

وقد تعاضدت الروايات ان الرؤ يا الصادقة شعبة من الوحي ، او جزء من ستة واربعين جزءاً من النبوة ، وقد تتأيد الاخير بما يروى ان الوحي على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان منذ البداية الى ستة اشهر في الرؤ يا [1] ولو صحت لانطبقت في الحساب قياساً لستة اشهر الى ثلاث وعشرين سنة زمن الوحي كله ، الا ان الثابت قرآنياً وفي السنة ان الاكثرية الساحقة من وحيه في تلك المدة كانت يقظة ، واقله في الرؤ يا .

وقال جماعة من المتفلسفة [2] وآخرون من الصوفية [3] مقالات حول

= بالله تعالى من الشيطان الرجيم ومن شرها ولا يذكرها لاحد فانها لن تضره،وفيه،وصح عن جابر ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : اذا رأى احدكم الرؤ يا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله تعالى تعالى من الشيطان الرجيم وليتحول عن جنبه الذي كان عليه .

(١) تفسير الآلوسي ١٢ : ١٨٢ عن عائشة :

(٢) قالوا انها انطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيله إلى الحس المشترك ، والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن ادنى فراغ فتتصور بما فيها مما يليق بها من المعاني الى صلة هناك ، ثم ان المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبها فترسلها الى الحس المشترك فتصير شاهدة ثم ان كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت إلا بالكلية والجزئية استغنت عن التعبير وإلا احتاجت اليه :

(٣) قالوا ان الرؤ يا من احكام حضرة المثال المقيد المسمى بالخيال وهو قد يتأثر من العقول السماوية والنفوس الناطقة المدركة للمعاني الكلية والجزئية فيظهر فيه صور مناسبة لتلك المعاني وقد يتأثر من القوى الوهمية المدركة للمعاني الجزئية فقط فيظهر فيه صورة تناسبها وهذا قد يكون بسبب سوء مزاج الدماغ وقد يكون بسبب توجه النفس بالقوة الوهمية الى ايجاد صورة من الصور كمن يتخيل صورة محبوبه الغائب عنه تخيلاً قوياً فتظهر صورته في خياله فيشاهده وهي اوّل مبادىء الوحي الالهي في اهل العناية لان الوحي لا يكون الا بنزول الملك واوّل نزوله في الحضرة الخيالية ثم الحسية وكما يروى عن عائشة انها قالت : اوّل ما بدىء به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من الوحي الرؤ يا الصادقة فكان لا يرى رؤ يا الا جاءت مثل فلق الصبح :

الرؤي ، نصدق المصادِق منها مع الكتاب والسنة .

يرى يوسف الصديق رؤ ياه الصادقة هذه فيقصها على ابيه ، ثم يعقوب التورات ينتهره « ما هذا الحلم الذي حلمت ؟ هل يأتي أنا وأمك واخوتك لنسجد لك إلى الأرض ؟ فحسده أخوته واما ابوه فحفظ الأمر »(١) تكذيباً لرؤ ياه في تنديد وانتهار ، حيث يصبح يوسف في حيرة وانبهار ، ثم حفظاً لها كأنه يرى لها واقعاً ! ويا له من تناقض في هذه المواجهة ، وانتحار !

واما يعقوب القرآن فيصدقه بكل تكريم وإكبار ، ويؤوِّلها أحسن تأويل فيحذره عن قصها لإخوته خوفاً عن مكيدة وحسد واستكبار :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾(٥) .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

(١) في الاصحاح ٣٧ من سفر التكوين » . . ١ ـ وسكن يعقوب في ارض غربة ابيه في ارض كنعان ٢ ـ هذه مواليد يعقوب : يوسف اذ كان ابن سبع عشرة سنة كان يرعى مع اخوته الغنم وهو غلام عند بني بلهة وبني زلفة امرأتي ابيه وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة الى ابيهم واما اسرائيل فاحب يوسف اكثر من سائر بنيه لانه ابن شيخوخته فصنع له قميصاً ملوناً فلما رأى اخوته ان اباهم احبه اكثر من جميع إخوته ابغضوه ولم يستطيعوا ان يكلموه بسلام ـ
وحلم يوسف حلماً فاخبر اخوته فازدادوا ايضاً بغضاً له فقال لهم : اسمعوا لهذا الحلم الذي حلمت : فها نحن حازمون حُزماً في الحقل واذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حُزَمكم وسجدت لحزمتي ، فقال له اخوته « الملك . . . » .
ثم حلم ايضاً حلماً آخر وقصه على اخوته فقال : اني قد حلمت حلماً ايضاً واذا الشمس والقمر واحد عشر كوكباً ساجدة لي وقصه على ابيه وعلى اخوته فانتهره ابوه وقال له : ما هذا الحلم . . فحفظ الامر » .

ذلك وحتى تحققت رؤياه بتأويلها « ورفع ابويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً . . » (١٠٠) .

اترى انه قصها على اخوته ، خلافاً لصالحه وعصياناً لأمر والده الحنون فحسده إخوته؟ كلّا! فإنما ملامح الحب اللّائحة منه ليوسف وأخيه ، الراجحة على إخوته ، هي التي حرضتهم على ما حسدوه وافتعلوه « اذ قالوا لَيوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا . . » دون تصريحة أو اشارة ، أنه يرأسنا كلنا بما رأى من رؤياً أوّلها أبونا ، أم رؤيا غيرها .

ولكنها التورات تخطأ هنا خطأً ثانياً إذ تصرح أنه قصَّه على اخوته [1] ثم تعكس امر المواجهة ، فلأبيه الإنتهار ، وليس هنا للإخوة أمرٌ ، وعلّهم وافقوا أباهم في تكذيبه ، فلم يأخذوا رؤياه بعين الإعتبار! اللّهم إلاّ رؤيا أخرى هي الأولى ، تذكرها ما هيه ثم قول الإخوة « ألعلّك تملك علينا ملكاً أم تتسلط علينا تسلطاً؟ وازدادوا ايضاً بغضاً من أجل أحلامه ومن اجل كلامه » [1] ؟!

« قال يا بني » هذا التصغير دليل انه صغيرٌ ولّما يبلغ الحلم خلاف ما تقصه التورات انه ابن سبعة عشر ، ووفاقاً لآيات تالية في نفس السورة « . . هذا غلام . . » - « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً . . وراودته التي هو في بيتها . . »ثم إنه لمحة لاتجاه الأب الحنون وِجاه هذا الولد الصغير ، الكبير الكبير في محتده ، المحسود بين إخوته من قصته ، ومثل هذه الرؤيا ليست رؤيا الطفولات للأطفال ، وإنما رؤيا البطولات للرجال الأبطال ، مما يخطط رسم حياته المنيرة منذ الطفولة حتى الرجولة ، محسودة بين

---

(١) نفس المصدر السابق .

الإخوة، محاطة بحيطة رحيمة .

« قال يا بني لا تقصص رؤ ياك على اخوتك . . » كمبدء وضابطة في قصّ الرؤ يا وعدم قصّها ، ولماذا تقص الرؤ يا على حاسدين يتحرضون لكل مكيدة : « فيكيدوا لك كيداً » وقد يُنسى الحنان الأخوي حين يرون فائقاً متوفقاً من بينهم عليهم حيث « الشيطان ينزغ بينهم » « إن الشيطان للإنسان عدوٌ مبين » ! إنما تُقص الرؤ يا على من يؤوّلها ، أو يتبهج لهاكوالد حنون ، دون من يتحرّج بها فيُحرِّج صاحب الرؤ يا كأخوة حاسدين .

فلقد عرف يعقوب من هذه الرؤ يا ان يوسف هو المختار بين ابنائه من نسل ابراهيم لتحل عليه كل بركة ، وتتمثل فيه كل حركة في هذه السلسلة المباركة وكما قال « وكذلك يجتبيك ربك . . . » .

لذلك ـ وحفظاً عليه ـ يوصيه إلاّ يقص رؤ ياه على إخوته ، وبطبيعة الحال لم يكن ـ بعد ـ ليقصها حيث يرى في ذلك هدماً لصرح رؤ ياه ، وخلافاً على أبيه ، وكما لا تلمح القصة على طولها أنه قصها عليهم .

ولو أنه قصها عليهم ، وقد علم انهم يكيدون له كيداً ، فلماذا يرسله معهم حين يطالبوه؟ أإرسالاً الى غير مَحض ليحققوا كيدهم الذي يعلم لو انهم عرفوا رؤ ياه ؟! وفي ذلك القص وهذا الإرسال تخطئة لساحة يوسف ويعقوب،ومس من كرامتهما،فلا تصدق الرواية القائلة « فلم يكتم يوسف رؤ ياه وقصها على اخوته » (١) فانها من الإسرائيليات .

---

(١) تفسير البرهان ٢: ٢٤٢ عن ابن بابويه بسنده عن الثمالي عن علي بن الحسين(عليه السلام) في حديث مفصل فيه قصة رد يعقوب سائلامؤمناً صائماًفعاقبه الله في يوسف وفيه فقلت لعلي بن الحسين (عليه السلام) جعلت فداك متى رأى يوسف الرؤ يا فقال في تلك الليلة التي بات فيها يعقوب وآل يعقوب شباعاً وبات فيها دميال طاوياً جائعاً فلما رأى

ولماذا هنا « فيكيدوا لك » وهو متعدٍ بنفسه كما « فيكيدوني » ؟ اللام هنا لا تُعدي ، وإنما تؤكد تخصيصاً ان يختصوك بكيدهم بمحاولات قاصدة هادفة ، دون استطراد في جمع ، وذلك من عداوة الشيطان للإنسان ان ينزغ بينهم لحدّ الكيد القتل لأخ حبيب صغير وكما فعل ، والأخوّة من الظروف الجذرية للتحاسد يتعامل معها الشيطان ما وجد إليها سبيلاً .

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(٦) .

« وكذلك » البعيد المدى ، العظيم في الرؤيا ، نسخة طبق الأصل ، وواقعاً وفق الصورة « يجتبيك ربك ... ويعلمك ... ويتم نعمته عليك .. » أترى الإجتباء هنا هو الرسالة ، أم إنها إتمام النعمة ؟ فالإجتباء لها كتقدمة وبينها تعليم الأحاديث ؟ حيث الرسالة هي إتمام النعمة إذ ليست فوقها نعمة !

لكنها الرسالة المحمدية وهي القمة العليا من النعمة تتم بفتح مكة : « انا فتحنا لك .. ويتم نعمته عليك .. » فكيف لا تتم هذه النعمة فيما

= يوسف الرؤيا واصبح يقصها على ابيه يعقوب فاغتم يعقوب لما سمع من يوسف وبقي مغتماً فاوحى الله عز وجل اليه ان استعد للبلاء فقال يعقوب ليوسف لا تقصص رؤياك على اخوتك فاني اخاف ان يكيدوا لك كيداً فلم يكتم يوسف رؤياه وقصها على اخوته ...

اقول وفي هذا الحديث موارد من النظر ، فكيف يحرم يعقوب النبي سائلاً وقت الافطار وعنده كبش مطبوخ ويبقى عنده فضل منه والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع » ثم كيف يؤخذ الابن بذنب الاب لو كان ذنباً وطبيعة الحال تقضي ان الاخوة لما يرون يوسف احب الى ابيهم منهم يحسدونه ويكيدون ولان الملك عقيم وهم يخافون ان يصبح خليفة ابيه بعده ؟ ! ..

دونها من رسالات كما في يوسف وآل يعقوب وفي ابراهيم واسحاق ؟ !

فـ « يجتبيك ربك » هو الرسالة قبل إتمام النعمة ، فإنها نعمة من الله خاصة ، ولها درجات تتكامل فيها في جنبات ، كما وأصل الرسالة والنبوة درجات .

وإذا يسجد له يعقوب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مع الساجدين ، وذلك سند اجتبائه في رؤياه ، أفلا يكون - إذاً - رسولاً كأبيه أو هو أفضل لمكان السجدة ، وذلك هو أصل اجتبائه ، ثم يتبّناه تعليم الأحاديث وإتمام النعمة .

وقد جاء الإجتباء في جباية الرسالة كما في آدم : « ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » (٢٠ : ١٢٢) وابراهيم : « شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى طراط مستقيم » (١٦ : ١٢١) بل وحتى اجتباءٌ بعد الرسالة كما في يونس : « إذ نادى ربه وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » (٦٨ : ٥٠) وذلك الإجتباء بعد أن « أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون » (٣٧ : ١٤٧) ثم « ذهب مغاضباً فظن ان لن نقدر عليه .. » .. ثم سجن في بطن الحوت ثم نجي « فاجتباه ربه .. » ! «وما كان الله ليُطلِعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء .[1] » (٣ : ١٧٩) .

فهو يجتبي رسله ويجتبي من رسله ، ثم لا اجتباء فيمن دون الرسل رسالة او في درجاتها ، إلاّ اجتباءً لأمة على أمة ليست إلاّ دون الرسالة كما

(١) وهم اسحاق - ويعقوب - داود - سليمان - ايوب - يوسف - موسى - هارون - زكريا - يحيى - عيسى - اسماعيل - اليسع - يونس - لوط ←

في المجاهدين المسلمين خق جهاده : « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سمّاكم المسلمين . . » (٢٢ : ٧٨) وكما في إتمام النعمة هنا « ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب » حيث النعمة درجات فإتمامها أيضاً درجات ، وقد فضل آل يعقوب على سائر الآل لاجتباء الأنبياء منهم لا أنهم كلهم أنبياء .

وحتى فيما يذكر الاجتباء في جماعة الأنبياء ، ليس ليدخل فيهم غيرهم ، وكما تذكر جماعة من الأنبياء الابراهيميين باسمائهم(٤) وجماعة أخرى جملة : « ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم » (٦ : ٨٧) .

هذا هو الإجتباء قرآنياً ، وهو يجاوبه لغوياً فإنه جمع على طريق الإصطفاء ، ولا إصطفاء إلاّ في الأنبياء ، يقال : جبيت الماء في الحوض جمعته ، والحوض الجامع له جابية،وجمعها جواب « وجفان كالجواب وقدور راسيات » .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

وكأن الاجتباء في الأنبياء يعني جمع الشمل ، تحفظاً عن تفرق الأفكار في متفرق السبل المفرقة عن سبيله ، وتجميعاً لها وتوحيداً وتوطيداً على صراط مستقيم ، بعدما جمعت لهم خاصة النعم الربانية في نعيم مقيم .

ثم « ويعلمك من تأويل الأحاديث » موهبة له ثانية بعد اجتباءه بالنبوة ، والتاويل هو الإرجاع ، فليس إلاّ فيما له مرجع في مبدءٍ أو منتهى أم بينهما ، يُرجع إليه الحديث المتشابه ، حيث لا ينبىءُ ظاهره عن باطنه ، بداية ونهاية وبينهما، وهذا هو غاية التشابه الا يُظهر الحديثُ مرجعَه في مثله .

ثم الحديث هو كل حادث بمظاهره وآياته كما الله حديث « فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون » ام بذاته وتطوراته كما في كل حادث ،

ريوسف موعود ان يعَلم « من تأويل الأحاديث » لا كل الأحاديث ، وقطعا ليس منها حديث ذات الله إذ ليس لها تاويل ، ولا كل مخصوص علمه بالله أمَّا:ا من المستحيل كالعلم بكنة الأشياء لحد يساوق القدرة على إبداعها كما مر .

فتأويل الأشياء إلى حقائقها هكذا في مثلث الزمان وفوق الزمان والمكان مما يختص بالله علماً وقدرة ، وتأويلها إلى شيء من باطن أمرها ماضياً أم حالا واستقبالاً ، هو من العلم الذي يعلّمه الله من يشاء « ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء » (٢ : ٢٥٥) .

فمما علّم من تأويله هو تاويل الرؤيّ كما أوّل لصاحبي السجن وللملك ، ومنه تأويل الطعام منشأ ونتاجاً وبأحرى في حاله : « قال لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتاويله قبل أن يأتيكما » .

والرؤيا حديث في حديث ، حيث تحدث النفس فيها عن حدث بصورته قريبة أم بعيدة ، وسائر الحديث واحد ، وكلٌ لتأويله عبص ، ويوسف إنما علّم من تأويل الأحاديث ، وعلّه بعض التأويل من بعض الأحاديث تبعيضاً من « مِن » وفي بُعديه ، وقد ذكر منها تأويل الرؤي وتأويل الطعام ، وطبعاً منه تأويل الأعمال والأحكام ، حيث الرسول يعرف مآخذ الأحكام ومآلاتها ، فله تفسير التأويل توسيعاً وتطبيقاً لنصوص الأحكام .

ثم الصور التي يراها الإنسان في يقظته كما في منام هي من ضمن هذه الأحاديث ، قد عُلّم من تأويلها كصور الرؤيّ ، أترى أن الصور التي هي كاذبة لا تحدّث عن واقع ، لها ايضاً تأويل كما للصادقة حتى يعلمها يوسف كلها ؟ اجل ولكن الصورة غير الصورة ، فالكاذبة تأويلها الحالة الخاصة التي عليها الإنسان ، المتخلفة عن الواقع ، ام والجو الكاذب المحيط بالإنسان أما ذا من غير الواقع ، تأويل حسب واقعه حقاً أو باطلاً .

ومن ثم « ويتم نعمته عليك » علّة سلطته الزمنية إضافة الروحية حتى يتمكن من تمكين الدين وفي جو الفراعنة المتخلف عن الدين ، أماهيه من إتمام النعمة وكما أتمها الله على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بفتح مكة .

ويا له ترتيباً رتيباً في واقعه : اجتباءً للرسالة ، ثم تعليماً من تأويل الأحاديث كمَنفذٍ مُنقِذٍ عن السجن ، ثم « يتم نعمته عليك » بسلطة زمنية « كما اتمها على أبويك من قبل » اتمها من قبل - على ابويك من قبل ، فلستُ بدعاً ممن أتم الله نعمته عليه « ابراهيم واسحاق إن ربك عليم حكيم »(٦) .

والنعمة هي الحالة الحسنة بخلاف النِّعمة ، فانها السيئة : « ذرني والمكذبين أولي النَّعمة ومهّلهم قليلاً » (٧٣ : ١١) والمادة في الحالتين واحدة من علم او سلطة او مال وبنين أمّا هيه من وسائل الحياة ، فاذا استخدمت في طريق السعادة ، فهي نِعمة ، ام في طريق الشقاوة فهي نِقمة ونَعمة

و « نعمة » هنا هي الخاصة بالمرسلين من عصمة أمّاهيه ، فإتمامها هو بروزها تطبيقاً لشرعة الله في واقع الحياة في دولة الحق على دويلات الباطل ، التي هي ويلات على الحق !.

وكان تعليم الأحاديث هو من خلفيات الإجتباء فانه إخلاص واصطفاء ، وكلما كان الإنسان أخلص لله وأصفى كان علمه بتاويل الأحاديث اكثر وأوفى ، فليكن ابراهيم واسحاق ويعقوب ممن علّمه من تاويل الأحاديث : « واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب اولي الايدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار » (٣٨ : ٤٦) وقد أوّل يعقوب أوّل ما رأى يوسف من الرؤ ي فكان كما أوّل دون أية ليت او لعل ، ثم وإتمام النعمة له صورة شتى تعم السلطة الزمنية كما في يوسف وداود وسليمان ومحمد (صلى الله عليه وآله

وسلم) والقائم المهدي من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذه من الصور الظاهرة ، ثم صور أخرى تناسب كافة الأصفياء الأوفياء .

ومن إتمام النعمة في الرسالة دوامها فيمن يحملونها دونما انقطاع ، تخليداً لدولة الحق في السلطة الرسالية ، وكما تمت يوم الغدير بانتصاب الامير ، وقد قال عنه العلي القدير : « أليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » (٥ : ٣) فإنه يوم تقرير المصير في استمرارية هذه الرسالة السامية لو حملتها حَمَلَتُها الرساليون الرسوليون كالإمام علي (عليه السلام) والأحد عشر من ولده المعصومين (عليهم السلام) ثم فقهاء الأمة الأمثل منهم فالأمثل ، وبالأحرى الشورى القدسية بين الرعيل الأعلى أحكامياً وساسياً لإدارة أمور الامة على ضوء الكتاب والسنة .

وهب هم الأصطفياء ، أتم نعمته عليهم ، فمَن هم « آل يعقوب » بجنب هؤلاء الأربعة الطاهرة : ابراهيم واسحاق ويوسف ويعقوب ؟

علّهم يعقوب ومن معه من نسله ، نبياً وسواه ، او سوياً على صراط الحق وسواه ، فلا يعني إتمام نعمة الرسالة على آل يعقوب وهم اسرائيل وبنوه ، أنهم كلهم رسل تمت النعمة فيهم: «ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات » (٤٥ : ١٦) فالنعمة الأصيلة وهي الرسالة ، وإتمام هذه النعمة ، هما في أشخاص الرسل الإسرائيليين ، ومن ثم على المرسل اليهم الأوّل وهم آل اسرائيل مهما صدقوها أم كذبوها: « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون » (٢ : ٤٠) ولكن اصل النعمة هي للذين أنعم الله عليهم: « من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » (٤ : ٦٩) مهما كان الأصل فيهم الأولون: « اولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم . . » (١٩ : ٥٨) إذاً فآل يعقوب في إتمام النعمة هم الأنبياء الإسرائيليون من

يوسف، وموسى وعيسى ومَن بينهما من داود وسليمان أمّن ذا ؟ ثم وآله في شمول هذه النعمة هم المؤمنون منهم ، ومن ثَمَّ الكافرون حيث اتجهت إليهم وان لم يتجهوا .

هذا إجمال عن أحسن القصص، وهنا يسدل عليه الستار إلى مشهد التفصيل :

* لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ
وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ
وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ
لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾
قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ
ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾
قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ
أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ

ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ
بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ
لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ
عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا
يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا
وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ
قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ
وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ
فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ
وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ
بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾
وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ
عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ

عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾(٧) :

« لقد » تاكيدان اثنان لما « كان » في سالف الزمان « في يوسف واخوته آيات للسائلين » منذ قصصهم إلى ما طلعت الشمس وغربت ، آيات دائبة مرّ التاريخ في مثلث الزمان لكل سائل عن قصصهم بآياته :

« آيات » وامارات كثيرة في حظيرة الصدّيق مع إخوته الحاسدين عليه الحاقدين . .

نرى هنالك آيات قدرته الرحيمية على من أخلص له ، فكلما كيد كيدٌ من إخوته ومن السيارة ومن العزيز وامرأته أمّن هو ، كاد الله له عليهم بعكس ما لديهم « والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

وبجنبها آيات نقمته وإذلاله على من يريدون بمن أخلص الله سوءً : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه كان من عبادنا المخلَصين » .

وبينهما آيات عزته في عبده إذ لم تحوّله مضادات التحولات ، فهو في السجن كما هو على عرش الملك ، وهو في قصر العزيز كما هو في الجب ، له سيرة واحدة ، واتجاه واحد صامد رغم مختلف الصور والظروف المتهافتة المتفاوتة : « وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فسئله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم » ثم وآيات تلوَ آيات تأتي في طيّات الأيات ، . . آيات للسائلين :

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾(٨)

قولتهم هذه لا سواها تلمح لمسرحٍ من مزيد الحب من أبيهم ليوسف

وأخيه ، ولو كان الحسد الباعث لما انبعثوا هو من تلك الرؤيا ، لكانت أحق بالذكر بلاغة في ذلك المسرح ، ودون ذكر لاخي يوسف إذ لا تشمله رؤياه ، ولكنهم يتحدثون عن « ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا . . » ولو كانوا يعلمون رؤياه لكانت أحرى بذكرهم إياه فقط، وأدعى أن تلهج ألسنتهم بحقدهم .

فإنما ملامح الحب ـ فقط ـ ومسارحه او مصارحه هي الباعثة لقولتهم هذه وفعلتهم ، ولا سيما أن الحب أصبح يزيد ـ بطبيعة الحال ـ لمكان رؤياه ، فقد حان ـ إذاً ـ حين كيدهم له كيداً « إن الشيطان للإنسان عدو مبين » .

ثم « وأخوه » هنا دون « أخونا » تلمح أنه وإياه كانا من أم أخرى ، ولأنه الأكبر ، والحب الأبوي له أكثر ، لذلك يتوحد كيدهم عليه دون أخيه ، إذ لا مكان له دونه كما كان « فتكونوا من بعده قوماً صالحين » .

« لَيوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة . . » : جماعة يتعصب بعضنا لبعض فان أمنا واحدة ، ولأننا كثرة وهما قلة ، فنحن ـ إذاً ـ مجموعة قوية تدفع وتنفع وأقوى منهما في بعدين اثنين ، ولو كان أبونا يعرف صالحنا وصالحه لكان يحبنا أكثر ، أم ـ لاقل تقدير ـ لم يفرق بيننا ، ففي ترجيحه المرجوح على الراجح والمفضول على الفاضل ضلال وزلة : « إنَّ أبانا لفي ضلال مبين » ضلالٌ موكدٌ بحر فَي التأكيد ، يبين نفسه بما أبان من حبه لهما أكثر منا .

نحن العصبة القوية ندير شؤون حياة العائلة إيكالاً وَكُلاًّ وهما صغيران ليس لهما دور فيها إلاّ أكلاً وكَلاًّ ، فلماذا ـ إذاً ـ هما أحب إلى أبينا منا ، وهذا ضلال مبين عن صراط الحياة البيتية والإجتماعية ، مهما كان أبونا نبياً مهدياً في الحياة الروحية .

أترى ان ذلك الحب الأبوي الزائد كان ـ فقط ـ لأنهما صغيران ؟ وهو سنة

دائبة في كل الآباء والأمهات بالنسبة لصغار الأولاد ، فلا يحسدهم الكبار على ذلك فانه تودد الترحم والتعطف لمكان ضعف الطفولة ! وانهم استندوا في ضلال أبيهم المبين إلى كونهم عصبة ، فهو ضلال مبين ـ إذاً ـ في نسبة أبيهم إلى ضلال مبين ، حيث الأخ القوي الكبير لا يحسد الضعيف الصغير ، ولا يتوقع لنفسه حب الطفولة كما للصغير ، إلاّ إذا غرب عقله وطفلت نفسه وهذه مهانة بارزة . . وكلٌّ يذكر طفولته ورجاحة المودة الأبوية فيها ، فليسا هما بدعاً من الإخوة الأطفال بنحو نحوهما الوالد الرحيم ويحنو لهما أكثر من العصبة ، فهو ـ إذاً ـ صراط مستقيم في جو العائلة وليس من الضلال المبين !

إنما ذلك كان حباً زائداً فوق رحمة الطفولة ، حبٌّ يكشف عن لباقة زائدة فيهما ومستقبل زاهر ليس فيهم ، حبٌّ دائب يزيد على مرّ المزيد من عمرهما ، ولا سيما يوسف لمكان رؤياه تلك التي أولّها باجتباء وعلم وتمام النعمة ، وقد نستلهمه من لام البداية التأكيد « ليوسف وأخوه » مما يلمح بدوام ذلك الحب دون زوال .

فقد كان حباً يتخطى رحمة الآباء على الأطفال ، ويحلّق على كل حب في كل مجال ، فإنه ـ فقط ـ حب رسالي في الله ، وبأمر الله ، دون الحب السائر الدائر قضيةَ الأنساب والأسباب ، إلاّ سبباً إلهياً يحلّق على كافة الأسباب ! فهو حب رسالي لا أبوي !

ذلك الحب الجذري اللائح لهما ، الدائب فيهما ، هو الذي يجعلهم يحسدونهما ، لحدّ المكيدة في قتل الأحب منهما .

أتراه كان بإمكانه إخفاء ذلك الحب اللائح في مقاله وحاله وأفعاله ، ولكي يحافظ على محبوبه ، كما هو الأصلح في الحفاظ على المحبوب ؟-

كلًا حيث الحب يلمح ويرشح مهما كانت الحائطة على إخفاءه ، ولا سيما في حِضن العائلة ، فالحب المترسب يتسرب ، كما الكوز يرشح بما فيه .

اترى ـ بعد ـ الضلال المبين هو ضلالٌ في الدين ؟ والبيِّنُ من طيات محاوراتهم طول قصصهم أنهم كانوا من المؤمنين ، معترفين أن أباهم من النبيين ، فكيف ـ إذاً ـ بالإمكان ان ينسبوا أباهم الى ضلال مبين في الدين ؟ انما هو الضلال عن صراط الحياة الظاهرية ، والمصلحية العائلية ، ان يكونا وهما صغيران ، لا يقويان على امر لصالح العائلة ، يكونا احب الى ابينا منا بلا اي سبب ، حيث الرجاحة المعنوية لهما كانت عنهم خفية ، ام لائحة لا يرضون بها لأنهم وهم عصبة احرى في زعمهم بتلك الرجاحة ، وهذه وتلك « ضلال مبين » ! قد يزول بزوال الموضوع « يخل لكم وجه ابيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » ولو كان ـ في زعمهم ـ ضلالاً في الدين ما زال بزوال يوسف وبنيامين !

ام تراهم ـ بعد ـ انهم كانوا من النبيين ، والحجج متصارعة في هل أنهم من المؤمنين أم من الكافرين ، لولا تصريحات بطيات الآيات أو تلويحات أنهم كانوا من المؤمنين ، وليسوا هم من الأسباط حتى يشملهم وحيهم : « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرٰون وسليمان وآتينا داود زبوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً » (٤ : ١٦٤) .

فالأسباط هم من الرسل دون الأبناء إلّا يوسف ، حيث السَبط فتحاً انبساط في سهولة ، ويستعمل كسراً في ولد الولد لأنه انبساط من النسل ، ويستعمل في كافة الأحفاد بوسيط أم وسائط : « وقطعناهم إثنتي عشرة أسباطاً أمماً » (٧ : ١٦٠) ولم يكن ولد يعقوب لا اسباطاً ولا أمماً !

وهب إن قيلة النبوة المفرطة فيهم باطلة كقيلة الكفر المفرَّطة والصواب هو

العوان بينهما : الايمان: أوَ ليس المؤمن برسول إذا هتكه خرج عن الإيمان، وارتد عن كتلة المؤمنين ؟ ونسبة الضلال المبين الى النبيين مهما لم يكن ضلالاً في الدين ، هي أسوء هتك وأنحس مسّ من كرامتهم ! بل هو بالمآل ضلال في الدين ، حيث الدين يحلّق على كافة العقائد والأعمال ، فلم يكن يوسف وأخوه أحب إلى أبيهم منهم إلاّ قضيةَ الدين ، والضلال لهم على أية حال خلاف العصمة ، وقد كان يعقوب من المخلَصين : « واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب اولي الأيدي والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار » (٣٨: ٤٦) والضلالة غواية على أية حال،والشيطان « قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلاّ عبادك منهم المخلَصين » (٣٨: ٨٣) !.

ولكن كل ذلك لا يثبت عليهم الكفر الصُراح ، إلاّ جهالة في الدين ، وَنقصاناً في اليقين ، ولئن ارتدوا بذلك،فقد استغفروا الله بعد كما استغفر لهم يوسف ويعقوب ، والمرتد عن فطرة لا تقبل توبته ، فكيف استغفر لهم كما استغفروا هم أنفسهم ، فلم يكن بذلك الإرتداد الكافر ، وإنما عصيان عظيم عظيم على جهالة بشأن النبوة السامية ! بزَهوة القوة العُصْبة ودافع الحسادة .

هؤلاء الإخوة العشرة العُصبة لم يتحملوا ذلك الحب المتميز ليوسف وأخيه ، وحسبوه ضلالاً مبيناً في حقل الحب ، دون أي سببٍ أم سبب بزعمهم مزعوم ليعقوب ، وكما « قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم »(٩٥).

لقد نزغ الشيطان بين يوسف وإخوته حيث بزغ في حلومهم استغلالاً لذلك الحقد الركين، حيث علي وغلي في مرجله وانتقل من سهله البادي الى معضله حتى تآمروا عليه فيما بينهم لمّا لم يجدوا سبيلاً إلى قلب أبيهم تقبُّلاً منهم فتقلباً إليهم :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ

بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾(٩).

وهذه مؤآمرة ثانية في المؤتمر الذي عقدوه على ما حقدوه ، والرأي المشترك هو نفي يوسف عن محضن العائلة : « وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » (١٠٢) .

مهما اختلفوا في شاكلة أمرهم الإمر قتلاً او طرحاً له ارضاً بعيدة لن يصلوا إليه ولن يصل إليهم :

« اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً » فان فعلتموه « يخل لكم وجه أبيكم » كأنه حين يغيب عن بصره يغيب عن قلبه وبصيرته ، فيصبح قلبه خالياً عن حبه فارغاً إليكم ، ثم « وتكونوا من بعده قوماً صالحين » لتمام الحب من أبيكم ، متفرغين إلى صالحكم العائلي ومحضن الحنان الأبوي دون مُعارض فيه ولا مُشاغب .

أترى بعدُ « صالحين » يعني فيما عناه « صالحين » بالتوبة عما أذنبوا ؟ كأنه لا ، حيث « تكونوا . . » جزاء ثان للأمر : « اقتلوا يوسف أو اطرحوه » المؤول إلى شرط : إن قتلتموه او طرحتموه «أرضاً يخل لكم وجه ابيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين » وليس صلاح التوبة من نتائج الجريمة ، ولا نراهم استغفروا « من بعده » وانما استغفروا توسلاً إلى أبيهم : « يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربي . . » (٨) وكما وعدهم يوسف من قبل : «قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » (٩٢) وليس ذلك « من بعده » إلا من بُعدٍ بعيد ، وبَعد أن عرفوا أنهم ليسوا بعده ، بل هو قبلهم ومعهم وبعدهم عزيز آثره الله عليهم «لقد آثرك الله علينا . . » (٩١) .

لا فقط لم يكونوا ليَستغفروا « من بعده » بل وأصروا واستكبروا استكباراً قبل تبيُّن أمره ، حيث قالوا لأبيهم حين قال « إني لأجد ريح يوسف لولا أن

تفنّدون . قالوا تا لله إنك لفي ضلالك القديم » (٩٥) ! فاين « تكونوا من بعده قوماً صالحين » ؟

ثم « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » (٤ : ١٧) وهؤلاء عملوا السوء دون جهالة ، حين يُعنى من « صالحين » صلاح التوبة ، ثم ولم يتوبوا من قريب ، ولكن الله تاب عليهم لما استغفر لهم يوسف وابوه .

ولئن عَنى « صالحين » فيما عنى صلوحَ التوبة ، كان معنىً ضمنياً لا يصلح استقلاله ولا مساواته لمعناه، «ليست التوبة نتيجة الجريمة، ولا أنها تقبل في هذه الجريمة العامدة الهاتكة بكل مكيدة حتى على الله ، أننا نعصيك ثم نستغفرك !

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾(١٠) .

هذا القائل هو أعقلهم وأرحمهم بالأخ الصغير ، وأحوطهم عليه ، حيث يرتأي بما ليس فيه فوت ولا موت ، وإنما نفي عن محضن العائلة لـ « يخل لكم وجه أبيكم . . » وإذ ليس القتل والطرح الذي مآله القتل هو العلاج الحاصر ، فإلى الرأي العوان بين القتل والطرح .

إنه يبدي رأيه بكل حائطة ، لانه ـ فقط ـ واحد من العشرة، لذلك يبديه مشككا غير قاطع ، تحويلاً عما اعتزموا لعلهم يرجعون ، كما تلمح له « إن كنتم فاعلين » وكما نراهم لم يجمعوا على رأيه إلاّ بعدما ذهبوا به : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب . . » وقد يعنى التشكيك أصل التصميم في نفيه كأنه لا يرضاه ، فان كان ولا بد لا تقتلوه وألقوه . .

فبالفعل ـ وقبل ان يجمعوا في امره ـ هم مجمعون على أن يذهبوا به ، وها هم اولاًء يحتالون على أبيهم كيف يستلبونه منه .

وتعريف « الجب » دون « جب » دليل أنها كانت معروفة لديهم ، جب لها غيابت ، هي ممر السيارة ، مهما كانت جب القدس أمّاهيه .

والجّب ، هي البئر التي لم تُطوَ ، وهي الجيدة الموضع من الكلإ ، وهي الكثيرة الماء البعيدة القعر ، وهي التي وجدت دون ان يحفرها الناس .

وغيابة كل شيء قعره ومنهبطه، أترى جب يوسف هي الكثيرة الماء البعيدة القعر فألقي في قعرها ؟ وهذا أقرب إلى قتله من طرحه أرضاً حيث يغرق في قعرها دون ريب ! بل هي القريبة الماء الجيدة الموضع من الكلاء ، حيث يقصدها السيارة لنزح الماء ، وليست مطوية سوية بالأحجار فلا يمكن المكوث في خلالها ، إذاً فغيابتها ليست قعرها إذ يُرى فيه ويظهر دونما غيب ، فانما غيابتها مكان يمكن المكوث في خلالها ، فلا يُرى الماكث فيه ، وانما يَرى من يدلي إليها فيدنوا هو من الدلو ويتدلى ، دون أي خطر ولا ضرر إلاّ نفياً عن المحضن.

هكذا نتلمح من « لا تقتلوا . . يلتقطه » حيث القطع بسلامته هو الملتقط القاطع للمارة ، فليس إلاّ في هكذا جب وغيابة .

فهنالك « اقتلوا » وهناك « اطرحوه ارضاً » وهنا « ألقوه في غيابت الجب » ولكنها الإلقاء فيها إلغاء عنه . وعن التقاطه إلاّ ميتاً بغرقه ، أم مصدوماً مكسوراً ، ولكنه لا يسطع بوحدته أمام الباقين ان يحّول قتله إلى إبقاءه مرتاحاً ، فقد جمع بين الإلقاء وغيابت الجب والتقاط السيارة ، حتى يجمعوا حلومهم فيحيدوا عن إلقاءه إلى جعله،كما يحيدون عن قتله وطرحه وكما فعلوا : « وأجمعوا ان يجعلوه في غيابت الجب » فانها نَظِرَةَ التقاط السيارة تناسب الجعل دون الإلقاء ، وهذه حصيلة طائل الشورى وفيها عاقل ، بعد

ثالوث القتل والطرح والإلقاء ، أن يجعلوه في غيابت الجب، والشر في طائل الشورى - ان كان فيها عاقل - يبوء الى أقله ، والخير في طائلها إلى أكثره ، فأصل الشورى تخيُّرة لصائب الرأي ، وطائلها انتقالة الى أصوبه في الصواب ، وأقله محظوراً في غير الصواب .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ(١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(١٢) :

« لا تأمنا » تصريحة أنه ما كان يأمنهم عليه ، ولا يرسله معهم إلى المراعي ، والجهات الخِلوية المرتادة ، حباً له وخشية عليه ، و « مالك » استجاشة لنفي هذا الخاطر الملحوظ من حيطته الدائبة عليه ، ورقابته المتواصلة له .

فهم - إذاً - يلتمسون منه في حوار قاطعة طائلة - وبكل حائطة - أن يرسله معهم ، وما أبعد ذلك الحنان المحتاط عما تقوله التورات من تبذّل يعقوب يوسفه إرسالاً مع إخوته الحاسدين دون أن يطلبوا، على علمهم - كما تصرح - بما رأى من رؤياه ، وبكأنه على حبه إياه يبغضه فيهدره(١) ثم البشر

(١) كما في الاصحاح ٣٧ من تكوين التورات « ومضى اخوته ليرعوا غنم ابيهم عند شكيم فقال اسرائيل ليوسف اليس اخوتك يرعون عند شكيم ؟ تعال فارسلك اليهم فقال له : ها انا ذا - فقال له : اذهب انظر سلامة اخوتك وسلامة الغنم ورد لي خبراً فارسله من وطاء حبرون فاتى الى شكيم فوجده رجل واذا هو ضال في الحقل فسأله الرجل قائلاً : ماذا تطلب ؟ فقال : انا طالب إخوتي اخبرني اين يرعون ؟ فقال الرجل: قد ارتحلوا من هنا لاني سمعتهم يقولون : لنذهب الى دوثان فذهب يوسف وراء اخوته فوجدهم في دوثان ، فلما ابصروه من بعيد قبل ما اقترب اليهم احتالوا له ليميتوه فقال بعضهم لبعض هوذا صاحب الأحلام قادم فالآن هلم نقتله ونطرحه في إحدى هذه الآبار ونقول وحش رديء اكله فنرى ماذا يكون أحلامه ؟ فسمع رأوبين وانقذه من ايديهم وقال : لا نقتله وقال لهم رأوبين : لا تسفكوا دماً اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا اليه يداً لكي =

المطروح فيها حسب التورات كانت فارغة من الماء ، والسيارة لا شأن لها بفارغة الماء ! وقد نرى إهمالات وتشويشات ، في تحريفات وتهريفات في التورات،نأتي في الهوامش بتصريحاتها مقارنة بالقرآن طوال القصة ومثل ما في سائر القرآن كما تقتضيه مجالاته .

هنا الاخوة يحتالون بكل ما لديهم من إمكانيات ليذهبوا به ، راسمين مربعهم الكائد ليستلبوه منه :

١ ـ « مالك لا تامنا . . » ؟ ليس فينا خلاف أمنه ، فما هو عندك ٢ ـ « وإنا له لناصحون » بمثلث التأكيد وفي مثلث الزمان ، فكل خالج في خَلَدك تخيّلٌ وظِنّة دون علة ، إذاً فـ ٣ ـ « أرسله معنا غداً يرتع ويلعب » وكما تقتضيه حالة الطفولة ، وإذا كان معنا « وإنا له لناصحون » فلا خوف عليه من أي مُخيف ٤ ـ « وإنا له لحافظون»ففي « يا أبانا » استعطاف برحمة أبوية تجمعهم في جامع واحد ، وفي « مالك لاتامنا » استئصال لجذور المحتملات غير الآمنة، ثم في كلٍّ من نصحه الدائم وحفظه معهم تأيدات ثلاث، تصد كل منفذٍ في تأبّي أبيهم عن إرساله ، اللّهم إلاّ « إنه ليحزنني وأخاف . . » : وهو ردٌّ بطريق غير مباشر :

﴿ قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن ياكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾(١٣)

انه على علمه بميدهم في يوسف وكيدهم،لا يصارح إخوته بعدم أمنهم خوفاً عن صُراح العداء فاستلا به بقوة والقضاء عليه ، وهذه سياسة حفاظية متينة مكينة ألا يصارَح العدو بعدائه كيلا يصارِح او يزيد في عدائه

= يتقذه من ايديهم ليرده الى ابيه فكان لما جاء يوسف الى اخوته انهم خلعوا عن يوسف قميصه القميص الملون عليه واخذوه وطرحوه في البئر اما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء ؟ !

هياجاً فيما اعتزم ، فهي سياج عما اعتزم ، وحائطة على ما اعترم .

« قال إني ليحزنني ان تذهبوا به » دون ان يبيِّن سبب الحزن ، ولكيلا يذهب مذهب التهريج . أنه يخافهم عليه ، لمح إلى سبب له : « وأخاف ان ياكله الذئب » رمية إلى هدفين ، بيان سبب ، وارشاد الى عاذرة لهم حين يرجعون ، فانهم - ولا بد - سوف يحشون عن عذر ، فليكن : أكله الذئب ، فقد « قرَّب يعقوب لهم العلة اعتلوا بها في يوسف »[1] .

وهب « إني ليحزنني . . » صدق صُراح دونما ليٍّ ولا تورية ، حيث إن كيدهم فيه ، وبُعده عن أبيه ، كلٌّ يسبب حزنه ، ولكن « أخاف ان يأكله الذئب » تلقينٌ للكذب حيث الذئب لا يأكل الإنسان وإنما يفترسه ، وحتى إذا يأكله وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تلقنوا الناس فيكذبوا فإن بني يعقوب لم يعلموا ان الذئب يأكل الإنسان فلما لقنهم أبوهم كذبوا فقالوا أكله الذئب »[2] .

ان « ياكله الذئب » صدق في ناحية حيث الإفتراس أكلٌ ، وتعليم لعاذرة ، حائطةً لكي لا يقتلوه ويكتفوا في امره بان « اكله الذئب » من أخرى ، فقد لقنهم هذا الجواب ، وتلقين الكذب حفاظاً على النفس فرض لا محالة، قضيةَ الدوران بين واجب كبير ومحرم صغير ، بل ليس محرماً على أية حال حيث الذئب يفترس وياكل ، ام إن « أخاف » ينحو منحى خوفه عما يفعلون ، ثم يفتعلون « أكله الذئب » .

ولكي لا يصارح في « أن يأكله الذئب » قولهم « إنا له لحافظون »

(١) نور الثقلين ٢ : ٤١٥ ح ٢٠ عن علل الشرايع باسناده الى عمر بن يزيد عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ان بني يعقوب لما سألوا اباهم يعقوب ان يأذن ليوسف في الخروج معهم قال لهم : « اني اخاف ان يأكله الذئب وانتم عنه غافلون » فقال (عليه السلام) : قرب . . . (٢) نفس المصدر .

يلحّقه بـ « وأنتم عنه غافلون » إنصرافاً إلى أشغالكم ، لا تقصيراً في الحفاظ عليه .

ولكنهم لم يرضوا بـ « وأنتم عنه غافلون » على أية حال ، حيث يمس من كرامة العُصبة في الإخوة ، ورحمة الأخوَّة ، فرموا رميتهم الأخيرة :

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾(١٤).

فالغفلة عن الأخ الصغير « وإنا له لناصحون » « وانا له لحافظون » هذه خسارة في الأخوّة بين الإخوة العُصبة ، فنحن ـ إذاً ـ خاسرون كل شيء ، فلا نصلح لكبيرة ولا صغيرة ، فلا نصلح لحياة كريمة، فإذا نغفل عن أخ لنا كريم وهو أنفَس من أنفُسنا ، فقد خسرنا ـ وبأحرى ـ أنفُسنا ونفائسنا ، فكيف نُدير ـ إذاً ـ شؤوننا وشؤون العائلة .

وذلك في الحق تهديدٌ أكيد لتهدُّم العائلة إن كان أبونا يخاف أن يأكله الذئب ونحن غافلون !

فسواءٌ ألّا يأمننا عليه خيانةً منّا ونكاية ، أم عجزاً في حفظه ، ونحن عصبة ، وذلك أشد علينا وأنكى ! « ونحن عصبة » : أسد الفلوات والغابات، شجعان في كل المجالات ، فكيف « أكله الذئب » ونحن حضورٌ وكلُّنا عليه عيون ! أم كيف نغفل عنه وهو أخونا وأمانة ابينا ! وأُمنية عائلتنا !

وهكذا يستسلم الوالد الرحيم الحكيم بعد ذلك الإحراج لإخراجه عن محضنه « فصبر جميل والله المستعان ».

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾(١٥).

وبالمآل ذهبوا به « وأجمعوا » بعد شتات آرائهم « أن يجعلوه في غيابت الجب » كما ارتآه قائل منهم وهو كبيرهم ، وكما تؤيده تنديده بهم في قصة

الصواع «ومن قبل ما فرطتم في يوسف» وإنما ارتأى ان يجعلوه في غيابت الجب حيطةً عليه، ولأنهم كانوا مصممين على امرهم الإمر وما كان له بينهم أمر إلاّ ما أمرا! «وأوحينا إليه» وهو في الغيابة «لتنبئنهم بأمرهم هذا» الإمر بشانك «وهم لا يشعرون» بأمرهم، وهم لا يشعرون ماذا يفعلون، وتنبئهم وهم لا يشعرون أنك لأنت يوسف: «قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه وأنتم جاهلون» (٨٩)؟ وهم لا يشعرون بذلك الوحي: ثالوث اللاّشعور للإخوة الحاقدين على يوسف الصديق (١).

والإجماع هو العزم الحاصل عن شور، فالآن وقد ذهبوا به لتنفيذ المؤآمرة النكراء، وقد جعلوه في غيابت الجب، وهيمن عليه كل بائسة يائسة، الآن يأتيه ـ لأوّل مرّة ـ الوحي الحبيب: أنه ناج، ثم ينبئهم بأمرهم وهم لا يشعرون، وحي يُطَمْئنه عن كل نائبة ومحنة، إلى كل راحة ونعمة، وعلى حدّ المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «لما ألقي يوسف في الجب أتاه جبرئيل (عليه السلام) فقال يا غلام من ألقاك في هذا الجب؟ قال: إخوتي، قال: ولم؟ قال: لمودة أبي إياي حسدوني، قال: أتريد الخروج من ههنا؟ قال: ذاك الى إله يعقوب، قال: قل اللهم اني اسألك باسمك المخزون المكنون يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تغفر لي ذنبي وترحمني وأن تجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، وأن ترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا

---

(١) على الاول «وهم لا يشعرون» حال لامرهم فلا يشعرون امرهم، وعلى الثاني حال الإنباء فلا يشعرونك، وعلى الثالث حال لأوحينا، والكل مقصود صالح لأن يعني ادبياً ومعنوياً، وقد أخرج الثالث في الدر المنثور عن مجاهد وقتادة وابن عباس والثاني عن ابن جريج ورواه القمي عن ابي الجارود عن ابي جعفر (عليه السلام) في الآية يقول: لا يشعرون انك انت يوسف اتاه جبرئيل فاخبره بذلك

أحتسب ، فقالها فجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً ورزقه ملك مصر من حيث لا يحتسب ، فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الفظوا بهؤلاء الكلمات فإنهن دعاء المصطفين الأخيار[1] .

فقد نُبيء يوسف وهو في الجب على صغره ولما يبلغ الحلم ، ولكنها نبوءة دون حكم وعلم البلاغ : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين » (٢٢) وذلك قبل ان تراوده امرأة العزيز ، وبعد قوله لها « أكرمي مثواه » فقد طالت سنون منذ اشترائه وهو طفل قبل الرهاق[2] إلى بلوغ أشده ولكي يصلح لمراودة جنسية .

هنا نودع يوسف في غيابت الجب في تصارع بين ظلماتها وأهوالها وبين نور الوحي الأمين ، لنرى بماذا يرجع إخوته إلى أبيه وما هي ردة فعله :

﴿ وَجاؤُا أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ(١٦) قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ(١٧) وَجاؤُا عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ ﴾(١٨) .

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٩ ـ اخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)..اقول وفي اصول الكافي بسند عن ابي عبد الله ما في معناه بزيادة« ان تصلي على محمد وآل محمد، قبل ان تجعل له من امري ... وفي امالي الصدوق باسناده الى ابي بصير قال قلت لابي عبدالله (عليه السلام) ما كان دعاء يوسف في الجب ؟ فانا قد اختلفنا فيه ؟ فقال : ان يوسف (عليه السلام) لما صار في الجب وأيس من الحياة قال : اللهم ان كانت الخطايا والذنوب قد اخلقت وجهي عندك فلن ترفع لي صوتاً اليك ولن تستجيب لي دعوة فاني أسألك بحق الشيخ يعقوب فارحم ضعفه واجمع بيني وبينه فقد علمت رقته علي وشوقي اليه .

(٢) تفسير العياشي عن زيد الشمام عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : كان ابن سبع سنين .

هؤلاء الإخوة إحتالوا من قبل كل الحيل لأن يذهبوا به ، والآن هم في احتيالات لتغشية أمرهم الإمر على أبيهم ، وأنى ينجو الكاذب ويفلح ، ويكاد المريب أن يقول خذوني ، فقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الكذب ، متسرعين في اصطناعه كما تسرعوا في استلاب يوسف من أبيه ، فالتقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليل على التسرُّع ، فقد كان أبوهم بالأمس يحذِّرهم منها وهم ينفون ، ويكادون عليه يسطون ويتهكمون ، إذاً فكيف يتركون يوسف وهم يستبقون ؟ .

« وجاؤا أباهم عشاءً يبكون » فرجوعهم عشاءً حيلة أولى ، ولئلا يتطلب منهم أن يتحسسوا عنه فورَهم ، حيث العشاء ظلام لا يبين ، وخطر أخطر من ذئب النهار ، ومن ثم « يبكون » حيلة أخرى يتسترون وراءها ، تبرئة لهم عما يُتهمون ، حيث القاتل لا يبكي على مقتوله وهم « يبكون » !

« قالوا يا أبانا » نداءً تجمعهم ويوسف في أخوَّتهم من أب واحد ، وتستجيش رحمة الأبوة عليهم « إنا ذهبنا نستبق » في عدْوٍ ، ولم يكن أخونا الطفل ليسطع سباقاً ، ولا معنا رفاقاً ، ثم من ينظر متاعنا « وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب »!

ولكن ما لهم والإستباق وخطر الذئب حادق في البرية زعمَهم ، وهم أكدّوا لأبيهم من قبل أكيد الحفاظ عليه ، لكيلا يأكله الذئب ، ثم ويوسف الطفل الذي لا يسطع مصاحبتهم في سباقهم كيف يسطع مقاتلة السارق وقد أوّل له رؤياه من قبل « وكذلك يجتبيك ربك . . » فيكف يصدقهم أنه أكله الذئب ؟ وهذه كلها آيات بينات لكذبهم المختلق الجاهل ، دونما تفكير سداً لثغراته ، وصداً عن تهماته .

ولكنهم لكي يبعِّدوا كذبهم ويقرِّبوا صدقهم ، يتظاهرون بمظهر

المظلومين المهضومين في قولة ماكرة : «وما أنت بمؤمنٍ لنا» تؤمن لنا قولنا «ولو كنا صادقين» على فرض المحال ، و «لو» هنا ، المُحيلة صدقهم في تنازلهم، لها موقعها في تشكيك يعقوب لاقل تقدير، فبطبيعة الحال أنت تكذبنا حيث الشغف البالغ في حب يوسف يمنعك عن تصديقنا «ولو كنا صادقين» وثبت لديك صدقنا ، كيف وأنت متشكك فينا ، أم وتتهمنا أننا كاذبون .

ولكي يثبتوا صدقهم «وجاؤا على قميصه بدم كذب ..» لائح كذبه ، لاختلافه عن دم الإنسان ، وليس في نفس الدم أثر الإفتراس ، بل هو نزح ، والقميص السليم غير الممزق. شاهد ثالث أنه «دم كذب» فهم تورّطوا بفعلة واحدة في ثالوث الكذب .

صحيح أن الدم لا يوصف بالكذب ، ولكنه كان مكذوباً فيه لحد كأنه تجسيد للكذب ، حيث الدعوى التي عُلّقت به كانت في غاية الكذب ، وعلى حدّ المروي عن يعقوب «اللهم لقد كان ذئباً رفيقاً حين لم يشق القميص»[1] و «يا يوسف لقد أكلك ذئب رحيم ، أكل لحمك ولم يشق قميصك»[2] فما أرحمه بقميصه ، وأشقاه به !

ولماذا «وجاؤا على قميصه» دون «بقميصه» ؟ لأن «بدم كذب» متعلق بـ «جاؤا» فالترتيب المعنوي «وجاؤا بدم كذب على قميصه» و «على» هنا تلمح ان الدم كان بظاهر القميص دون باطنه ، مما يؤكد كذبهم ، حيث الافتراس يدمي باطن القميص قبل ظاهره ، ولا يبقي على قميصه إلّا ممزقاً مخترقاً .

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٤١٧ في تفسير العياشي عن ابي جميلة عن رجل عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : لمّا اوتي بقميص يوسف الى يعقوب فقال : اللهم ..

(٢) المصدر في المجمع وروى انه القى ثوبه على وجهه وقال : يا يوسف ...

فقد أدرك يعقوب من دلائل الحال ، ومن شغاف القلب ، حيث القلب يهوى إلى القلب ، أن دعواهم كذب : « قال بل سولت لكم أنفسكم امراً » فأنفسكم الحاسدة سولت لكم وزينت أمركم الإمر وأنتم تحسبون أنكم تحسنون صنعاً ، وليس مني في هذه الداهية إلّا « فصبر جميل » : « لا شكوى فيه فمَن بث لم يصبر »(1) « والله المستعان على ما تصفون » صبر جميل في الله واستعانة فيما يصبر عليه بالله ، دونما شكوى إلى غير الله ، ولا استعانة بغير الله .

ليس الصبر في ميزان الحق خنوعاً على الظلم وخشوعاً لدى الظالم يفعل ما يشاء ،فانه ظلم ذو بعدين ، فانما هو استقامة في القلب ، وحفاظ على النظام النفسي من التبعثر ، وانضباط للجمعية الداخلية من التفرق والتمزق والتعثر ، وعدم الخروج عن الإعتدال بحق الله وحق الناس ، حينما تكلُّ الأسباب عن دفع النازلة .

فعدم التصبّر عند هذه النوازل ، يخلِّف كل تبعثر وتعثّر ، فهو نائبة فوق نائبة ، ونازلة تلو نازلة ، قد تربوا على أصل النازلة ، كمن لا يملك نفسه عند هياج النوازل فيقول في ربه ما لا يُحمد ، ويفعل بعباد الله ما لا يجوز .

ثم وذلك الصبر منه جميل ومنه غير جميل ، كمن يشكوا بلواه إلى غير

---

(1) الدر المنثور ٤ : ١٠ باسناد عن حيان بن ابي جبلة قال سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن قوله « فصبر جميل » قال : لا شكوى . . . وفي هامش نور الثقلين ٢ : ٤١٧ نقلاً عن كتاب سعد السعود لابن طاووس نقله من تفسير ابي العباس بن عقدة عن عثمان بن عيسى عن المفضل عن جابر قال قلت لابي عبد الله (عليه السلام) ما الصبر الجميل؟ قال : ذاك صبر ليس فيه شكوى الى الناس .

الله متفجعاً، والجميل: «إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون» (٨٦) «.. فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم» (٨٣).

فيا لله، ما أصبره على فقد يوسف، إذ لا يجابه إخوته إلا بجميل الجواب ومجمله: «فصبر جميل والله المستعان» فلا أمر لي معكم، وإنما هو الله، أستعينه عليكم فيما تصفون..

هذا يعقوب القرآن في صبر جميل، ولكنه في التورات يمزق ثيابه ويضع مسحاً على حقويه قائلاً: إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية مصدقاً أنه افترسه وحش رديء..[1]

---

(١) في الاصحاح ٣٨ من تكوين التورات تلوما مضى من قصته: «ثم جلسوا لياكلوا طعاماً فرفعوا عيونهم ونظروا واذا قافلة اسماعيليين مقبلة جلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلساناً ولادناً ذاهبين لينزلوا بها الى مصر فقال يهوذا لاخوته: ما الفائدة ان نقتل اخانا ونخفي دمه تعالوا فنبيعه للاسماعيليين ولا تكن ايدينا عليه لانه اخونا ولحمنا فسمع له اخوته.

واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف واصعدوه من البئر وباعوا يوسف للاسماعيليين بعشرين من الفضة فاتوا بيوسف الى مصر ورجع رأوبين الى البئر واذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه ثم رجع الى اخوته وقال: الولد ليس موجوداً وانا الى اين اذهب.

فاخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعزى وغمسوا القميص في الدم وارسلوا الملون واحضروه الى ابيهم وقالوا: وجدنا هذا حقق اقميص ابنك هو ام لا، فتحققه وقال: قميص ابني وحش ردي اكله افترس يوسف افتراساً فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه اياماً كثيرة فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأبى ان يتعزى وقال: إني انزل الى ابني نائحاً الى الهاوية وبكى ابوه.

وأين الصبر الجميل في هذه الداهية على علمه بحياته تحقيقاً لتأويل رؤياه، والنوح عليه إلى الهاوية كأنه مفترَس تجاهلاً عن تأويل رؤياه؟.

لحد الآن حققوا ما حسدوه، ثم وما ليوسف المحسود بعد ذلك الحقد الحقود؟ وبعد ان رأى رؤياه فأكرمه أبوه أكثر من الإخوة.

إنه في مرحلة ثالثة يصبح سلعة وبضاعة بثمن بخس دراهم معدودة، من اخوته أمّن ذا ممن شروه، ثم إلى مثواه المكرم، ثم المتهوِّس لحريم البلاط، ومن ثم السجن لردح بعيد من الزمن، ثم العزة العزيزة. وفي ثامنة المراحل «فخروا له سجداً» تحقيقاً حقيقا له من رؤياه، بعدما اجتاز هذه السبع وكلها رزايا في مختلف القضايا!.

ومن هنا يسدل الستار على يعقوب والإخوة، عيادة ليوسف، وعوداً سريعاً إليه في الجب، لنرى وعد الله له في وحيه:

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يا بُشْرَى هذا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾(٢٠):

«سيارة» وهي كثيرة السير، توحي بان الجب كانت على طريق القوافل، المعبدة، حيث يُبحث عن الماء والكلاء، وهو تأييد ثان أن الجب هي بئر الماء بين الكلاء، و«واردهم» هو قاصد الماء بينهم، الموظف لسقيهم «فأدلى دلوه»: أرسل دلوه في الجب، فإنَّ أدلى و دلى متعاكسان إدخالاً وإخراجاً، والمناسب هنا الإدخال، ام والإخراج بمناسبة البشرى: «قال يا بشرى هذا غلام» يبشر به السيّارة أن حَصل على غلام حين نزح الماء، ام يعنيهما معاً حيث ادخل دلوه وأخرج، مهما كانت البشرى للإخراج. «فأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون وشروه...».

اترى من هم الذين أسروه وشروه ، أهم إخوته ؟ وقد أسدل الستار عليهم إلى السيارة ! ولماذا يسرونه بضاعة وهو لهم ! وهم لم يذهبوا إلى مصر حتى يشروه بثمن بخس! ام هم أسروه بضاعة والسيارة شروه ؟ فكذلك الأمر ! ثم كيف هم يسترونه والسيارة يشرونه بدل ان يشتروه،ثم يشروه في مصر ! ام هما السيارة أسروه بضاعة مخافة ان يأتي صاحبه فياخذه ، ثم شروه بثمن بخس حيث الملتقط لا يُشرى غالياً.وكما يسوى في السوق الحر ، ولأنه قد ياتي صاحبه فياخذه ممن اشتراه فليبخس فيه لذلك مَن اشتراه ، ولأنه كانت عليه ملامح الحرية دون أية لمحة من الرقية ، فلذلك كله تُشري هذه البضاعة بثمن بخس دراهم معدودة « وكانوا فيه من الزاهدين » !

فيا لله « قد كان يوسف بين ابويه مكرماً ثم صار عبداً حتى بيع أخس وأوكس الثمن ثم لم يمنع الله ان بلغ به حتى صار ملكاً »[1] .

والبخس هو نقص الشيء على سبيل الظلم ، وذلك ظلم بالغ من السيارة بحقه بعد ظلم اخوته ، فإن ملامح الرقية فيه منفية ، ومظاهر الحرية ثابتة ، ولم يكن يوسف ليسكت ـ لاقل تقدير ـ عن أنه حرٌ ، فيكف يُشرى وهو حرٌ ، ولماذا بثمن بخس إذا هو رق؟ مظالم بعضها فوق بعض .

والدراهم هي النقود الفِضِّية ، والمعدودة هي الخفيفة حيث الثقيلة توزن ولا تُعد ، وهذه قلة في قلة ، قلة في أوزانها ، وقلة في أعدادها ، يشرى بها من لا يسامى بأغلى ثمن « والله عليم بما يعملون » بحقه من بخسٍ وإهانة ومسٍّ من كرامة ، وهذه نهاية المحنة الأولى في حياة ذلك النبي الكريم .

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٤١٨ ح ٣٧ العياشي عن عبد الله بن سليمان عن جعفر بن محمد (عليه السلام) قال : قد كان . . .

يتنقل من محضن العائلة ، الى الجب بأيدي أثيمة من إخوته ، ثم بضاعة إلى أيدي السيارة رقاً يشرى وأدنى من سائر الرق ، ومن ثم إلى الذي اشتراه من مصر ، يد طامعة فيه :

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا كَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢١) .

هذه حلقة ثانية من حلقات القصة ، يصل فيها يوسف إلى مصر ويُشرى بثمن بخس دراهم معدودة ، ولكن الذي اشتراه يتوسم فيه كل خير على صباه ، حيث الخير لائح في الوجوه الصباح ، وبخاصة حين ترافقها الأخلاق الملاح .

فرغم أنه اشتراه بثمن بخس ، يراه ثميناً لاثحافيه كل بصمات الخير ، متحللاً عن كل وصمات الشر ، ولذلك يوصي العزيز عزيزته فيه بكل خير : « أكرمي مثواه » دون أكرميه ، والرق اياً كان لا يُكرم ، ولا سيما في بيت العزيز ذي السلطة والجبروت ، فضلاً عن أن تتصدى إكرامه سيدة البلاط ، البعيدة عن جزئيات الأمور وسفاسفها ، وهي هنا تتصدى إكراماً لمثواه ، مكانه ومكانته ، إكرام الشخصية ذي أبعاد وظِلال ، دون اكرام الشخص ـ فقط ـ في ماكل ومشرب وملبس ومنام ، فليكرم في ذلك البيت بقمة الإكرام ، لحد كأن السيدة خادمته والسيد خادمه ، فهو ـ إذاً ـ أعز من العزيز والعزيزة ولماذا ؟ « عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ينفعنا ما نبغيه من مختلف المنافع ، كأن نشريه بأغلى الأثمان ، او نستخدمه لأعلى المناصب ، أم ـ وبأحرى ـ نتخذه ولداً يرثنا ، إذ لم يكن لهما ولد ، وهذا الغلام أحرى من يُتخذ لهما كولد .

وحق للعزيز أن يتفرس فيه تلك الفراسة العالية ، إذ كان ذا جمال قمة

يبهر الأبصار، ويوله ذوي الأبصار، لطيف الحركات، مليح اللمحات، عالي الصفات، لحد تقول عنه نسوة في المدينة «ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملك كريم»! فضلاً عن العزيز والعزيزة.

«وكذلك مكنا ليوسف في الأرض...» فالْمَمَكَّن في بلاط العزيز: رئيس الشرط ام رئيس الوزراء أمن ذا، هذا الذي له العزة الوحيدة، غير الوهيدة، في مصر، وعلّه المَلِك، أم ولي عهده، والممكّن هنا، المكرم مثواه في ذلك البلاط، هو- دون هوادة- ممكنٌ في كل البلد.

هذه ظاهرة الأمر، ولكنها محنة من ناحية أخرى جارفة لا يقف لها إلاّ من رحم الله، ليس السجن إلاّ أدناها: «رب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه» فان جوُّ البلاط بما يغشاه من استهتار وفجور، وفي إصرار إمراة العزيز، ثم نسوة في المدينة، هو جو المحنة والبلاء، إلاّ لمن رحم الله وعصم.

ذلك، ولكن التمكين المكين في الأرض، وإيتاء الحكم والعلم، يتطلّب سلوك طريق شاقة ملتوية، مليئة بالأشلاء والدماء، «فان مع العسر يسراً. إن مع العسر يسراً»!

«وكذلك مكنا.. ولنعلمه من تاويل الاحاديث» حيث التاويل كان السبب الأخير لنجاته، واحتلال عرش العزة والملك «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون»:

إخوته ارادوا عليه امراً، والسيارة امراً، والعزيز ثالثاً كلها في ثالوثها إمر، والله أراد أمراً «والله غالب على أمره» لا غالبَ على أمره ولا يسامى، مهما كان أمره يتخلل أموراً كلها إمرٌ «ولكن اكثر الناس لا يعلمون» حيث ينظرون و«يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة

هم غافلون » فيحسبون كلَّ أمر نافذاً إلا أمر الله ، كأنه مغلوب على امره ! رغم « ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً»(٦٥ : ٣) وقد يعني « أمره » هنا أمر يوسف في ظلال أمره تعالى ، فلا غـالب على أمـر يوسف الا الله .

وهذه بداية تمكينه في الأرض ، كوسيلة لتمكنُه بعد ردح ، ولمّا انتصب على خزائن الأرض تم ذلك التمكين:« وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوءُ منها حيث يشاء » (٥٦) فليس تمكنه في بيت العزيز هو فقط تمكينه فكيا « ولنعلمه من تاويل الأحاديث » كان يستقبله ، كذلك تمكينه المكين يستقبله .

والواو في « ولنعلمه » عطف على محذوف معروف وغير معروف كما حقق الله تعالى فيه من أمره ، كإيتاء الحكم والعلم أمّاذا من مكانات روحية ومكرمات بجانب المكانة الزمنية .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ

كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا
ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ
وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ
سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي
عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ
مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ
قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾
فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ
إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ
وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾
۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن
نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾
فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ
مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ

عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ
حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾
قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن
نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ
وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ
إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ
إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ
فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

ظل يوسف الصديق يترعرع ، وفي خدمته العزيز والعزيزه ، فقد دخل عبداً خادماً ، وظل سيداً مخدوماً .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾(٢٢) .

والأشد جمع الشَّدّ ، وأقله ثلاث ، شد العقل والجسم وشد الرشد الإجتماعي وهو الحكمة (١) شدات ثلاث تصلح ظرفاً صالحاً ـ على

---

(١) راجع ج ٢٦ ص ٣٥ من الفرقان حول الآية «حتى اذا بلغ اشده..» تجد بحثاً فصلاً حول الأشد.

شروطها ـ لإيتاء الحكم والعلم ، ولأن الأنبياء أكمل الخلق خَلقاً وخُلقاً ، فالمعني من أشُدهم دون قرينة ، هو بلوغ خمسة عشر سنة ، ثم من الأشد المستوى الوسط كما في موسى « ولما بلغ اشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً » (٢٨ : ١٤) ومن الأشد بعد الوسط بلوغ الأربعين :« حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك » (٤٦ : ١٥) ولولا قرينة « اربعين » هنا « واستوى » هناك كان الأشد فيهما كما في يوسف ، ثم ولا يعقل تصبّر امرأة العزيز في غريزتها المتعطشة الطائشة بعد بلوغ الحلم الى ثلاثين أو أربعين وقد مضى شطر عظيم من ثورة الجنس فيهما !

وللحكم المؤتى والعلم درجات حسب درجات الإحسان « وكذلك نجزي المحسنين » أترى أن حكمه هنا هو نبوءته؟ وقد نُبّيء قبله وهو في الجُب :« وأوحينا إليه » ! وقد يقرن بالنبوة والكتاب :« ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة » (٣ : ٧٩) « اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » (٦ : ٨٩) !.

وقد يؤتى الحكم دون نبوة ولا كتاب كما في طالوت حيث أوتي ملكاً يحكم به على شعب إسرائيل ، ولكن لا نبوة إلاّ ومعه حكم شرعي وقضاء مهما لم يكن معه حكم زمني، فالحكم إذاً هو تحكيم الفضائل بسلطة شرعية عامة ، او زمنية ، ام قضاء خاص ، وهو في يوسف يجمع الثلاث إضافة إلى « علماً » فليكن حكمه حكم الله في ايٍّ من الثلاث ، وعلمه فيما يرتبط بالدعوة إلى الله من علم الله ، فلا خطأ ـ إذاً ـ لا في حكمه ولا في علمه ، فـ ـ « إن الحكم إلاّ لله أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إياه » (٤٠) وقد يؤتاه من ارتضاه الله كما هنا في يوسف ، وفي سائر الحكم لسائر النبيين أمن هم من الحاكمين كطالوت وائمة الدين المعصومين (عليهم السلام) .

وقد تلمح جمعية الصفات في « آتيناه » إن حكماً وعلماً يجمعان الثلاث مع بعض في يوسف الصديق (عليه السلام) .

« وكذلك نجزي المحسنين » مِنحة الحكم والعلم جزاء إحسانهم وعلى حدِّ إحسانهم دونما فوضى جزاف !.

ثم كل قبيل من الإحسان يتطلَّب حكمه وعلمه وفقهه، من إحسان العقيدة والأخلاق ، والسيرة والسلوك ، والعلم والفهم أما ذا من درجات الإحسان ، فالمؤتى حكم النبوة وعلمه هو المحسن بما يصلح لها ، ولكن ليس كل من أحسن بالغاً ما بلغ يُؤتى ذلك الحكم ، فإنه كسبي كظرف صالح ، وانتصابي كما يراه الله في كل زمن حسب حاجة المرسل اليهم .

ومن حكمه الموهوب تمكينه في الأرض يتبوء منها حيث يشاء : « وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض » كما من علمه الموهوب علم تاويل الرؤيا الموعود له من قبل : « ولنعلمه من تاويل الأحاديث » إضافة إلى سائر الحكم والعلم المعلومان من طيات القصة ، كحكم النفس إحكاماً لها وتوطيداً أمام الشهوات ، وهو من الحكمة العملية والعلم بتاويل الأحاديث وهو من الحكمة النظرية ، حكمٌ عليم ، وعلم حكيم يجتمعان في هذا النبي العظيم « وكذلك نجزي المحسنين » !

وعلى أية حال فكل حكم بالغ وعلم سابغ هي من مخلفات النبوة ، فالحكم هنا حكم الله والعلم علم الله لا جهلَ يداخلهُ ولا باطل يزاوله .

« لما بلغ اشده » آتاه الله حكما وعلماً ، يُسراً في المعرفة الواصبة الخالصة ، وهل يحصل يسر بلا عسر ؟ كلا ! « فان مع العسر يسراً » لذلك نراه يبتلى بامرأة العزيز ونسوة في المدينة منذ أشدِّه ، كما ابتلي بإخوته منذ رؤياه الى جُبِّه ، ورطات من قبل ومن بعد وليتحقق وعد الله في هذا البين

«آتيناه حكماً وعلماً» ومن ثم «رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تاويل الاحاديث . . .» .

هنا تبدأ حلقة ثالثة هي أخطر الحلقات وأبلاها ، وأخطرمن هدر النفس والنفيس ، فانه جوٌ تهدّر العصمة والخلوص لله ، «لو لا أن رآى برهان ربه»! :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾[٢٣] .

«التي هو في بيتها» هي إمراة العزيز ، وهذه صيغة سائغة عنها وعن موقفه (عليه السلام) دون «امراة العزيز» فالبيت بيتها ، وهو في بيتها وتحت إمرتها ومُلكتها ، مما تزايدها سلطة عليه وتأمراً ، وتزيده عجزاً عن المقاومة وتؤمراً .

وبطبيعة الحال في يوسف ، وهو في بداية الحلم وقوة بالغة في فورة الجنس وثورته شاباً في غليان الشهوة وفوران الشبق ، في بلاط ملكي له كل وسائل العيش وأسباب الرياحة والتَرَح ، كان له ان يراودها ، وهي بطبيعة الحال شابة جيلة تائقة في غرامها ، متزينة ـ على جمالها ـ بأرقى زِينَها ، متدللة متغنجة تتوق إليه نفسها ، مشغوفة بحبه ، والهة تائهة في وصاله ! فائقة الجمال ، عزيزة العزيز ، عشيقة والهة تتوق إليها النفوس ، فتانةٌ رنانة حنّانة ، لا يُرد رأيها ولا يثنّى أمرها ، وقد ربتّه كما أُمرت في إكرام بالغ لمثواه ،ولكنه ـ رغم كل هذه وتلك ـ لم ينظر إليها نظرة شهوة ، ولا خَلَد بخلده لها لهوة ولا لحظة ، فهي هي التي تراودها عن نفسه ، مما يزيده إليها هوىً ، والمراودة من الرُّود :التردد في طلب شيءٍ برفق ولينة ، بكل سعي وإصرار وحيلة ، والرائد الذي يُرسَل في التماس النُجعة وطلب الكلاء ، والمراودة عنه استلاب المراد ممن هو عنده «قالوا سنراود عنه أباه»

استلاباً عنه بترددو التماس ، فـ « راودته .. عن نفسه » استلاب نفسه عنه حتى لا يملكها وهي تملكها فتفعل ما تشاء .

فقد احتالت لـه مراراً وتكـراراً في قولـة وفعلة ، مراودة إياه عن نفسه رغم تمنُّعه وتمعُّنه فيما تهوى ، فلم تنجح لما تهوى فان نفسه كانت مربوطة متعلقة بعصمة إلٓهية مطمئنة بالله ، راضية عن الله مرضية عند الله.فكيف تراود عنه؟اللهم إلا ألاّ يرى برهان ربه وقد رأى !

ولكي تسد أمامه كل ثغرات الفرار ، وكافة الأعذار « وغلقت الأبواب » وعلّها أبواب الفرار إلى باب الدار حيث « ألفيا سيدها لدى الباب » دون الأبواب ، أم وإذا كانت لمخرج البيت أُبواب .فلا يكمل الهدف ـ فقط ـ بإغلاقها ما دامت أبواب الأعذار باقية للفرار ، إذاً فـ « غلقت الأبواب» تعم كافة الأبواب ، التي يُدخل منها ويُخرج عنها ، فلم يبق باب لعذره إلاّ مغلقة ، والشهوة في الشاب والشابة حاضرة ، والموانع في ميزانها زائلة ، ولكنها ـ بعد ـ لم تنجح في بغيتها فرأت فيه تأبِّياً وصموداً ، فعند ئذٍ صرخت عليه « وقالت هيت لك » والأرجح أنها من أسماء الصوت العُجاب وقد تعني هاه هاه ! ويلك ويلاك ! مِن ذلك الصمود كالحجر الصَّلْد ، والجبل الشامخ الصُلب ، لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف ، لا يتحسس لها ولا يميل إليها ولا يكلِّمها في كل هذه الطائلات الغائلات ، إلاّ كلمة تَكلِمها ، وتفتح كافة الأبواب التي غلقتها :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣) .

إنه في هذه المرحلة التائهة الحساسة لا يسايرها في معاذ ليقول : معاذ العزيز حيث أحسن مثواي ، فما العزيز بعزيز أمام ربه العزيز ، فإنما « معاذ الله » فقط لاسواه ، مهما اعترفت به العزيزة أم أنكرت ، والبيت بيت الشرك والشهوة ، جَوٌ لا منفذ فيه لتوحيد الله ، ولكن يوسف هو الآن كما

كان وسوف يكون ، نبياً والهاً في الله ، متيّماً في حب الله ، لا يجلو له جمال دون جماله ، ولا جلال أمام جلاله .

فهب إنها غلقت الأبواب التي كانت بيدها مفاتيحها ، فهل لها أن تغلق باب قلبه إلى الله ، المليء من حب الله ، الخالي عما سوى الله ، فلا يستمسك في هذه المزاهز باسباب غير الله ، إلاّ بعروة التوحيد : « معاذ الله » .

فما أبعد قلباً عن قلب ، قلباً لإمرأة العزيز مقلوباً غزيراً من الشهوات واللّهوات ، حيث أسعرت في سرها كل لهيب إلى علانيتها ، وأججت كل نار حتى استغرقت في حب فتاها ، وتولهت في غرامه ، واشتغلت به عن كل شيء ، فهو بداية منطقها ونهايته ، وهو في ضميرها حين تسكت « قد شغفها حباً » حيث دخل شغافَ قلبها[1] .

وقلباً ليوسف الصديق لا يحن إلاّ إلى الله ، وليس فيه إلاّ حب الله ، متناسياً عن حب من سواه إلاّ فيه ، فكيف يعشق امراة ذات بعل مهما كان لجمالها ومالها من جواذب .

لذلك يقول في جوابها « معاذ الله » لانه الله و « إنه ربي » لا سواه « احسن مثواي » لا سواه ، فقضية الوهيته أن يُتقى ، وقضية ربوبيته أن يُتقى ، ولأنه أحسن مثواى ، وإن كان ربك العزيز أمرك أن «أكرمي مثواه»

---

(١) في معاني الاخبار باسناده عن ابي حمزة الثمالي عن السجاد (عليه السلام) في حديث يوسف الطائل قال (عليه السلام) وكان يوسف من اجمل اهل زمانه فلما راهق يوسف راودته امرأة الملك عن نفسه فقال : معاذ الله إنا اهل بيت لا يزنون فغلقت الابواب عليها وعليه وقالت لا تخف والقت نفسها عليه فافلت منها هارباً الى الباب ففتحه فلحقته فجذبت قميصه من خلفه فاخرجته منه فافلت يوسف منها في ثيابه فالفيا سيدها . . .

فـإن ذلك ايضاً في ظلال ربوبية الله « والله غالب على أمره » يكرم مثوى عبده عند من يعبد سواه ، وكما أكرم موسى في بلاط فرعون .

هذا وذاك وذياك ومن ثم « إنه لا يفلح الظالمون » ولا سيما في ثالوث الظلم ، أن أظلم نفسي ، وأظلم العزيز في غيبه « ذلك ليعلم أني لم اخنه بالغيب وان الله لا يهدي كيد الخائنين » وأظلم حق ربي وإن كان هو لا يُظلم « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه »(٦٥ : ١) .

فهل أخترقُ عصمة العبودية ، وأظلم ثالوثه ، لان العزيزه يعشقني ؟ كلا ! إنه لا يفلح الظالمون » ـ « وان الله لا يهدي كيد الخائنين » .

وما أسخفه تفسير « ربي » بالعزيز ، و « معاذ الله » يَقدُمه ، فكيف يرجع إلى غيره « إنه » ؟ ومهما كان العزيز أحسن مثواه ، ولكنه من إحسان الله ، وليس العزيز محور الإحترام ، فان ربوبيته له بالنسبة للرب إخترام ، ثم لم تكن للعزيز بالنسبة إليه أيةَّ ربوبية مُحترم ، فانه أوصى العزيزة بإكرام مثواه انتفاعاً منه كتاجر ! ثم قد أهان مثواه روحياً بجنب الله ، مهما أكرم مثواه مادياً وكما تهواه !

ثم المربي اياً كان لا يسمى في منطق الموحدين رباً ! ولم يكن رقاً حتى يعتبره بذلك رباً ! وإنما هو رب في منطق الشرك وكما قال لأحد صاحبيه في السجن:« اذكرني عند ربك » (٤٢) وقال لرسول الملك : « إرجع إلى ربك » (٥١) وأما عن ربه « فاساله ما بال النسوة التي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم » (٥١) ! وفي الآية التالية « لو لا أن رأى برهان ربه » .

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾(٢٤) .

ان العزيزه لم تقنع بذلك الحجاج ، واصرت على ما تهوى بكل إصرار ولجاج « ولقد همت به » بكل ما للهمِّ من معنى وكما يوكِّده حرفا التاكيد عِدَّة وعُدة، همت به لحد علقت به «واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر . . » والهمُّ ارادة صارمة بهمة عارمة ، لولا دافع عنه او مانع لتحقق المهتم به ، وهمُّ الزنا سوء وهي نفسها فحشاء ، وهذه العزيزة سيدة البلاط .

وأما يوسف « وهم بها » كما همت به « لولا أن رآى برهان ربه » ولكنه رآى برهان ربه فلم يهم بها ، فالأسباب الطبيعية ، وتجاذب الجنس مع تغلُّق الأبواب ، كانت كالعلة التامة لذلك الهمِّ من يوسف ، ولكنه « رأى برهان ربه » فلم يهم بها سوءً فضلاً عن الفحشاء !

وهنا مع كل الأسى نرى زمرة من المفسرين القدامى والحدثاء ، وآخرين من المحدثين ساروا في همّه (عليه السلام) وراء الإسرائيليات التي حتى التورات المحرفة منها براء [1] مصورين يوسف في هذه الحلقة الخطيرة

---

(١) ففي الاصحاح ٣٩ من تكوين التورات تصريحة ببرائته على تحرفه في جهات اخرى قائلا بعدما مضى في قصته : « واما يوسف فانزل الى مصر واشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشُرَط . . فوكله الى بيته ودفع الى يده كل ما كان له . . ولم يكن يعرف معه الا الخبز . . وحدث بعد هذه الامور ان امراة سيده رفعت عينيها الى يوسف وقالت : اضطجع معي فأبى وقال لامرأة سيده هو ذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت . . ولم يمسك عني شيئاً غيرك لانك امرأته فكيف اصنع هذا الشر العظيم واخطى الى الله وكان اذ كلمت يوسف يوماً فيوماً انه لم يسمع لها ان يضطجع بجانبها ليكون معها . ثم حدث نحو هذا الوقت انه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن انسان من اهل البيت هناك في البيت فامسكته بثوبه قائلة : اضطجع معي فترك ثوبه في يده وهرب وخرج الى خارج. وكان لما رأت انه ترك ثوبه في يدها وهرب الى خارج انها نادت اهل بيتها وكلمتهم قائلة : انظروا قد جاء الينا برجل عبراني ليداعبنا ، دخل الي =

هائج العزيزة ، مائج الشهوة ، فالله يدفعه ببرهان منه فلا يندفع ، حتى أخرج شهوته من أنامله ، ويرى هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضاً على إصبعه بفمه يندّد به ، ولوحات كتبت عليها آي من الذكر الحكيم تؤنّبه وتردعه فلا يرتدع ، حتى خرجت شهوته من أنامله ، وإلى امثال هذه وتلك من الأسطورات النكراء المكراء بحق يوسف الصديق !وهنا شهود سبع على بـــراءتـــه بين صديق وعدو وعوان بينهما :

فالله تعالى اوّل شاهد لبرائته : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين» بعد ما صرف عنه سوء الهمّ بها « وهـم بها لو لا ان رآى برهان ربه » ولا ريب أن هكذا همّ من أسوء السوء وهـو من غواية الشيطان وسلطانه : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون» (١٦ : ٩٩)ومن أفضلهم المخلَصون ويوسف منهم: « انه من عبادنا المخلَصين » !

وشاهد ثان « هي راودتني عن نفسي » - « رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه وإلاّ تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن .. » (٣٤) « ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين » (٥٢) « - انه من يتق ويصبر

= ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم ، وكان لما سمع اني رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج الى خارج ، فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده الى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة : دخل الي العبد العبراني الذي جئت به الينا ليداعبني وكان لما رفعت صوتي وصرخت انه ترك ثوبه بجانبي وهرب الى خارج . فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك ان غضبه حمي فاخذ يوسف بيده ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان اسرى الملك محبوسين فيه وكان هناك في بيت السجن.اقول:على اختلاف مواضيع منها مع ما قصه القرآن تراها لا تتهم الصديق ان هم بها ، فالويل لمن اتهمه وكذب عليه ما التورات المحرفة منه براء !.

فإن الله لا يضيع اجر المحسنين » (٩١) وهو يعني نفسه وأخاه حين قال : « إني أنا يوسف وهذا أخي . . » .

وصاحبة القصة ثالثة : لقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » (٣٢) « الآن حصمص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » (٥١).

والعزيز الراغب في تهمته هو الرابع :« إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » (٢٩) .

والشاهد من اهلها هو الخامس « وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدمن قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وان كان . . فلما رآى قميصه قدمن دبر قال إنه من كيدكن . .» (٢٨) .

ونسوة في المدينة هن السادس : « وقال نسوة في المدنية امراة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين » (٣٠) و « قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز آلان حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين »(٥١) .

وابليس هو السابع حيث « قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلصين » (١٥ : ٤٠) « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلَصين » .

شهود سبعة بين صديق وعدو وعوان بينهما كلهم يشهدون ببراءة ساحة الصديق من السوء والفحشاء ، فلئن كان هؤلاء المختلقون يتبعون كاذباً عدواً للصديق حتى الشيطان ، لكان عليهم ان يبرؤوا ساحته كما قال الشيطان :« إلاّ عبادك منهم المخلَصين » ! فلتُغسل كتب إسلامية عن

تلكم الأسطورات التي تسوّد وجه النبوات وتعارض كافة المقايس والله منها براء !

يوسف منذ نُبِّئَ كان يرى برهان ربه والبرهان هو آكد الأدلة وأوضحها وأثبتها، من بَرَه يبَره إذا ابيض دون مخالطة ، فهو هنا العصمة الإلهَيّة ، والحضور التام عند ربه ، دونما غفلة ولا لحظة ، ولا سيما في مواضع الزلة ، و « لولا .. » تُحيل له عدم الرؤية ، وبالنتيجة تحيل هَمَّهُ بها ولبرهان الرب مراحل ثلاث ولكلٍّ درجات ، علم اليقين - عين اليقين وحق اليقين ، فحقه لا يخالطه أيُّ شك وباطل ، ولقد رأى يوسف درجةً من حق اليقين ، وكما تطلَّب إلى ربه درجة أعلى منها لما ابتلي بكيد نسوة في المدينة : « وإلّا تصرف عني كيدهن أصب اليهن .. » .

في مرحلة حق اليقين تتجلى حقايق الأشياء دون ستار ، منخلعة عن صورها المستعارة ، وكما يروى في اجابة الصديق عن همها [١].

وانما يحسن « وهم بها » ولن يهم، تلويحاً بأن الأسباب العادية تمت في همهُ بها ، حيث القمة القاضية من تجاذب الجنس حاضرة ، ولكنه حيث

---

(١) في تفسير روح البيان ١٢ : ٢٣٦ روى عن ابن عباس كان يوسف ... فقالت له يا يوسف انما صنعت هذا البيت المزين من اجلك فقال يوسف يازليخا انما دعيتني للحرام وحسبي ما فعل بي اولاد يعقوب ألبسوني قميص الذل والحزن يا زليخا اني اخشى ان يكون هذا البيت الذي سميته بيت السرور بيت الأحزان والثبور وبقعة من بقاع جهنم فقالت يا يوسف ما احسن عينيك ! قال : هما اول شيء يسيلان الى الارض من جسدي ، قالت : ما احسن وجهك ! قال : هو للتراب ياكله ، قالت ما احسن شعرك قال : هو اوّل ما ينتشر من جسدي ، قالت ان فراش الحرير مبسوط فقم فاقض حاجتي قال : اذاً يذهب نصيبي من الجنة ، قالت : ان طرفي سكران من محبتك فارفع طرفك الى حسني وجمالي ، قال : صاحبك احق بحسنك وجمالك مني ، قالت هيت لك !.

« راى برهان ربه » لم يهم بها « كذلك » التاثير الخارق للعادة من رؤيته برهان ربه « لنصرف عنه السوء والفحشاء » لا « لنصرفه عن السوء والفحشاء » إذ لم يكن ليهم بها وإنما السوء الهاجم عليه، والفحشاء الحادقة به المخلّقة عليه، لا بد لهما من صرف الّهي - حينما تعجز المحاولة البشرية - وقد صرف « إنه من عبادنا المخلَصين » وهكذا يكون دور المخلَصين في صرف إلّهي بعصمة إلّهية على طول الخط، فساحتهم من وصمات السوء والفحشاء براء، وفناءهم من بصمات الخير والسعادة بيضاء.

وفي الحق « ان رضا الناس لا يُملك وألسنتهم لا تُضبط وكيف تسلمون مما لم يسلم منه أنبياء الله ورسله وحجج الله عليهم السلام، ألم ينسبوا يوسف إلى أنه هم بالزنا »؟[1]

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤١٩ عن امالي الصدوق باسناده الى ابي عبد الله (عليه السلام) اقول ومن المؤسف انه روى هذه الفرية الفريقان وكما في نور الثقلين ٢: ٤٢٠ في تفسير العياشي عن محمد بن قيس عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال سمعته يقول: ان يوسف لما حل سراويله رأى مثال يعقوب عاضاً على اصبعه وهو يقول له: يوسف! قال: فهرب ثم قال ابو عبد الله (عليه السلام) ولكني ما رأيت عورة ابي قط ولا رأى ابي عورة جدي قط ولا رأى جدي عورة ابيه قط، قال وهو عاض على اصبعه فوثب فخرج الماء من ابهام رجله؛ اقول ومن أعور العورات نسبة هذه الرواية الى صادق آل محمد (عليه السلام) ولا موقع هنا للتقية حيث الكتاب مصرح ببراءته (عليه السلام) وكما فيه عن العياشي (٤٧) عن بعض اصحابنا عن ابي جعفر (عليه السلام) قال: اي شيء يقول الناس في قول الله عز وجل «ولولا أن رأى برهان ربه» قلت يقولون: رأى يعقوب عاضاً على اصبعه.

وفي الدر المنثور ٤: ١٣ و ١٤ روايات عدة غير مسنودة الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اللهم الى علي (عليه السلام) أن هم بحل التكة، او جلس منها مجلس الخائن اما ذا من سفاسف الافتراءات على الصديق العظيم، والله منها براء والرسول والائمة النجباء (عليهم السلام).

وهكذا تقول الروايات الصادقة وفق القرآن كما يروى عن الامام الرضا (عليه السلام) قوله في تفسير آية الهمّ: « لقد همت به ولو لا أن رآى برهان ربه لهمّ بها كما همّت به لكنه كان معصوماً والمعصوم لا يهمُّ بذنب ولا يأتيه . . » (١) .

فبرهان ربه هو العصمة الإلهية التي يجعلها في مقام الحضور الدائب لدى الرب كما يقول الامام الصادق (عليه السلام) : « ما رايت شيئاً إلاّ وقد رأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه » وليست المعصية إلاّ عن جهالة وغفلة ، وساحة النبوة منها براء .

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٤١٩ ح ٤٢ عن عيون الاخبار في باب مجلس آخر للرضا (عليه السلام) عند المأمون في عصمة الأنبياء باسناده الى علي بن محمد بن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا (عليه السلام) فقال له المأمون يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اليس من قولك ان الأنبياء معصومون ؟ قال: بلى قال فما معنى قول الله عز وجل ـ الى ان قال ـ فاخبرني عن قول الله تعالى : « ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه » فقال الرضا (عليه السلام) . . . ثم اضاف : ولقد حدثني ابي عن الصادق (عليه السلام) انه قال : همت بان تفعل وهم بان لا يفعل فقال المأمون لله درك يا ابا الحسن .

اقول الجملة الأخيرة في ظاهرها لا تلائم الآية بل تعاكسها ، فـ « هم الا يفعل » بتتمه الآية « لولا ان رأى برهان ربه » يجعله فعل حيث رأى برهان ربه ، ورؤية البرهان تدفع الهم دون ان تدفع الى الهم ، الا ان تؤول بانه تفسير النتيجة الخاصة عن « هم بها لولا ان رأى برهان ربه » فانتفى ـ اذاً ـ همه بها الى همه الا يفعل وهو تأويل حسن .

واما المجلس الآخر عند المأمون عند الرضا (عليه السلام) في نفس الآية : فانها همت بالمعصية وهم يوسف بقتلها ان اجبرته لعظم ما تداخله فصرف الله عنه قتلها والفاحشة وهو قوله : كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء،يعني القتل والزنا » فلا يلائم الآية حتى تأويلاً بانه لم يهم بها كما همت بل هم بقتلها ، حيث القتل في نظائر هذه الموارد لا يجوز في الشرعة الإلهية ، غاية الامر ألا يستجيبها ويفر عنها كما فر .

هذه ثالوث المحاولات الإبليسية من العزيزة (١) ليوسف، مراودة عن نفسه. ولّما تفشل، تتربع لرابعها توسلاً الى القوة، وأين لها وكيف تقوى على طغوى مَن حياته كلها تقوى:

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٢٥).

إنَّ هياجها الحيواني المسعَّر دفعها الى إعمال القوة في إطفاء الشهوة فلحقته بعدما مسّكته وفرّ « وقدت قميصه من دبر » مما يدل على إقبالها إليه فإدباره عنها.

فالقدُّ هو الشق طولاً والقطُّ هو عرضاً، والإلفاء مباغتة اللّقاء خلاف الوجدان فانه لقاء مقصود محاوَل، وسيدها - هنا - بطبيعة الحال هو العزيز، فلم يقل: سيده او سيدهما، إبعاداً عن مزعمة أنه ربّه، وتأييداً للمعنى من أن « انه ربي » هو الله لا سواه.

« واستبقاه » يوسف وامرأة العزيز « الباب » الممكن فتحها بعد غلقها، أم يكسرها ويخرج نجياً، وفي ذلك الإستباق يوسف يسرع إلى الباب فراراً عن كيدها وإصرارها، وامرأة العزيز تسرع إليه لتاخذه، والى الباب لتمنع عن فتحها، ولما سبقها الى الباب أخذت قميصه ايقافاً له عن الخروج قضاءً لحيونة الشهوة، ولكنه استمر في السباق «وقدت قميصه من دبر» شقاً في طوله « وألفيا » في مباغتة « سيدها لدى الباب » وهنا انقلبت حركة المراودة والإستباق، إلى موقف التحقيق في حيرة وبهرة من هولاء الثلاث.

---

(١) هي روادته - غلقت الابواب - وقالت هيت لك.

لم يكن يوسف في هذه المفاجئة الفاجعة ليسبق العزيز والعزيزة في شيء من بيان الواقعة ، لأنه خلاف الشرعة ان تُبدى خطيئة مخفية ،وقضية الحال لولا الإيمان أن يبدي ـ ولأقل تقدير ـ حياطة عليه وسياجاً على مكيدة قد تُكاد ، ولكنها الايمان قيد الفتك .

ونرى البادىء هنا صاحبة الجريمة ، تجد حاضر الجواب بكل مكيدة على السؤال الذي يهتف به المنظر المريب ، ولكنها بصورة عامة قد تحافظ فيها على عشيقها الذي شغفها حباً ، علّها تصل الى بغيتها فيه بعد ردح من الزمن فـ : « قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءً إلّا أن يسجن او عذاب اليم » فلو أنها لم يكن لها فيه هوى لقطعت في حكمها بقتله ، أفتىً مملوكاً مؤتمناً على البلاط مكرماً مثواه ، يمس من كرامة صاحبة البلاط ؟ ولكنها حكمت أولاً « أن يسجن » الظاهر في فترة دون « ان يكون من المسجونين » اللائح في ردح بعيد من الزمن ، ومن ثم تبين منها أن حكم السجن مكيدة لها عليه في حائطة : « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » (٣٢) وهنا « او عذاب اليم » علّه سياج على المكيدة ، وأن في ابهام العقوبة نوعاً من الفرج ، وإن كان في « بأهلك » هياجاً حارضاً على مؤاخذته ، ولكنه من وجه آخر كان حيلة في صرفه عن مؤاخذتها ، ثم لها سبيل في صرفه عن مؤاخذة يوسف، تلك الصعبة الملتوية القاضية عليه .

اترى يوسف البرىء هنا يتفجر فيفجر في الجواب ، ويخرج عن نجد الصواب ؟ كلّا ! فلا يجهر إلّا بقدر من الواقع فيه براءة ساحته ، دون أن يدنسها أكثر مما كانت ، ولا كما كانت ، حيث اختار من ثالوث مكيدتها أولاها : « وراودته التي هو في بيتها » وأما تغليق الأبواب ، وقولة « هيت لك » ومن ثم الإستباق، فلا ! فـ :

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي . . . ﴾[٢٦] .

دفاعاً عن نفسه بأقل الواجب ، وليس فيه تأكيد من قسم وسواه ، ولا تملق او تعلق بأمر سواه ، تدليلاً على طمأنينة أمينة في نفسه ، وهكذا يكون البريء الأمين ، لا يقول إلا صراح الحق ، دون تشبثات بخلاف الحق .

﴿ . . . وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّمِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ[٢٦] وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّمِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[٢٧] .

أترى العزيز كان مكفوف البصر ليحتاج بيان الموقف إلى شاهد يشهد بما هو مشهود لكل ذي بصر؟ كلاّ ، ولكن المنظر المفاجأ ما كان ليفسح مجالاً لفحص ونظر ، حيث يرى صاحب البلاط صاحبته في ذلك المنظر الرهيب مما يريب ويُهيب ، فكان ـ ولا بد ـ لبراءة يوسف الصديق من خارقة تجلب النظر ، فعلّه لم يسمع كلام يوسف ، أم لم يحلّ محله في سمعه ، فمدعية -هي عزيزته وكريمته- إنها هُتكت في غيبه من فتاه ، ومنكِر لم يات بشيء إلاّ دعوى خالية وجاه دعواها ، وطبيعة الحال قاضية أنها القاضية الماضية في دعواها ، أم ـ ولأقل تقدير ـ يبقى الموقف مريباً متردداً .

هنا قد نصدِّق الرواية القائلة أن الشاهد كان طفلاً في مهده وهو من أهلها [١] وقد كانت شهادة مثلثة : رضيع يشهد ، وهو من أهلها ،

---

(١) في الدر المنثور ٤ : ١٥ ـ اخرج احمد وابن جرير والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس عن النبي (ص) قال : تكلم اربعة وهم صغار ابن ماشطة فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم ومثله دون اسناد اليه (ص) عن سعيد بن جبير وفي نور الثقلين ٣ : ٤٢٢ ح ٥٣ عن القمي حدثني ابي عن بعض رجاله رفعه قال قال ابو عبد الله (ع) لما همت به ـ الى ان قال في تفسير الآية ـ فألهم =

وشهادته مشهودة في قميصه ، فطفولته وجّهت وجه العزيز إليه حائراً ذعراً ليسمع مقالته ، وكونه من أهلها لا من أهله أوجبُ للحجة وأوثق للبراءة وأنفى للشبهة ، وقدُّ القميص من الدبر جعله يقطع دون ريب بكيدها وبراءته ، لا سيما وبدأه باحتمال كذب يوسف « إن كان قميصه قدمن قبل فصدقت وهو من الكاذبين » كسياسة حيادية في الشهادة تجعل السامع لها تائقاً إليها ، ناظراً فيها ، مرتاحاً بها ، ثم عطفاً إلى احتمال ثان هو المُبان في المشهود له : « وان كان قميصه قدمن دبر فكذبت وهو من الصادقين » .

وبالنتيجة نظر العزيز إلى القميص قبلاً ودبراً ليحظو حظوة من الشهادة ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾(٢٨) أفكان يجرء شاهد بالغ من أهلها ان يشهد لغير صالحها وفيها هتفه ام سقوطه عن أهليته ؟! .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ولم تكن هذه الشهادة لتحتمل خلاف الواقع ، أن تُحمّل على الموقف تعبداً ام تقبلاً عرفياً ، وإنما هي شهادة بمشهود حاضر غاب عن الناظر قضيةَ الموقف الخطير الرهيب ، الذاهب بلبّ العزيز وبصيرته فضلاً عن بصره ورؤيته ، فهي شهادة مصحوبة بواقع المشهود وبسند الشهادة ، والشاهد طفل ليس ليتكلم كلام الطفولة وهو يشهد شهادة الرجولة البالغة ، ثم هو من أهلها ، مقدماً لها ما يحتمل به نجاحها ، فلم يكن بدٌ للعزيز إلّا حكمه القاطع في عزيزته : « إنه من كيدكن » إدخالاً لها في جمعهن تخفيفاً عنها أنها ليست بدعاً في مكرها « إنّ كيدكن عظيم » !

= الله عز وجل يوسف ان قال للملك سل هذا الصبي في المهد فانه سيشهد انها راودتني عن نفسي . . فانطق الله الصبي في المهد ليوسف . .

فاخيراً تبين في مشهد العزيز والعزيزة بشاهد من أهلها أنها هي الخائنة ، وهنا تبدو صورة من الطبقة الراقية المترفة في الجاهلية قبل آلاف من السنين-كما هي اليوم أرقى ـ تبدو رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية مع تميُّل إلى كتمان التميُّع عن المجتمع ، وأنّى منها الكتمان وقد تسرب الخبر وشارع في سراع الى نساءٍ في المدينة !.

وترى كيف « ان كيدكن عظيم » ومع « إن كيد الشيطان كان ضعيفاً» (٤ : ٧٦) ؟ إنه عظيم وجاه كيد الرجال ، ولكنها معاً ضعيفان بجانب كيد الشيطان ، ثم العظيم عند الناس أضعف من الضعيف عند الله ، ثم وعُظم الكيد منهن من قالة العزيز ، ولا يرد عليه القرآن لعظمه نسبة الى الرجال ، لا على أية حال !

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾(٢٩)

هل الحاكم هنا بعد الشهادة هو الشاهد ؟« وشهد شاهـد » دون حاكم لا يناسبه ، ثم الحَكَم في مثل هذا الموقف ليس إلّا عزيزه الكبير ، النـافـذ قوله في فتاه والعزيزة ! فهو إذاً ليس إلّا العزيز .

يبدأ بيوسف المنتصر المحكوم له في المشهد كملتمس منه ، ألّا يذيع ويشيع الكارثة :« يوسف أعرض عن هذا » الذي حصل ، ولكنه لا يكفي كاتماً ما دامت العزيزة أسيرة سعار الشهوة ، وقد تتكرر منها المراودة فتفشوا ، أم تتسابق على لسانها في فلتاتها ، ام تظهر على وجهها في لفتاتها فتشيع ، فلذلك يثني الوصية بعده إليها « واستغفري لذنبك » وهل كانت مؤمنة بالله لتستغفره عن ذنب ، ام كان هو مؤمناً ليامرها به ؟ وطبيعة البلاط وجوّه التميع واللّامبالات حتى في المسلمين فضلاً عن بلاط الفراعنة المشركين !.

أم أمرها أن تستغفر العزيز نفسه لذنبها ؟ وماذا يفيده وكيدها عظيم ! ولو كان في الحق ذنباً عندهما لكانت هي البادئة في استغفاره قبل أمره !.

علّه بمناسبة الموقف هو طلب الغفر الستر على ذنبها ، وهو ما يستوخم عقباه ، أن تحاول في ستره والحفاظ عليه كما تستطيع حتى لا يذيع ، أم بمناسبة « إنك كنت من الخاطئين » يطلب إليها أن تُصلح حالها فلا تراوده ؟ وعلّهما معاً معنيّان ، وفي مناسبة الموقف هما سيان .

ولماذا « الخاطئين » بدل « الخاطآت » علّه لتعميم أكثر وتعمية لخطائها ضمن خطايا الآخرين رجالاً ونساءً ، أم إنهم الطبقة الارستقراطية من رجال البلاط ونساءه حيث تعمها هذه الأخطاء ، ثم وفي « الخاطئين » تلويحة أخرى أنها كانت مستمرة في مراودتها في سترة ملّحة ، حيث كان يتحسسها منها ولا يصارحها بشيء إلاّ هذه المرة المريرة المفاجأة،كما وقالةُ النسوة :«امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » بالصيغة المضارعة دون : «راودته» تدل على ذلك الإستمرار المكّار الجبار ، فهو ضمن ما يحكم عليها بالخطاء يحكم لها أنها ليست بدعاً في الأخطاء التي هي طبيعة الجو في البلاط ، ولذلك نراها تصرح بمراودتها أمام نسوة في المدنية « الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه .. » دونما تخوف من ذياع الخبر وضياعها في جوّ البلاط ، فانما كانت تتستر وتتصبر تفتشاً عن مجال لائق مقبول لمراودتها حتى لا يقال « تراود فتاها » : الرق ـ مما يدل على خساستها ، متنزلة عن خصاصتها وعلياها !.

وهنا يُسدل الستار على مشهد المراودة ، ولكنه لم يؤنّبها أو يعاقبها ، أم ـ ولأقل تقدير ـ يفصل بينهما ، فتمضي الأمور في طريقها،مما يدل على نقصان الغيرة او زوالها من جو البلاط ، وهكذا تمضي الأمور في القصور ، في كل تقصير وقصور ، ذلك وإلى أن تسرَّبت القصة إلى نسوة في المدينة :

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾(٣٠) .

هنا لأول مرة نعرف رسمياً صُراحاً ان المرأة هي امرأة العزيز ، والذي اشترى يوسف من مصر هو العزيز ، فالقرآن يكتفي في ذكر الأشخاص من سماتهم كما يقتضيه الموقف ، دون تهذُّر في ذكرها تطويلاً بلا طائل ، فهنالك « الذي اشترى وامرأته » وهناك « ألفيا سيدها» وهنا ، « امرأة العزيز » ومن ثم « قال الملك . . » وقد نتبينّ بعدُ أنه عله هو العزيز أم سواه.

ولماذا « قال نسوة » دون « قالت » ؟ ألأنها إسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي ؟ وتانيثه على أية حال حقيقي ! أو لأن تقديم الفعل يسمح لإسقاط علامة الثانيث كسقوط علامة التثنية والجمع ؟ وهذا قياس خلاف القياس الأدبي ، أن المؤنث الحقيقي فعله او صفته مؤنث على أية حال ! إلاّ أن يقال أن أدب القرآن هو المقياس لكل قياس ، فتذكير فعل المؤنث الحقيقي قبله هنا يؤخذ قياساً مطرداً في أضرابه ، دون إصغاء الى سائر الأدب !.

ام اضف إلى ذلك المحتمل أن قالة نسوة هنا تجشُّماً على عزيزة البلاط هي قولة الرجولة ، فناسبهن ضمير الرجال ، وكما ياتي ضمير العاقل لغير العاقل بمناسبة فعل العاقل : « وكل في فلك يسبحون » : الأرض والقمر والشمس، حيث السباحة العاقلة دون غرق ولا اصطدام هي فعلة العاقل .

وعلى أية حال « وقال نسوة في المدينة . . » وطبعاً هن نسوة معروفات بامكانهن تلك الرجولة في قالة على العزيزة ، وطبيعة الحال فيهن التحسُّد عليها ، فلا تحسُد نساء الطبقة السافلة الجائعة عزيزةَ البلاط ، ولا يخلد بخلدهن تلك المحاسده، فهن ـ إذاً ـ سيدات في المدينة عزيزات راعنات

مثلها متهوّسات متغنجات متولهات والهات للشهوات واللهوات، يسمحن لأنفسهن تعيير صاحبة البلاط.

وكيف تسربت القصة إليهن؟ أنها «تراود فتاها عن نفسه» دون «راودت»؟ أفلأنهن عشيرات العزيزة ورفيقاتها، فالمخالطة المراودة بينهن تجعلهن يتفرسن تلك المراودة المستمرة ولا سيما تلك المرة الجاهرة التي تسربت ـ بطبيعة الحال ـ إليهن، من فلتات لسانها وصفحات وجهها أمّاذا من لفتات وفلتات.

هن يعبن العزيزة كيف «تراود فتاها عن نفسه» ولما يرينّ يوسف إلاّ رواية، واين رواية من دراية؟ والبيان من العيان؟ واين هي والفتى المملوك؟ وبطبيعة الحال إذا كان صاحب جمال ليس بالذي يفوق جمال الفتيان في جوّ البلاط، فكيف تعشق العزيزة فتاها ولحد «قد شغفها حباً»؟ اختلت أحوالها القلبية كما القالبية! فقد شق حُبه شغاف قلبها حتى وصل إلى فؤادها، متفئداً بنيران العشق، حارقاً كلا القلب والقالب!..

والحب الشغف هو أبلغ الحب، فهنا العشق الحب المفرط، وهناك السكر والهيمان، وهنالك الشغف وهو غشاء القلب، فقد يعني أن حبه تغلغل إليها حتى أصاب شغافها وهو غشاء قلبها، فأصبحت مسلوبة الشغاف، أم إن شغافها أحاط حبه وأحاطه حبه فلم يبق في قلبها إلاّ حبه، فلا تهوى إلاّ إياه، ولا ترى إلاّ رؤياه، ولا تنظر إلاّ مرآه، وكأنها أصبحت كلها إياه، حيث حجب عنها كل شيء، كأنها لا تملك لنفسها إرادة إلاّ مراودته، ولا تحب إلا رؤيته،إذ «قد حجبها حُبه عن الناس فلا تعقل غيره، والحجاب هو الشغاف والشغاف هو حجاب القلب»[1] حب قاتل لا

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٢٣ ح ٥٧ في تفسير القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى: «قد شغفها حباً يقول: قد حجبها...».

يعرف صاحبُه إلاّ محبوبَه ، فإنه اللازق بالقلب ، اللازم معه !

« إنا لنراها في ضلال مبين » حيث تُبين هي كلَّ ذلك وهو لا يُبين بل لا يَبين !.

فهبها تحب فتاها شذوذاً في الحب ، فلماذاتُبين هي، وأما هو فلا يكاد يَبين ، ترغب إليها وهو لا يرغَب ، لحدّ التسابق وقد قدت قميصه من دبر وشهد شاهد من أهلها « إنا لنراها في ضلال مبين » حيث ظلت تراوده فضلت كذلك المبين !

وضابطة المراودة الجنسية ان الرجل يراود المرأة التي هي بمبلغه ، وتلك المراودة فيها تخلفات عدة ، ١ ـ أنها تراود ، ٢ ـ وباستمرار ، ٣ ـ فتاها المملوك لسيدها ، ٤ ـ وقد شغفها حباً ، فهي ـ إذاً ـ مراودة تربو في مربعها على سائر المراودة ، مما تزيدها قِحة على قِحة ، فتصبح فعلتها في قمة الوقاحة .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾(٣١).

وبالمآل « سمعت بمكرهن » كما سمعن مكرها ، وكيف يصبح بيان الواقع مكراً وهي معترفة بأصل المراودة ، وليس الإغتياب مكراً إلاّ التهمة ؟ علّه « مكرهن » من جهة تضخيم القحة بغياً منهن لها ، حَسداً وابتغاء فَضْحِها في المدينة ، والتذرُّع به إلى مواجة يوسف لكي يحظون به حظوها ، وهي ترى مراودته طبيعة الحال في ذلك الجمال ، وكما أثبتت لهن حتى اعترفن « ما هذا بشراً .. » !

« سمعت .. وأرسلت إليهن .. » كلهن دون إبقاء ، مما يدل على

أنهن نسوة خصوص كانت تعرفهن وتتعارف معهن ، « ارسلت .. واعتدت لهن متكأ .. » وترى ما هو « متكأ » وما هي الصلة بينه وبين « سكيناً » ؟

المتكأ هو ما يتكأ عليه من كرسي أو نمرق ، متعوَّد عليه في بيوت المترفين تلك الزمن ، والإعتاد دليل أنه متكأ خاص ، دون الحاضر في محالّه على أية حال ، إذ كن من نساء الطبقة الراقية المسامتة للعزيز ، فهنّ اللواتي يُدعين إلى مآدب لكل المآرب المترفة في القصور ، ويؤخذن بتلك الوسائل المتميزة ، ياكلن ويتفكهن وهن متكئات على الوسائد والحشايا والنمارق كعادة الشرق في تلك الزمن .

ومهما صح عناية الأترج من المتكأ ، إضافة إلى ما يتكأ ، فهنا لا تصح ، فان « متكأ » ظاهرها الوحدة ، وكيف تكفي لهن أترجة واحدة ! ومن قبل « أعتدت » لمحة أن « متكأ » ما كان حاضراً ، وحضور الأترج وسائر الفاكهة في بيوت المترفين أمر متعوّد لا يحتاج إلى إعداد ، فـ « متكأ » بوحدته يلمح لمجلس واحد كله مُتكأ ، وطبعاً للأكل والشرب والمحادثة ، فيكفي بوحدته دلالة على حضور أنواع المآكل والفواكه .

« وآتت كل واحدة منهن سكيناً .. » واستعمال السكاكين في الأكل في تلك الزمن البعيدة ، يصور المدى البعيد،عن الترَف والحضارة المادية ، .. فبيناهن منشغلات بتقطيع اللحوم والحلويات والفواكه ، تمكر مكرها إذ تفاجئهن بيوسف مباغتة دون سابقة إعلام :« وقالت أخرج عليهن » .

ولماذا « أخرج » بديل « أدخل » علّه لأنه كان منزوياً في زاوية أو غرفة تخوفاً عن استمرار المراودة ، أم وكيد النسوة المدعوات ، أم إنها أخفته في مخدع داخل المادبة المتكأ . فـ « قالت أخرج عليهن » فخرج بطبيعة الحال ، إذ ما كان يملك تأبّياً وهو في مُلكتها وتحت سلطتها وسيطرتها ، أم

لو لم يخرج لأخرجنه معها وأنّى له التأبّي عن خروجه في هذه المعركة الصاخبة ، وهلاّ خافت عليه منهن أن يفتنهن كما هي ، فيشاركنه فيما تشتهي ؟ لأنها مولاه وقد تملكه ، فلا يدعه يهوي الى هوّاتهن ، وهي تعلم أنه لا يصبو إليهن وقد عصم نفسه منها وهي أجملهن ، ثم لا تسطع أن تقضي على كيدهن إلاّ أن يرينه كما رأت فيغيرن من كيدهن اعترافاً بحقها فيه وقد فعلت .

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾(٣٢) .

ولماذا لا يكبرنه وقد أعطي حسناً منقطع النظير وكما يروى عن البشير النذير « أعطي يوسف وأمه شطر الحسن » (١) !

« اكبرنه » عما كن يزعمن أنه ـ فقط ـ فتاها المملوك ، أم وأي فتىً جميل ، ولكنه منقطع النظير في قبيل البشر، لذلك « أكبرنه وقطعن أيديهن » لدهشة مفاجئة غير منتظرة ، ولقد كان ذلك الإكبار لحدٍّ أصبحن في أنفسهن صاغرات مائرات لحبِّ فقدن بالمرة شعورهن وإحساسهن ، فجذبن أعينهن إليه عما يقطعن من أكلٍ وفاكهة ، فقطعن أيديهن ، فإن كانت العزيزة شغفها حباً لحد تلك المراودة في مدة طائلة فهن قد اصبحن أشغف

---

(١) الدر المنثور ٤ : ١٧ ـ اخرج احمد وابن جرير وابن ابي حاتم وابن مردويه والحاكم عن انس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ... وفي المجمع عن ابي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يصف يوسف حين رآه في السماء الثانية ، رأيت رجلاً صورته صورة القمر ليلة البدر قلت يا جبرئيل من هذا ! قال : هذا أخوك يوسف .

منها في اوّل وهلة ، فقالت لهن العزيزة « انتن من ساعة واحدة هكذا صنعتن فكيف أصنع أنا »[1] !

ومن خلفيّات الإكبار الأنثوي-أمام جمال رائع منقطع النظير- الحيض ، وكما تعنيه لغة الإكبار أحياناً : أكبرت المرأة إذا حاضت ، فسواء أحاضت لكبر في عمرها كبداية اختلامها ، ام لإكبار فيما ترغب إليه من شهوة فائقة وقد تُمني ، حينذاك ، فقد تعني « أكبرنه » فيما تعنيه :حضن وأمنين ، مناسبة لأدب اللفظ والمعنى .

ومن خلفيات ذلك الإكبار أن « قطعن أيديهن » في تصاغر قوالبهن كما في قلوبهن ، حيث أثر إكبارهن قلباً وقالباً ، لحد أخطان الفاكهة وسائر المأكول إلى أيديهن ، حيث قطعنها فاقدات الشعور والأحاسيس ، اللهم إلاّ إحساسهن ليوسف لا سواه ، دون أن يدركن إلاّ إياه .

وهذه سنة سارية في الإنسان ، أن الروح إذا انشغل عن البدن تماماً فلا يحسّ ما يصاب في البدن ، سواء أكان إنشغالاً في الله فأحرى وأتم ، أم انشغالا في غير الله وكما حصل في نسوة في المدينة .

فلقد كان ذلك الإكبار لحد فقدان الشعور المدبر للبدن ، المدرك لمصابه ، وليس «قطعن » تعني جرحن ، والإختلاف بينهما فادح ، وهل كن

---

(١) الدر المنثور ٤ : ١٦ واخرج ابن ابي حاتم من طريق دريد بن مجاشع عن بعض اشياخه قال قالت للقيم ادخله عليهن والبسه ثياباً بيضاً فان الجميل احسن ما يكون في البياض فادخله عليهن وهن يحززن ما في ايديهن فلما رأينه حززن ايديهن وهن لا يشعرن من النظر اليه فنظرن اليه مقبلاً ثم اومأت اليه ان ارجع فنظرن اليه مدبراً وهن يحززن ايديهن بالسكاكين لا يشعرن بالوجع من نظرهن اليه فلما خرج نظرن الى ايديهن وجاء الوجع فجعلن يولولن وقالت لهن : انتن ...

يجرحن الطعام والفاكهة حتى يستبدلن أيديهن عنها؟ فإنما تقطيع بديل تقطيع، وصيغة التفعيل هي للتكثير، كثرة في عددٍ عددَ ايديهن، وأخرى في قَدَد حيث قددن وشققن أجزاءً من أيديهن كما تُقطع الفاكهة، وهن لم يشعرن حين قطعن حتى هُنيئةٍ رجعن إلى ما كُنَّ فرآين أيديهن مقطعة.

«قطعن.. وقلن حاش لله ما هذا بشراً..»! وهي كلمة تنزيه لله، إندهاشاً من خلق الله، فهن مهما كن مشركات في عبادة الله، ولكنهن في نفس الوقت موحدات في خالقية الله: «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل فأني تؤفكون»؟.

ففي حسن البشر حدٌ تعرفه نساء الطبقة العليا، المترفة بجمال الرجال، فإذ لم يجدن مثله فيما رأينه، إذاً فـ«ما هذا بشراً» أيا كان «إن هذا إلاّ مَلك» ليس كسائرِ الملك على حسنهم وجمالهم وكمالهم بل هو بينهم «كريم» واسعٌ في المَلكية جمالاً وكمالاً، خَلقاً وخُلقاً، صورة وسيرة، فلو كان بشراً لرأينا مثله، أم انجذب إلى نسوة جميلات متزينات بأعلى الزِيَن، متزيّات بأرقى الأزياء، فلا خَلقه يشبه بشراً ولا خُلقه، إذاً فـ«ما هذا بشراً إن هذا ملك كريم».

أترى أنهن رآين ملكاً كريماً حتى ظنَنّه ملكاً او مثّلنه بملك؟ كلاّ! ولكن السيرة منذ القديم جرت على أن صورة الملك أفضل الصور كما وسيرته أحسن السِيَر، فضلاً وحسناً فوق التصور، فيمثل به كل حَسَن لا يقدر بقدر، وهو منقطع النظير في قبيل البشر! وهكذا قدرن في يوسف ما هذا بشر إذ لا يرين فيه انجذاباً الى انثى البشر وهن وهي في حسنهن القمة، وفي دلالهن وغنجهن ما لا تغمض عنه عين بشر! لذلك «إن هذا إلاّ ملك كريم».

ولكن الحق في «ملك كريم» ألا يُطمع فيه طمع الجنس ، وليُكرم إكراماً فوق الإنس ، دون تهمة وقحة وفي رغبة الجنس ، فكيف تكون الحالة الملكية عاذرة لأمراة العزيز ؟

الحق انه مبالغة منهن في جمال الصورة وكمال السيرة والسريرة، مما يزيد النساء رغبة فيه وشغفاً إليه ، لذلك نراها تعتذر به وهن يقبلن العاذرة ، وإلّا لانقلب سناد العذر ضده ، وقلّب الأمر عليها أشدَّه .

وترى أن تقريرهن في «إن هذا إلّا ملك كريم» ولزامه أن المَلَك أفضل من البشر ، هلّا يعارض «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» فلا أحسن منه في تقويم مهما كان له مثيل في تقويم «وفضلاهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً» حيث القليل منهم له مثيل ؟

ولكن هذا تصريح دون معارض وذلك على أكثر تقدير ـ تقرير ، فليقدر بقدره غير المعارض للتصريح ، وعلّه ان الحالة الفعلية الدائبة لملك كريم أفضل منها لبشر ، مهما كان الإنسان في استعداده وفاعليته تحصل له فعلية هي من الملك أكثر بكثير ، وكما في الرسول الأقدس (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث فاق بجسمه على جبرئيل ليلة معراجه ، فضلاً عن روحه ! فلا تثبت الآية أن الملائكة أفضل من الإنسان ، اللهم إلّا في عرف عام قياساً إلى العوام .

فامراة العزيز تخلق ذلك الجو العجيب الرهيب كيداً بكيدهن ، وجواباً مجسداً عن قولهن «امراة العزيز تراود فتاها عن نفسه . . » .

فلقد كان هذا منهن في كيدها جواباً عن كيدهن حاضراً ، فانتصرت في المعركة إذ «قالت فذا لكن الذي لمتنني فيه» ذلكن الملك الكريم الذي تُقَطَّع بمجرد رؤيته الأيدي ، هوذا «الذي لمتنني فيه» فلا تلمن إلّا أنفسكن حيث بهرت وانقهرت هكذا في لقاء واحد ولأوّل مرة ، أفلا أراوده أنا المسكنية

وقد عاشرته طول سنين حتى إذا بلغ أشده :

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾(٣٢).

في ذلك الموقف القاهر والمشهد الظاهر الشاهر تجد مجالاً للإعتراف بالمراودة مفتخرة بها ، متجهة فيها بعد تجسد الجواب عن مكرهن : « ولقد راودته عن نفسه » حيث بهرني كما بهركن « فاستعصم » معانياً فيه تحرزاً عما يعاينه ، وهو في الحق استعصام بالعصمة الإلهية وهي برهان ربه ، بعد الإستعصام بكل الطاقات البشرية .

وليست هي الآن لتكتفي بهذه وتلك ، إلاّ ان تنهيها بثالث الثالوث بتهديد له بالغ ، حيث تظهر سيطرتها عليه أمامهن بتبجُّــح المرأة في ذلك الوسط دون اختجال ، فلا ترى بأساً من التجاهر بنزواتها الأنثوية مكشوفة ، وبكل افتخار في معرض النساء : «ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » فهي في بداية الفضيحة أمام العزيز تُردِّد الأمر في غير تأكيد بين «أن يسجن أو عذاب أليم » طالبة منه أحد الأمرين ، وهنا تؤكد بنفسها عليه الأمرين في تأكيدين «ليسجنن وليكونن من الصاغرين » كأنها هي الآمرة والعزيز يسطبّق أمرها كما تريد .

أفتاي هذا الذي ربَّيته وأكرمته يستعصي أمري وهو من المكابرين ، فليسجن إذاً ولكيونن من الصاغرين ، لكيلا يكابرني بعد فيما آمره .

وإلى ذلك الحد الحديد الشديد تصل القحة في البلاط وقصــور المترفين ، ولا سيما في الوقت الذي تجد صاحبة البلاط صاحباتها في سعار أكثر منها فيما يصنع - إذاً - يوسف الصديق :

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ

فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾(٣٤) .

تحاشى يوسف هنا أن يجاوبها والنسوة ، وانصرف إلى ربه ملتمساً داعياً أن يصرف عنه كيدهن ، ففي دوران أمره بين أن يصبوا إليهن أو أن يُسجن ويكون من الصاغرين، هو يستحب السجن دون صبوٍ ولا صغار : «رب » الذي ربيتني وخلصتني حتى الآن من كل سوءٍ وفحشاء « السجن أحب إلي مما يدعونني إليه » فذلك سجن للبدن حفاظاً على حرية الروح في عبوديته ، وهذا سجن للروح ورقية للهوى وفيه حظوة الجنس وحرية الشهوات بضروبها ، ولكني رجل الروح قبل الجسم ، فما الجسم إلاّ ليحمل الروح في صالحه .

أتراه دعى على نفسه بالسجن وهو عار أن سبّبه التهمة ، ولا سبيل إليه إلاّ هيه ؟ كلا! وإنما هو بيان حال أن لو انحصر أمري بين واقع العار وتهمته فالسجن التهمة أحب إلي فراراً عن واقع العار !.

إذاً فلماذا لم يطلب إلى ربه صرف كيدهن عنه بلا أن يسجن ، صرفاً للمحظورين و«إنه هو السميع العليم » ؟

ذلك ، وعلّه استسلام للرب وابتعاد عن المحظور حتى إن قُدّر أن يُسجن ، ومحور الدعوة « إلاّ تصرف عني كيدهن . . . » ولو بالسجن ، ولم يستجب ربه إلاّ في ذلك الصرف : «فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن . . » لا أن قدّر سجنه وصرف الكيد عنه ! .

وكيف يحتاج يوسف ـ بعد ما رأى برهان ربه فلم يهم بالعزيزة ـ أن يصرف ربه عنه كيدهن ، وفي برهان الرب وهو العصمة كفاية هنا كما هناك ؟

ذلك لأن العصمة والقوة القدسية المفاضة على يوسف ، ليست بالتي

هو يملكها ، دونما حاجة بعدُ إلى عناية إلّهية متواصلة : «ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً» (١٧ : ٧٤) !

ثم البلية هنا قد زادت بمكايدات نسوة في المدينة ، وتهديدات صاحبة البلاط ، فقد دعونه إلى ما دعته إليه «مما يدعونني إليه» مما زاد في الطنبور نغمة أخرى ، وتفاقم الأمر مرة أخرى اكثر بكثير من الأولى .

فإن كانت رؤيته برهان ربه هناك تصده أن يهم بها ، وهي فعله مهما كان البرهان من ربه ، ولكنه هنا-وقد علت النبرة وازدحمت النسوة في المكيدة- هو بحاجة إلى برهان أقوى ، وصرفٍ من الله «وإلّا تصرف عني كيدهن» مكيدة لا يقوى عليها إلّا الله حيث تكِلُّ كُلُّ القُوى ، وتختل الموازين كلها ، اللهم إلا صرفاً من الله .

«إلّا تصرف عني . .» لا «تصرفني عنهن» إذ لم يكن ليهواهن ، وإنما هن اللاتي يكدنه لحد يكاد يصبو إليهن .

والصبْو هو تميُّل صبياني عن جهل وتفلّت عقل ، وصبا يصبو صبوة إذا نزع واشتاق وفعل فعل الصبيان ، فإن المكائد الأنثوية تصل لحد يُطيِّر بها العقل وينوبه الجهل «أصبُ اليهن وأكن من الجاهلين» وهو القائل : «وما أبرى نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلّا ما رحم ربي» فهو يستدعي من ربه في ذلك الموقف الحَرِج المَرِج أن يخصه برحمة خاصة تصرف عنه كيدهن «فاستجاب له ربه» دعاءه «فصرف عنه كيدهن» ثم لم يمنع ويردع عن سجنه «إنه هو السميع» للدعاء «العليم» ما يصلح الداعي ، وقد كان يكفيه هنا أن يصرف عنه كيدهن وإنّ ببلية السجن ، وهي في نفس الوقت من ألطافه الخفية ، حيث كان ذريعة لاستئصال التهم عنه على طول الخط ، واستقطابه لأن يجعل على خزائن الأرض ، والسجن - فقط - طريق لهما قاطعة ! «إنه هو السميع العليم» ولكن صرفه

شيء ،وسجنه المفصول عنه بـ «ثم» شيء آخر، ويستمر صرفه في طياته .

وكيف ينقم بسجنه الذي ارتضاه ابتعاداً عن صبْوه إليهن ولأمير المؤمنين علي (عليه السلام) به أسوة إذ قال : رب السجن أحب الي مما يدعونني إليه . . »[1] .

وكيف لا يرتضى السجن-إن كان ولا بد-لصرف كيدهن عنه ، وقد تعلقن به جيعاً ترأسهن العزيزة كما تصرح «مما يدعونني إليه ـ وكيدهن » دون «ما تدعوني اليه وكيدها » فهن جميعاً مشتركات في الدعوة والمكيدة سواء بالقيلات واللفتات، او الحركات والتغنُّجات أو الإستباقات أماذا من دعوات مكيدات[2] .

ففي هذه الغائرة الحائرة المائرة لا مناص له ولا خلاص إلّا ان يستنجد ربه بمزيد من رحمة العصمة ان يصرف عنه كيدهن كيلا يقع في حبائلهن

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٢٣ ح ٥٨ في كتاب علل الشرايع باسناده الى ابن مسعود قال : احتجوا في مسجد الكوفة فقالوا : ما بال أمير المؤمنين (عليه السلام) لم ينازع الثلاثة كما نازع طلحة والزبير وعائشة ومعاوية ؟ فبلغ ذلك علياً (عليه السلام) فامر ان ينادى الصلاة الجامعة فلما اجتمعوا صعد المنبر فحمد الله واثنى عليه قال : معاشر الناس ! انه بلغني عنكم كذا وكذا ؟ قالوا : صدق امير المؤمنين (عليه السلام) قد قلنا ذلك ، قال : ان لي بسنة الانبياء اسوة فيما فعلت قال الله تعالى في محكم كتابه : لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة » قالوا : ومن هم يا امير المؤمنين؟ قال : اولهم ابراهيم (عليه السلام) ـ الى ان قال ـ ولي بيوسف اسوة اذ قال : رب السجن احب الي مما يدعونني اليه ، فان قلتم ان يوسف دعى ربه وسأله السجن بسخط ربه فقد كفرتم ، وان قلتم انه اراد بذلك لئلا يسخط ربه عليه واختار السجن فالوصي اعذر .

(٢) في تفسير القمي في حديث جمعها النسوة وتقطيعهن ايديهن قال : فما امسى يوسف (عليه السلام) في ذلك اليوم حتى بعث كل امراة رأته تدعوه إلى نفسها فضجر يوسف في ذلك اليوم فقال : «رب السجن احب الي مما يدعونني اليه . . . » .

خيفة ان يضعف أمام الإغراء، ويتضاعف عما كان من إمرأة العزيز في «هم بها لولا ..».

وها هي دعوة الإنسان العارف بحدِّه، القاصر في مدّه وشده، الذي لا يغتر بعصمته، فيريد مزيداً من عناية ربه وحياطته بحيازته «فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ..» لا أن يسجن بالفعل، حيث التراخي بين ذلك المشهد العارم وبين سجنه قائم كما تلمحه «ثم بدا لهم ...».

وهكذا يجتاز الصديق محنته العارمة في هذه الحلقة الثالثة، بعد غيابت الجب وبعد العزيزة، ثم تبدء الحلقة الرابعة وهي سجنه حتى حين:

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ
حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ
إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ
فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ
إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ
تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ
ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ

إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ
مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ
مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن
دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ
إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾
يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ
وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ
ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا
ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ
فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

هنا يوسف السجين يجد مجالا لائقاً وجواً فائقاً للدعوة الى التوحيد حين يرى صاحبي السجن بحاجة إلى تأويله ، وهما يريانه من المحسنين ، فهل سجن إلاّ قضية الإيمان ، فليدعُ إلى الايمان أيا كان ، وليس السجن لأهل الله سجناً لحرية الدعوة ، فإنما هو استلاب لحرية الجسم حِلًّا وترحالاً ، وأما الروح فقد يصبح بالسجن أروح ، وتبرز شفافيته ولباقته أريح وانجح !.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ(٣٥)﴾ .

فـ «ثم» هنا تلمح إلى فصل غير قريب بين ذلك المشهد وسجنه ، والبداء ظهور رأي خلاف ما كان ، والآيات هي الدالات على براءة يوسف ، من براءته الذاتية المشهودة في عشرته ، وأن العزيزة راودته وقدَّت قميصه من دبر ، وكما شهد شاهد من أهلها واعترف العزيز بكيدها ، وصرحت العزيزة بميلها في مشهد النسوة ، أمَّا هيه[١] .

وهذه كلها آيات قاطعة لبراءته وقحتها ، مما يجعله يُكرَم أكثر مما كان ، فضلاً عن السجن حيث فيه بيان .

ولكنما الحق الواقع شيء، والمصلحية في الأوساط الراقية والمترفة شيء آخر ، يفدون بكل حق ناصع حفاظاً على مصلحية.

فلقد شاعت قصة المراودة في أوساط المدينة ولاكتها الألسن وتلقتها في الأوساط الشعبية ، واستطارت ـ بطبيعة الحال ـ أكثر مما كانت ، كما هي السنة في كل حادثة تدخل قالتها بين الجماهير ، فأصبحت حديث اليوم ، وتزداد شياعاً فضياعاً للبلد يوماً بعد يوم ، مما تجعل قحة العزيزة وفضيحتها سنة تقتدى في كل الأوساط ، فإن ذلك الحسن الذي أولَهَ سيدة

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٢٤ ج ٦٠ القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر (عليه السلام) في الآية : والآيات شهادة الصبي والقميص الممزق من دبر واستباقهما الباب حتى سمع مجاذبتها اياه على الباب فلما عصاها لم تزل مولعة بزوجها حتى حبسه .

البلاط وأقرانها من السيدات ، من طبعه ألّا يلبث دون أن يقيم في المدينة بلوى وفوضى .

لذلك «بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » بدا للعزيز حفاظاً على سمعة البلاط وحرمته وحريمه ، وبدا للعزيزة وقد كانت تهدده من قبل «ليسجنن . . » فبعد ان تصبَّرت ردحاً من الزمن واستمرت فيما حاولت فشلَت وفَشِلت فأصرت على العزيز أن يسجنه بعد ما احتالت في تلبيس الأمر عليه كما يلوح من «إرجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن » وما رده الملك عليهن : « ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه » وقولهن « حاش لله ما علمنا عليه من سوء » وأخيراً تصريحه ثانية من العزيزة : « الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » .

فلولا تلبيسها أمرَه على العزيز لمن يكن لقولها الآن:«الآن حصحص الحق . . . » مجال ، وقد حصحص من قبل في مشهد النسوة إذ قطعن أيديهن ، مما يدل على أنها كادت واحتالت في تعمية الأمر على العزيز لحد صمم على سجنه ، أم إن المصلحية والتعمية هما الباعثان على ان «يسجنه حتى حين» وتراهم مَن هم غير العزيز والعزيزة؟ علّهم هما ونسوة في المدينة وسائر أصحاب البلاط ، مهما يرأسهم العزيز وترأسه العزيزة ، بدا لهم كلهم من بعد ما رأووا الآيات .

وعلّ «حين » هو حين التناسي عن جريمتها ، وحين النسيان عنه ، وحين استتباب أمر البلاط رجوعاً إلى ما كان قبل المراودة ، أم وحين ظهور الأمر بعد إخفاءه .

وكأن فاعل « بدا لهم » محذوف حيث « ليسجننه » فعل لا يصلح فاعلاً ولا مفعولاً ، فالفاعل «أمر ورأى غير ما كان » بموجبه «ليسجننه حتى

حين » سجن مؤكد في بُعدين ، محدد لا يعلم إلاّ أنه غير مؤبد ، فحتى تُحفظ سمعة البيوتات المستهترة ، وتُسمع كلمة عزيزة البلاط ، حين يعجز رجالاتها عن صيانتها ، يبدو لهم أن يُسجن فتىً بريء ، كلٍّ جريمته براءته ونزاهته ، وأنه لم يستجب نزوة الشهوة للعزيزة ، أن لو كان يستجيب لكان أعز من العزيز !

وهذه شيمة شنيعة في الأوساط الارستقراطية والجاهلية ، تعامياً عن فضائل الكرامات وفواضل الصفات، إستأصالاً لها وتأصيلاً للشهوات والمصلحيات ، فإلى حلقة رابعة من حلقات البليات لصاحب الشيم الكريمة والقيم العالية :

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(٣٦)﴾(١) .

---

(١) في تكوين التورات الاصحاح ٣٩ يقول : «فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أنَّ غضبه حمي فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان اسرى الملك محبوسين فيه وكان هناك في بيت السجن ، ولكن الرب كان مع يوسف وبسط اليه لطفاً وجعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن فدفع رئيس السجن الى يد يوسف جميع الاسرى الذين في بيت السجن وكل ما كانوا يعلمون هناك كان هو العامل ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئاً البتة مما في يده لأن الرب كان معه ومهما صنع كان الرب ينجحه،ثم في الاصحاح ٤١ ، تسوق قصة صاحبي السجن ورؤ ياهما ورؤ يا فرعون مصر وملخصه : انهما كانا رئيس سقاة فرعون ورئيس الخبازين اذنباه فحبسهما فرعون في سجن رئيس الشرطة عند يوسف فرأى رئيس السقاة في منامه انه يعصر خمراً والآخر أن الطير تأكل من طعام حمله على رأسه فاستفتيا يوسف فعبر رؤ يا الأول برجوعه الى سقي فرعون شغله السابق والثاني بصلبه واكل الطير من لحمه وسأل الساقي ان يذكره عند فرعون لعله يخرج من السجن لكن الشيطان انساه ذلك . . .

«فتيان» هما عبيدان من خدم البلاط كما تلمح له «فيسقي ربه خمراً» فأحدهما ساقيه، والآخر خبازه، ويا لها من معية بارعة تخلق ظرفاً صالحاً لتخلُّص يوسف من السجن، وقد يحصر السياق أمره معهما دون أن يحصره ولأن أمرهما هو الأساس في تبرزه في تأويل رؤياهما، وهما اللذان رأياه من المحسنين تفرساً فارساً مارساً من عشرته قلّت أم كثرت. فأهل الفراسة يتفرسون الإحسان وسواه في صفحات الوجه وفلتات اللسان ووجنات الأركان.

وعلّ «قال» دون عطف، تلمح إلى وصل القول بالدخول دون فصل، أم فصلاً بليل او قدر من النوم يصلح لرؤياهما، ولأن فصله كان قريباً وفي نفس الوقت غريباً لـ «إنا نراك من المحسنين» إحساناً جعله موضع ثقة المساجين، متوسمين فيه من طيبة،وصلاحاً وإصلاحاً.

ولماذا «اراني» هنا دون «رأيت» كما في رؤيا يوسف؟ كأن فاعله المنام،فهو الذي أراني دون اليقظة، أراني ما كنت فاعله للملك وشاغله وأنا الآن في سجنه «اراني اعصر خمراً» إراءة لهذه الحالة.

و«اعصر خمراً» والخمر لا تُعصر وإنما يُعصر لها العنب، هذا تعبير رائع هائج عن عصر عصير كثير وكما: خبزت خبزاً وطبخت آجراً، اعتباراً بالمآل، عطفاً له على الحال، وكأن المآل حالٌ قضيةَ تأكد الأشتغال.

الفتيان يذكران رؤياهما، راغبين تأويلها حقاً «إنا نراك من المحسنين» والمحسن يرى بشفافية روحه ما لا يراه المسيء، ويحسن إلى سجين مثله ما لا يُرجى من المسيئين.

وهل يبتدر يوسف بالتأويل، عجالة في إحسانه دنيوياً قبل إحسانه إليهما روحياً وأخروياً؟ كلّا، فعلى رجالات الحق انتهاز الفُرص للدعوة إلى الحق، وكونه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة، وإصلاح

الأوضاع الكاسدة ، التي تقوم على حق الربوبية لآلهة الأرض ، وإبطالها لإلـه السماوات والأرض !

فهل يبدأ يوسف بدعوته تعامياً عما يتطلبان ؟ وفيه إبعاد عن الحق لأنه خلاف غايتهما القصوى ! والسياسة الصالحة هنا في الدعوة تتطلب تقديم رجاءٍ واطمئنان لهما أنه سوف يقضي طلبتهما ، وهنا جوٌ صالح بين الأمرين لكي يبين سبب كونه من المحسنين ليجذبهم إحسانه كما هو .

ولكي يُطَمئنهما أكثر مما يربان ، يبين موقفه من تأويل ، أنه ليس فقط للرؤيّ ، بل وله علم تأويل الطعام :

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَالِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾(٣٧) .

وهكذا يدخل يوسف في نفوس صاحبي السجن بكل سياسة وكياسة في تنقُّل الحديث ، حيث يؤكد لنفسه عليهما من العلم اللدني أكثر مما يربان حيث «قال لا يأتيكما طعام ترزقانه» أياً كان وأيان ومن ايٍّ كان ، من السجن أو خارجه « إلاّ نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما » وذلك من إنباآت النبوات كما في المسيح (عليه السلام) «وأنبؤكم بما تأكلون وتدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين » (٣ : ٤٩) .

فحتى لا يظنا أنه خبير بتأويل الرؤيا ـ فقط ـ في ظنونٍ كسواه من المعبرين ، أم أنه ـ فقط ـ معبر الرؤيّ كذي فنٍّ مثل سائر الفنون مهما كان بعيداً عن الظنون ، ولأنه يزعج المصاحب الثاني تأويلاً لرؤياه بصلبه، هذه كلها وحكمٍ أمثالها أخذ يبين موقفه من العلم الرسالي.ومن هوامشه تأويل الرؤيّ ، لكي يقع تأويله موقعه من القبول ، وعلّ الذي يصلب يؤمن

بذلك قبل صلبه فلا يموت مشركاً،وحين يؤمن فلا يهمه الصلب أم يبقى حياً ، وكذا الذي ينجو يحظوا بالإيمان فلا يُعدُ ساقي ربه ، ويذكره عنده علّه ينجو من تهمته .

وعلى الجملة فداعية الحق عليه في كل مجال أن يتذرع لدعوته ذريعة ، وهي الآن تأويل رؤيا صاحبي السجن ، فلما يؤولها لهما وهما فيه بحاجة إليه مدقعة ، ولتكن الفترة بين قالتهم وتأويله مجالة مناسبة لدعوته بأدلة ببيان كيانه في العلم ، ومن هوامشه تأويل الطعام فضلاً عن الرؤيّ ، هنا يأخذ كلامه مجامع الأسماع والقلوب ، وهنا يفعل ما يشاء من الهدى مقلبُ القلوب .

فليس السجن لأصحاب الدعوات الرسالية ومَن يحملونها مِن سواهم ، إنه ليس سجناً لدعواتهم ، بل تعلو فيه نبراتها ، وتشعُّ أكثر وأكثر من خارج السجن أثراتها ، حيث السجن للأبرياء ، وحتى سواهم ، هو جو الإنقطاع إلى الله عن كل ما سوى الله .

فعبثاً يفكر الطغات ويحاولون ان سجن الابدان للدعات هو سجن للدعوات !

وهنالك ليوسف مربع من الإنباآت الغيبية ، [1]تأويل كل طعام قبل أن يأتيهما في مثلث الزمان[2]: اين مصدره وأنى ، [3]وكيف هو لمّا يأتي وماذا اثره؟، [4] وما يؤول اليه بالمآل، حيث التأويل هو المرجع بداية او نهاية ام في الحال ، فأنا أنبئكم ما سيأتيكم من طعام قبل إتيانه ، وماذا أثره، هل يضر او ينفع ، هل هو سم(1) قاتل يقطع ام غذاء ينفع ،

---

(1) الدر المنثور ٤ : ١٩ ـ اخرج ابو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم عن ابن جريج في قوله : «لا يأتيكما طعام . . » قال : كره العبارة لهما فاجابهما بغير جوابهما ـ

فأنا ـ إذاً ـ بتأويل الرؤيا أقدر ، وقد تعني « بتأويله »ـضمن ما تعنيـ تأويل رؤياهما ، وإنما أفرد الضمير في تذكير اعتباراً بمرجعه الأصيل «طعام » وأما أن تعني الرؤيا فقط فخلاف أدب اللفظ والمعنى (١).

وذلكما العلم الواسع ليس يحصل ـ بطبيعة الحال ـ من دراسات رسمية ، بل «ذلكما » البعيد المدى ، الشاسع المحتد «مما علمني ربي » بجنب علوم أخرى تتبناها الرسالة الإلٓهية ، فهذه كآيات تدل على اختصاص صاحبها بالله ، وتلك الرسالية الأخرى هي مادة الرسالة ومبناها ومدعاها وحجرها الأساس ، نبراساً ينير الدرب على السالكين .

ولماذا هكذا علمني ربي دونكم وسائر الناس لـ «اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون » نفياً يمثل « لا إلٓه » ومن ثم إثبات يمثل « إلا الله » واتبعت ملة آبائي . . . ».

فرغم أني رُبِّيت منذ الطفولة حتى بلوغ أشدّي في جو الشرك والإلحاد ، ونوازع الشهوات والحيونات ، «اني تركت . . » وبكل إصرار وإجهار ، وكفاني موقفي من إمراة العزيز ونسوة في المدينة .

« . . تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله » وبطبيعة الحال «وهم بالآخرة هم كافرون » لا سواهم ، حيث الإيمان بالله يدفع للايمان بالآخرة ، «اني تركت . . » : فلا إلٓه : ثم «إلاّ الله » :

﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ

= ليريهما ان عنده علما وكان الملك اذا اراد قتل انسان صنع له طعاماً معلوماً فارسل به اليه . . .

(١) اما ادب اللفظ فلأن الرؤيا مؤنث والضمير مذكر ، وهي هنا اثنتان والضمير مفرد ، واما المعنى فلأن تأويل الرؤيا لا صلة له باتيان طعام يرزقانه .

بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾(٣٨).

فتلكما ملة التوحيد، وهؤلاء من دعاته الأصول، فأنا اتبعت ملة هؤلاء الأباء الأكارم نسخة طبق الأصل «وما كان لنا أن نشرك بالله من شيء..» فـ«ما كان» تضرب إلى أعماق الماضي، تثبيتاً لكيان التوحيد العريق العميق في ذواتنا، دون «أن نشرك بالله من شيء» غير الله، لا إشراكاً في الربوبية ولا في العبودية أمّا هيه من مختلف دركات الإشراك، من رياء وسمعة إلى عبادة الاوثان وبينهما عوان.

و«ذلك» العظيم العظيم «من فضل الله علينا» أن جعلنا من دعاة التوحيد ونفاة الشرك «وعلى الناس» حيث أرسل إليهم أمثالنا من المخلَصين الصامدين في التوحيد «ولكن أكثر الناس لا يشكرون» تلك النعمة العالية الغالية فـ«يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها»!

ملة ابراهيم وهي سنة التوحيد الخاص، بعيدةٌ عن إفراط أو تفريط، نائية عن تسرب الشرك بدركاته، هذه الملة هي المتَّبعة للأنبياء الإبراهيمين ولكافة المسلمين على طول الخط الرسالي، وحتى خاتم النبيين، وهو في أعلى قمم التوحيد: «قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم. ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» (٦ : ١٦١) «قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً» (٣ : ٩٥) «ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً» (٤ : ١٢٥)!

وهنا يوسف في السجن بين السجناء المشركين يقرر خطه المستقيم وصراطه القويم: «واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون» (٣٨). ثم بعد التعريف بملته يأخذ في دعوة التوحيد،

حيث الداعي الى الحق عليه أولاً ان يحققه في نفسه ويبينه :

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(٣٩) .

أيا صاحبي سجن البدن ، لماذا أنتم في سجن الروح وهو أسجن وألعن ، ألا فتحرروا من ذلك السجن اللعين ، « . . ءأرباب متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار » سؤال يهجم على أعماق الفِطَر والفِكَر والعقول ، فيهزّها هزة موقظة ، فالفطرة لا تعرف إلاّ إلهاً واحداً هو «الله الواحد القهار » والعقل الناضج الذي يتبنى الفطرة وسائر الآيات آفاقية وأنفسية ، كذلك لا تعرف إلاّ «الله الواحد القهار » والكون بوحدة تدبيره ونظامه دون تفاوت يشهد أنه «الله الواحد القهار » .

ثم وفي مواصفة «ارباب » بـ «متفرقون » ومواصفة «الله » وجاهها بـ «الواحد القهار » دليل إجمالي فيه تفاصيل الأدلة على بطلان الشرك وضرورة التوحيد .

فالأرباب المتفرقون الذين لا يملك كلّ نفسه فضلاً عن عُبّاده ، ولا يقهر شركائه فيتوحد ، وهي متقسمة الأقدار ، مختلفة المقادير ، متشاكسة فيها ، هذه المتفرقة المفرقة لا تجدي نفعاً إلاّ تبعثراً في الحياة ، وتعثراً في متطلبات الحياة ، فلا خير فيها ـ إذاً ـ إلاّ شرٌ .

وترى كيف تتأتى هنا صيغة الخير وهي أفعل تفضيل يقابلها ما فيه قليل الخير، والأرباب المتفرقون لا خير فيهم لا كثيراً ولا قليلاً ؟

الخير فيها لا يُعدّى بمِن لا يعني الأفعل ، بل مقابل الشر ، فإما الأرباب المتفرقون خير والله الواحد القهار شرّ! ام الله خير وهم أشرار

وقد يؤتى بالخير الأفعل مقابل الشر مسايرة في الحجاج، دفعاً عن

اللجاج ، وأخذاً بأقل تقدير بين الأمرين أنّ أحدهما المدّعىٰ أفضل فليترك أمامَه المفضـول مهما كان فيه فضل .

«ءأرباب متفرقون» في ربوبياتهم ، كرب العلم ورب القدرة ورب الحياة ، ورب السماء ورب الأرض ، ورب الشمس والقمر ، ورب البحار ، ورب الحسن ورب الحب ورب الامن والخصب ، وهم ـ على زعمهم ـ ملائكة الله حيث هم حَمَلة تعيُّنات ذات الله وصفاته ـ

ثم الأرباب الجن وهم ـ على زعمهم ـ مبادىء الشر ، ومن ثم أولياء الله ، وهذه الثلاث كأصول الأرباب ، وكل متفرقون في عديدهم وربوبياتهم ومربوبيهم ، تفرقـات فوق تفرقات ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور ؟ .

أهؤلاء خير «أم الله ـ الواحد ـ القهار» فـ «الله» واحد في ألوهيته الأصيلة لدى الكل وفي خالقيته «ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله» .

فمِن ثم هـو واحد في ربـوبيته ومعبـوديته ، كـوحدتـه الحقيقية في سـائر الجهات والحيثيات الذاتية والصفاتية والأفعالية .

واحدٌ في مثلث الزمان وقبله وبعده ، لم يكن عديداً ثم توحد ، كما ليس هو الآن في عدد ، وليس يتعدد ، وواحد في ذاته حيث البساطة المطلقة ، دون بُعد ولا أبعاد ، ولا حد ولا حدود ، وواحد في صفات ذاته أنها عين بعض ، وكلها عين الذات دون تعدد إلاّ في تحبير اللغات .

وعلى الجملة هو واحد في عمق الأزل والأبد والسرمد ، واحدٌ لا بعدد ولا عن عدد ولا بتأويل عدد ، ويستحيل عليه العدد ذاتاً وصفاتاً وكياناً فلن يتعدد ، وذلك قضية كونه «الواحد القهار» .

«قهار» يقهر التعدد أياً كان وأيان ، ويقهر شركاءه المخلوقون ، ويقهر كل نقص وركس ، قهاراً في كافة الحقول دون ان يُقهر بإشراك او تنقيص أو أفول ، فهو واحد في قهاريته ، قهار في واحديته «ليس كمثله شيء» .

«ارباب متفرقون» لا يقهرون شركاءهم ولا عُبّادهم «وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير» (٦ : ١٨) ! «وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة» (٦ : ٦١) .

وليسوا ليخلقوا شيئاً حتى يقهروه «قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار» (١٣ : ١٦) !

ثم يوم القيامة قهار كما هو اليوم قهار «وبرزوا لله الواحد القهار» (١٤ : ٤٨) «لمن الملك اليوم لله الواحد القهار» (٤٠ : ١٦) .

فسبحانه «سبحانه هو الله الواحد القهار» (٣١ : ٤٠) ليس في سائر الآلهة الأرباب إلّا دمار وبوار «جهنم يصلونها وبئس القرار» !

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٤٠) .

الأرباب المتفرقون التي تعبدون ، ما يملكون من الربوبية أمراً «إلّا أسماء» ليست لها مسميات ، تسميات جوفاء خواء «سميتموها أنتم وآباءكم» ما لم يأذن به الله ، ولم يسمها الله إذ «ما أنزل الله بها من سلطان» لا سلطان الدليل والبرهان ، فلا برهان من الله على ربوبيتها ، ولا سلطان العلم والقدرة ، فكيف تشركون بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، ثم عساكر البراهين آفاقية وأنفسية هي كلها سلطانه على أنه «هو الله الواحد القهار» .

فـ «إن الحكم» لربوبية سواه لو أمكنت ، وسائر الحكم «إلّا لله» ومن

حكمه المستمر طول الرسالات خلاف ما تزعمون وتشركون «أمر ألاّ تعبدو إلاّ إياه» أمر الحكم إمرةً دون ما يقابل النهي، فقد حكم ذلك الحاكم الوحيد في الكون «ألاّ تعبدوا إلاّ إياه» في كلمة مطردة «لا إله إلا الله».

و «ذلك» الأمر الحكم هو «الدين القيم» دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها: «فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» ودين ناموس الكون بوحدة النظام والتنسيق الدالة على وحدة المنظم «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» جهلاً في تقصير طال أم قصر حيث الإشراك بالله لا يقبل القصور، إلاّ تقصيراً في تجاهل أو جهالة بمختلف الدركات! فدين التوحيد هو الدين القيم، القوي القائم لإدارة شئون الأفراد والمجتمعات، دون تزعزع ولا فشل ولا عوج.

فإذ ليس وراء الأسماء التي سميتوها أنتم وآباءكم المشركون، إلاّ ادعاء هباء وخواء، فما تعبدون من دونه إلاّ أسماء وعبادة الإسم خواء وهباء، وحتى إذا كان إسم الله فضلاً عن الشركاء، فهي إذاً عبادة خاوية في بعدين هباءً على هباء.

وعبادة المعبود إن كانت لألوهيته في ذاته؟ فإنه هو الله لا سواه! وان كانت لربوبية معطاة من قبل الله؟ فما أنزل الله بها من سلطان، وحتى لو كان فكيف يُسوي في العبادة بينها وبين الله، بل تترك ـ بالمرة ـ عبادة الله، ويوحِّد الأرباب المتفرقون في عبادتهم، دون الله!: توحيد الشرك! أن يعبد الشركاء دون الله.

ثم العبادة إن كانت طاعة في مصلحيات الحياة، فالأصلح فيها عبادة الله الذي خلق الشركاء! بل هي الصالحة دون سواها، فإنهم أرباب متفرقون، قاصرون في توجيهاتهم ـ لو كانت ـ وقاصرون في ربوبياتهم

المتخيلة ، إذ تفرقت ، والحياة الوحيدة المطمئنة ليست إلّا على ضوء عبادة «الله الواحد القهار» وبيده ملكوت كل شيء وناصيته ! فـ «ذلك الدين القيم» في الحياة وبمختلف الحقول ، ولدى كل الفطر والعقول «ولكن اكثر الناس لا يعلمون» فانما «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» (٣٠ : ٧) .

فـ «الدين القيم» هو الدينونة الحقيقية لله وحده ، الخضوع له وحده ، واتباع أمره وحده ، سواء في شعيرة تعبدية أو سسياسية ، أخلاقية أو ثقافية أو إقتصادية امّا هيه من قضايا الدينونة المطلقة ، التي تحلّق على كافة الحقول الحيوية منذ الولادة حتى الممات .

ولقد رسم يوسف الصديق في هذه المجالة القليلة ، بهذه الكلمات القلة الناصحة الناصعة الجميلة ، رسم بها فيها كل معالم الدين القيم ، وكل مقوماته «لكن أكثر الناس لا يعلمون» .

فقد نرى يوسف السجين بأيدي المشركين يخطط في السجن ويرسم هندسة القضاء على حكم الفراعنة والطواغيت ، متذرعاً إليه بتعبير الرويّ ، وإلى استلام عرش الحكم «إن الحكم إلّا لله أمراً ألا تعبدوا إلّا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» :

فأخيراً يجهّل الطغمة الحاكمة والمحكوم عليهم ، تجهيلاً للمرسوم الملكي الجبار الفرعوني ، أنه اغتصاب لحكم «الله الواحد القهار» الذي هو المدار وعليه الطمأنينة والقرار .

وهنا بعدما تتم الدعوة في كل إجمال وجمال يبدء الصديق بتأويل رؤيا صاحبي السجن بكل رياحة حال واطمئنان بال حيث قال :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾(٤١) .

التأويلان ظاهران في تناسبهما مع رؤياهما، ولكن ترى ما هو موقف «قضي الأمر الذي فيه تستفتيان»؟

هل إنه يلمح بتكذيب منهما لرؤياهما؟ فكيف اصغيا لدعوته الرسالية قبل تأويلهما! وما هو الدافع لاختلاق رؤيا عند من يريانه من المحسنين! ولم يكن يدعي من ذي قبل أنني عالم بتأويل الرؤيّ حتى يجرباه امتحاناً او امتهاناً! وقوله للذي ظن انه ناج منهما اذكرني عند ربك، ثم سكوته عما يكذبه في تأويله لكذبه في رؤياه، دليل لا مرد له على صدقه في رؤياه! وكيف يلهم نبي الله تأويل الرؤيا ولا يلهم كذبها وفيه فضح الرسول ونقض الرسالة!

أو أنه ـ لأقل تقدير ـ لمحة بتكذيب الآخر رؤياه إذ هوّله ما اوّله من صَلبه؟ فكذلك الأمر! ثم ولم يكن التهويل إلّا للآخر فلماذا يجمع معه الاوّل في «تستفتيان»؟!

ومن ثم كيف يتحقق تأويل رؤيا كاذبة، فما رواية كذبه أو كذبهما إلّا كاذبة، لا تلائم الآية وساحة النبوة ولا عدل الربوبية، أن الكذب في رؤيا جزاءه الصلب!

قد يعني «قضي الامر..» القضاء على الحيرة الحاصلة للاوّل بتبشيره وللآخر بإنذاره، وعلّ الآخر أخذته الريبة في تأويله تخوفاً، والآخر أخذته تبجحاً وتنشفاً، لذلك يؤكد صدق فتواه في تأويله بقضاء الأمر ومضيّه، والأمر المستفتى فيه هو الرؤيا، وقضاءه تحقق تأويله، وهذا أولى بادب اللفظ وحق المعنى، دون تحميل على الآية ولا تأويل دون دليل!

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾(٤٢).

«وقال» يوسف بعد قضاءه أمر صاحبي السجن وإفتاءه ما أفتى «للذي ظن انه ناج منهما» أتراه هو الذي ظن فيما أفتاه وقضاه؟ والقضاء علمٌ! ولا سيما أنه من تعليم الله: «ولنعلمنه من تأويل الأحاديث»! فهل إن الله يظن كما الخلق؟ أم إن النبي يظن فيما يقضي به بالوحي؟.

أم الذي أفتى بنجاته هو الذي ظن؟ وقد يؤيده «قضي الأمر الذي فيه تستفتيان» حيث يلمح أنهما لم يصدقاه تماماً، وهو طبيعة الحال فيمن لم يؤمن بالوحي والرسالة، فإنما آمن بما قضي له ظناً إذ كان لصالحه، وهو قضاءُ رجل محسن صالح «إنا نراك من المحسنين».

وقد يعني فيما عناه ظن يوسف أيضاً، حيث العلم الظاهر هو في الحق ظن، إذ «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب» اللّهم إلاّ في أحكام الشرعة فلا محو فيها إلاّ نسخاً، فرغم أن يوسف كان يعلم بما علمه الله أنه ناج، ولكنه مما يتحمل المحو والإثبات فعلّه يُمحى او علّه يثبت، فلذلك يصح التعبير أنه ظن، ولكن أين ظن من ظن؟ ظن الناجي قصوراً لعدم الإيمان، وظن يوسف عالماً لِقمّة الإيمان، أن لله أن يمحو ما علّمه وقضاه.

«قال.. اذكرني عند ربك» لما نجوت، أذكر أنني في سجنه حيث أنسوني بتهمة المراودة «حتى حين» واذكر حالي «إنا نراك من المحسنين» وعلمي بتاويل الرويا، علّه يحتاجني فلا يجتاحني ويبقيني على تهمتي في السجن «حتى حين» وحين يعلم ربك أنني من المحسنين والعالمين بتاويل الرويّ، وأنني كما بينت من النبيين، علّه يغير رأيه: أنني من الخائنين والجاهلين ومن الناس العادين.

«فأنساه الشيطان ذكر ربه..» وترى من هذا الذي أنساه الشيطان ذكر ربه؟ هل هو يوسف الصديق؟ وهنا شهادات سبع - كما هناك - في «هم بها» على برائته، وأن الشيطان إنما أنسى الناجي منهما أن يذكره عند الملك.

١ «فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث . . » شاهد أوّل على براءته حيث الإنساء هنا مفرّع على «قال للذي . . » ولو كان الإنساء ليوسف لكان «فأنساه» مفرعاً عليه، وقلبت العبارة لتدل واضحة عليه: «أنساه الشيطان ذكر ربه فقال . . » حتى يكون قوله نتجية إنساء الشيطان، وهو الآن يعاكسه، فإنما الشيطان أنسى الناجي ذكر ربه، وبالنتيجة «فلبث في السجن بضع سنين» ما لو ذكره لم يلبث بِضعها.

٢ وشاهد ثان «وادّكر بعد أمة . . »(٤٥) بعد آيتين هنا، وبعد مضي بضع سنين، والمدّكِر هو الناجي، وليس الادكار إلاّ بعد النسيان، فليكن إنساء الشيطان له حتى «ادّكر بعد أمة» دون يوسف المظلوم الصِدِّيق الذي ظلمه العدو والصَّديق.

٣ وشاهد ثالث «وقال الملك ائتوني به فلما جاء الرسول قال إرجع الى ربك . . » فلو كان «اذكرني عند ربك» توسلاً منه إلى غير الله، ونسياناً لذكر الله، لكان يستجيب الملك فور وصول الرسول، وهذا مما يدل أن «أذكرني عند ربك» كان منه ذريعة إلى براءته عن سجن التهمة، وذلك قضية الإيمان وذكر الرب، دون نسيان لذكر الرب.

٤ وشاهد رابع «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين»(٥٢) فما قولي للناجي «اذكرني» إلاّ لهذه الغاية، ليعلم العزيز أني لم أخنه، وهم زجوني في السجن بتهمة الخيانة، وهذا من خلفيات ذكر الرب دون نسيانه، حيث المحاولة في البراءة عن الخيانة ولا سيما عن ساحة النبوه، هذه قضية قوة الإيمان دون ضعفه أو نسيان لذكر الله.

٥ وشاهد خامس أن إنساء الشيطان لذكر الرحمن من أنحس السلطان على قلوب العباد، وليس للشيطان اي سلطان على عباد الله المخلَصين كما في آيات، وفي يوسف «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا

المخلَصين »[٣٤] وإنساء الشيطان من أسوء السوء وأفحش الفحشاء، لأنه مفتاح كل سوء وفحشاء، أفيزعم مختلقو التهم على يوسف أن ربه كذب فما صرف عنه إنساء الشيطان، أو نسي أنه من عباده المخلَصِين ؟!

٦وشاهد سادس أنه لم يهم بها إذ «راى برهان ربه» ولا صبا إليهن إذ «صرف عنه كيدهن» وهذان الموقفان من أخطر مواقف الإمتحان وأزلّها للأقدام، ويوسف الصديق لا ينسى فيهما ربه، فبأحرى ألّا ينساه في السجن، وهو أحب إليه مما يدعونه إليه! فكيف يتوسل في الخروج عنه دخولاً في سجن النسيان.

٧وشاهد سابع أن التوسل إلى غير الله فيما لا يجوز، كخلفية لإنساء الشيطان هو من الشرك، وهو القائل لصاحبي السجن «ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء» وهذا هو «من شيء» ومن أشنع شيء!

وهو القائل «واتبعت ملة آبائي ابراهيم .. » وابراهيم لم يبرز حاجته لجبريل وهو على المنجنيق إلى النار حيث يقول له: أما إليك فلا، فكيف يتوسل متَّبعه في ملته بفرعون لخلاصه بوسيط فرعوني مشرك ؟!

ثم إن ذكر الله والإخلاص لله لا يستوجب ترك التوسل بالأسباب للتوصل الى ما يرضاه الله، يوسف يدخل إلى سجنه حيث أحبه فراراً عما يدعونه إليه، وَلكنه سجن بتهمة المراودة، وهي أقل المحظورين بالنسبة له، فهلّا تجب عليه محاولات متعددة مشروعة لإبعاد التهمة الملصقة به، فلو كان سجناً بلا تهمة لم يكن ليتوسل بمن توسل، اللهم إلّا لراجحة او واجبة أخرى.

ففي الحق ليست قالة الصديق للذي ظن أنه ناج: «أذكرني عند ربك» إلّا تحقيقاً لأمر الحق بحقه حفاظاً على ساحة الرسالة القدسية من تهمة الخيانة وخيانة التهمة، وكما أمر الله «وابتغوا إليه الوسيلة» وإذا كان

خروجه من السجن بهذه الذكرى الصالحة فهي وسيلة إلى الله خلاصاً له من السجن وكما قال الله «.. وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن ..»(١٠٠).

أفيحق بعد ذلك كله أن يتهم بإنساء الشيطان له ذكر ربه! أم يندّد به لماذا توسل بما توسل لبراءته؟ إن هذا إلا افك قديم وشيطنة مدروسة وهرطقة مدسوسة ضد ساحة الرسالة القدسية وان تظافرت به الروايات[1] فانها مضروبة عرض الحائط لمخالفتها كتاب الله!

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٠ اخرج بعدة طرق عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : رحم الله يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك ما لبث في السجن طول ما لبث او : لولا ان يوسف استشفع على ربه ما لبث في السجن طول ما لبث ولكن إنما عوقب باستشفاعه على ربه ، اولولم يقل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله تعالى.
وفي نور الثقلين ٢ : ٤٢٧ عن المجمع وقد روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : عجبت من اخي يوسف كيف استغاث بالمخلوق دون الخالق، وعن تفسير العياشي عن يعقوب بن شعيب عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال: قال الله ليوسف : الست حببتك الى ابيك وفضلتك على الناس بالحسن ، اولست بعثت اليك السيارة وانقذتك واخرجتك من الجب؟ او لست الذي صرفت عنك كيد النسوة؟ فما حملك على ان ترفع رغبتك او تدعو مخلوقاً دوني فالبث لما قلت في السجن بضع سنين.
اقول : ليس في شيء من هذه وتلك أن الشيطان أنساه ذكر ربه ، وإنما نكاية عليه لما توسل الى مخلوقٍ مّا، وهذا تهديم لكافة الاسباب التي يجوز التمسك بها او يجب لامر جائز او واجب ، اذاً فهي كلها من الموضوعات وضعتها الأيدي الاثيمة الاسرائيلية ، فتسربت الى احاديثنا واخذت موضعها من القبول لدى من لا يوصّلون القرآن في حجته ، وهذا غريب من الاكثرية الساحقة في كافة الحقول العلمية الاسلامية كيف يعتمدون على روايات مخالفة لكتاب الله وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً؟!.

«اذكرني عند ربك» لا يعني إلاّ مجرد ذكره عند الملك ليخرج عن التناسي المعمَّد بحقه على ذكر تهمة الخيانة المتداولة على الألسن ، دون أية وساطة بينه وبين الملك ، او التماس عفو أمّا ذا مما لا تناسب ساحة العبودية فضلاً عن سماحة الرسالة ، فإنما «اذكرني» والذكر فقط، ولو كان أمراً وراءه قال : عند الملك ، ام : عند الرب أم : عند ربنا ، ليستجيش رحمته عليه ، ولكنه «عند ربك» إعلاناً بان ربوبيته وسلطته ليست على ذلك السجين ، وانما على ربعه والذين استخفهم فاطاعوه .

وحتى إذا أرسل إليه الملك «ائتوني به» يقول لرسوله «إرجع إلى ربك» دون استجابة لدعوة الخروج ، ولا امتنان منه ، فإنما «ارجع .. فاسْله ..» ليأخذ البراءَةَ وهو في السجن ، فيكون خروجه عن سجن التهمة قبل هذا السجن الذي قال عنه : «رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه» .

«فأنساه الشيطان ذكر ربه» انشغالاً بما كان من سقاية الخمر للملك ، وتناسياً تلك الفترة الرحيمة في سجنه مع يوسف الصديق ، حيث الشيطان يحاول دوماً في إبقاء الصدِّيقين في السجن بتهمة الخيانة أمّا هيه من تهمة ،

ومن مخلفات ذلك النسيان :

«فلبث في السجن بضع سنين» والبضع فوق الثلاثة ودون العشرة ، ثم لا نرى يوسف أن يعود في التوسل ، حيث طبَّق واجبه الإيماني والرسالي وعلّ في تكراره مع السجناء الآخرين مزرئة بساحة الرسالة ، فيصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ، ولم يكن طائل السجن له في باطن أمره إلاّ لصالحه ، فعلّه لو خرج قبل بضعه لكان فيه تهدد لبُضعه من كيد امرأة العزيز ونسوة في المدينة !

أو علّه تنبيهة له أن ربه هو الذي يذكُر ناجي السجن لوقته الصالح ، دون ان يَذكُر هو بما ذكَر ، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد خارج عن ربقة عبوديته ، ولا سبب يرتبط بعبد، وذلك من اصطفائه وإكرامه !

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ
بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ
وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ
لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا
وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾
يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ
أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ
سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا

مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ
يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي
مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾
وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ
إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ
إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ
يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ
قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ
عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ
أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾
* وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا
مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ

﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

مضت السنون البضع ، سبعاً أو زاد ولم يذّكر الذي ظن أنه ناج أن يذكر الصديق عند ربه ، وهذه طبيعة الحال للناس النسناس على أية حال ، إلّا ان يحظو حظوة مادية من هذه الذكريات .

لقد كان يوسف بأيدي اخوته ضَحِيَّة الحقد الماكن في قلوبهم فجعلوه في غيابت الجب ، وبأيدي السيارة متاعاً يُشرى وبثمن بخس ، وعند العزيز «عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً» وللعزيزة شغفاً في متعة الجنس ، وللسجينين معبراً للرءْيا ، ثم الذي نجا لا يذّكر أمره إلّا بعد بضع من السنين يحتاجه لمرة أخرى معبراً لرؤيا الملك علّه يزداد عنده شأناً ومزيداً !

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ(٤٣)﴾ .

أترى « الملك » هنا ـ وللتالي تتمة القصص ـ هو العزيز ؟ كأنه لا ، فإن

مختلف التعبير بمختلف الأفعال تعبير عن مختلف الفواعل ، فلو كان هو العزيز لقال «وقال العزيز» أم قال في قصة المراودة «إمراة الملك» ! ثم «امرأة العزيز» في قصة الملك دون امراة الملك ، ولمّا يستخلص يوسف لنفسه يصبح هو العزيز «يا ايها العزيز مسنا وأهلنا الضر» هذان يؤيدانه ، وأن العزيز هو الشخصية الثانية في المملكة وقد عزل أومات أو قتل فأصبح الصديق هو العزيز .

وقد تلوح «إني أرى» بتكرر الرؤيا ، حيث المضارعة في بيان الرؤيا الماضية تلمح إلى المداومة ، والسمان جمع السمينة كما العجاف للعجفاء الهزيلة ، أرى سَبعَيْن مختلفين في السمن والهزال ،ومن العجاب أن العجاف يأكلن السمان ، وأرى سبع سنبلات خضر وسبعاً أخر منها يابسات .

«يا ايها الملأ افتوني في رؤياي» من الفتوى والفتيا وهو الجواب عن حكم المعنى ، والجواب عن نفس المعنى.

فليس من الفُتيا ، و«تعبرون» هو العبور عن المعنى الظاهر إلى حكم الباطن ، كما العبارة عبور عن اللفظ الى معناه،فتأويل الرؤيا هو العبور إلى حقيقتها المعنية منها.

ولحد الآن في ذلك القصص تمر بنا رؤيً ثلاث ، من يوسف وصاحبي السجن والملك ، والإهتمام بها وتأويلها يعطينا صورة من جو العصر آنذاك في مصر وخارجها ، فالهبة اللدنية المؤتاة ليوسف من علم تأويل الرؤيا كانت تناسب جو العصر وروحه ، حيث يحتاجه المؤمن وسواه سواء .

يطلب الملك- في اضطراب بال وسوء حال مما يراه - إلى الملأ من الكهنة والحاشية الملكية ، وهم يحيدون عن تأويلها جهلاً او تجاهلاً على طريقة

رجال الحاشية في إخفاء ما يسوءه وإظهار ما يسره واختلاق الجو المساعد لهواه .

و «إن كنتم للرؤيا تعبرون» يعبِّر عن تهديده لهم ليفكروا جيداً حتى يعبروا ، ولكنهم رغم اضطراب الملك وتهديده :

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾(٤٤) وهذه أحسن عبارة وأبلغ استعارة عما يعنون في حيدهم وميدهم ، فالأضغاث هي الخلائط من الحشيش المضموم بعضها إلى بعض ، كالحزمة وما يجري مجراها ، يُشبَّه هنا اختلاط الأحلام ، وما يمر به الإنسان من مكروه ومحبوب والمساءة والسرور ، باختلاط الحشيش المجموع من أخياف عدة وأصناف متعددة .

فأضغاث من أحلام ، يخلط بعضها ببعض ، دون رباط ظاهر ، ليس لها تأويل ، وكما الأحلام ليس لها تأويل ، «وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» لأنها أحلام تُستجرُّ من اليقظة إلى المنام ، فليست - إذاً - لتكشف عن حقيقةٍ وراءها سوى نفسها ، أم وحتى إذا كانت لها حقائق فـ «ما نحن بتأويل الأحلام بعالين» فضلاً عن أضغاثها وهي ظلمات بعضها فوق بعض !

وتراهم كيف يتجرئون على التعبير عن رؤيا الملك بـ «أضغاث أحلام» وفيه حطٌّ من ساحته ومسٌّ من كرامته؟ علّه للحفاظ على اطمئنان خاطره ألّا يشوِّش بما يرى ، وإعذارهم أنفسهم ألّا يتسائلهم كيف لا تعبرون ما أرى «إن كنتم للرؤيا تعبرون» وقضية الحفاظ على الأمرين هي إبعاد الرؤيا عن كونها ذات حقيقة ، فسواء أكانوا يعلمون تأويلها أم يجهلون فصيانة الموقف تقتضي ما قضوه .

واللوحة الظاهرة من هذه المنامة في نظرة سطحية هي استيلاء الضعيف على القوي ، وذلك يهدد السلطة الفرعونية بالزوال ، ولو كانوا يعلمون ما أوّله

يوسف لكانوا يتسابقون في تأويله حظوة عند اللمك كما حظى الصديق ، ولكنهم علموا ظاهراً منه سطحياً فهابوا الملك أن يؤلوه بما علموا و «قالوا أضغاث أحلام . . »!.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾(٤٥) .

«الذي نجا منها » هنا هو «الذي ظن أنه ناج منهما » هناك ، حيث قال له يوسف «أذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين» وهو الآن «إدَّكر » ما ذُكّر قبل «بعد أمة » منه، ولأن له حظوة ومنزلةً في تأويله . . «قال » بكل جرأة وطمأنينة «أنا أنبأكم بتاويله » تجهيلاً للملأ ، وتثبيتاً أن ما راه الملك ليس من «أضغاث أحلام » وحتى لو كان منها فان له تأويلاً يعرفه أهله « فأرسلون » أيها الملأ ، دون « فـأرسلني » إذ لم يكن هو من الملأ المخاطبين المطلوبين ، فهو ساقي الملك وأنّى له أن يكون من الكهنة ورجال الحاشية .

وإنما يجرئه على ذلك رغم الملأ ، حيث جرب يوسف من قبل فوجده عليماً بتأويل الرويّ صادقاً في الحق وحقاً في الصدق ، وعلّه استفاد من يوسف ـ لأقل تقدير ـ ان لكل رؤيا تأويلاً مهما كان من اضغاث احلام ، وإلاّ فكيف يورط نفسه فيماورّط واهل التأويل يقولون ان ليس لها تأويل ؟!

«انا انبئكم بتاويله فارسلون » والنبأ خبر ذو فائدة عظيمة ، وهو عليّ فيما ترسلونِ ، وبطبيعة الحال أرسَلوه وبأمر الملك وتأكيده .

وقد تلمح «وادكر بعد امة » انه ذكر الصديق بفضله وعلمه بتأويل الرؤيا عند ربه ، وانه الذي اوّل رؤياهما فكان كما كان ، إذاً فمن ذا الذي يجرء عند الملك ان يعارك الساقي : ما أنت والإنباء بما جهلنا ، او ما ليس له تأويل؟ «انا انبئكم . . فارسلون » فارسلوه الى الصديق فاخذ يتلطف

معه في هذه المواجهة وبعد امة من السنين :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٤٦) .

هنا «لعلهم يعلمون» تصريحة منه ان الملأ كانوا يجهلون حق التأويل ، مهما كانوا يعلمون ظاهراً منه يعرفه كل احد ، أن هناك حادثة أليمة في أركان الملك تعم الرعية ، وفي ذلك فضْحُهم أن رؤياه أضغاث أحلام ، بل أنتم الأضغاث وأنتم الأحلام ، وليس الملك ليرى أضغاث أحلام !.. ثم ومما «لعلهم يعلمون» هو فضله وبراءته إذ سجنوه على جهالة مدروسةمن الحاشية الملكية ، وبعكس ذلك خيانة امرأة العزيز والحاشية التي زجته في السجن .

فـ «أيهاالصديق» في البداية ، ثم «لعلهم يعلمون» في النهاية تأكيد وتشجيع كيلا يتمنّع يوسف من تأويلٍ نكايةً عليه ، لماذا لم تذكرني عند ربك طول هذه الأمة فلبثت في السجن بضع سنين ؟ ولكنه لم يلفظ بشطر كلمة حول القضية ، مما يدل على نُبُوّة مقامه وبراءته عما افتري عليه من نسيانه هو ذكر ربه ، والتنديد عليه لماذا توسلت إلى عبد ؟!، ولا شرط أن يخرجوه حتى يفتي في رؤ يا الملك خلاف ما يروى بشأن الرسول(١) (صلى الله

---

(١) في نور الثقلين ٣ : ٤٣١ عن المجمع وروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال: لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما اخبرتهم حتى اشترط ان يخرجوني، ورواه مثله العياشي في تفسيره عن ابان عن محمد بن مسلم عنهما قالا:إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: ... اقول وليضرب عرض الحائط لمخالفته نص القرآن في يوسف فالرسول (صلى الله عليه وسلم) أحرى!.

عليه وآله وسلم) وهو أحرى من يوسف،وتراه إذا كان على علم من علم يوسف تأويل هذه الرؤيا كسائر الرُّئي فلماذا «لعلي أرجع .. لعلهم يعلمون »؟ علّه لانه ليس على علم برجوعه ، فقد يموت في الطريق او تقتله الحاشية قبل وصوله ، وحتى اذا وصل فعلّهم لا يقبلون تأويله ، او برائته ، ولا سيّما خيانة امراة العزيز ونفس الحاشية .

ولأن المرجو هنا عظيم عظيم فقد يقاوم ما علّه ينقم منه : لماذا حرّج موقف الحاشية ، لا سيما وأن الملك بجنبه ولو لم يأت بشيء إذ تكفيه محاولة لتأويل رؤياه !

وهنا نراه بعد ما يسمع الرؤيا يفتي للساقي ودون تمهل ولا شكاة ولا تطلّب نجاة بتوسل ثان :

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ(٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ(٤٨)﴾.

أتراه أفتى ـ فقط ـ تأويلاً لرؤيا الملك؟ كلّا ! حيث حكم على ضوء تأويله بما حكم ، صادراً عن مصدر القيادة العليا وهو في السجن بتهمة الخيانة ، وهذه هي الفتوى الكاملة ، وقد كان المستفتي ليكتفي بالبند الاوّل فإنه ـ فقط ـ تأويل رؤيا ، ولكنه يزيده حكماً صالحاً لفتواه ، ليأخذ بذلك أزمة قلوب الملك والحاشية «لعلهم يعلمون » .

ولأنها رؤيا الملك يأخذ «سبع بقرات سمان وسبع سنبلات خضر »مثالاً عن الحالة الإقتصادية الخصبة في جميع أنحاء المملكة ، حيث البقرة تمثل وافر النعمة ، وهي في رؤيا من يملك أمر الرعية ، النعمة العامة الشاملة ، ثم «سبع عجاف وسبعاً أخرسنبلات يابسات » مثالاً عن الحالة الشديدة الضيقة بعد الأولى .

و «دأباً» هو استمرار في الحركة الزراعية وتَعَب إذ يعنيها لغوياً فهما معنيّان هنا معاً ، وإلا لجيء بلفظه الخاص - استمراراً او تعباً - وقد يؤيد جمعها فتح عين الفعل اللامح للجريان والدوران : تزرعون سبع سنين متتالية سنةً وسنوات ، مما تنتج أخصب الزرع واكثره عِدَّة وعُدَّة .

وهذه الفتوى الأولى بحكمه ، فان «تزرعون» خبر يعنيَ الأمر ومن ثم فتوى الحكم « .. فما حصدتم فذروه في سنبلة إلاّ قليلاً مما تأكلون »(٤٧) فالكثير الذي لا يؤكل ، بل يسرف او يبذر أم يباع ، ذلك الكثير « ذروه في سنبله » حفظاً عن السوس والمؤثرات الجوية أمّا هيه ، ذخراً للسبع الشداد ، و «تأكلون» هنا ، كـ«تزرعون» أمر بصيغة الإخبار ، مما يُحتّمه أكثر من صيغته ، فعليكم في السبع الأولى الزراعة دأباً في مواصلة وتعب ، وعليكم الا تأكلوا مما حصدتم إلاّ قليلاً فيه بُلغة الحياة . .

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾(٤٨)

وإنها سبع لا زرع فيها والأكل نفس الأكل ، وهن «يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً» زائداً عن الضرورة وهو «مما تحصنون» عن الإسراف والتبذّر، عن الإلتهام والتبعثر .

إلى هنا يتم تأويل الرؤيا سبعاً بسبع ، ثم يزيد الصديق مما علمه ربه وأنباه ما ليس في الرؤيا :

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾(٤٩) .

ولكيلا تبقى لهم أية باقية من زجرة السبع الشداد يخبرهم الصديق بذلك العام المغيث ، بغيث السماء وغيث الأرض ومنه كلاءها ، ولو كان - فقط - المطر لجيء بلفظه ، والغيث المطر ليس غيثاً إلاّ لأنه يغيث وينجي

البائسين ، أم ان «يغاث» من كلا : الغيث والغوث ، فليس الغيث المطر والكلاء - فقط - بالذي يكشف الكرب ويمنع الجدب ، إذ قد يوازيه برد قارص ، ام بَرَدٌ كارث قبل نضوج الحرث ام عنده ، او ريح صرصر كارث ، او زلزال مارس ، أماذا مما قد يساعده الغيث على الكارثة المزمجرة ، والحادثة المدمرة .

فالقول ان فيضان النيل كان يكفيهم عن المطر، تقاوله السبع الشداد والنيل هي النيل ، ثم هل للنيل ان تنال بفيضاناتها كل الخيرات وتنيل، وهناك كربات وصعوبات سماوية وأرضية لا تدفع إلّا أن يغاث الناس بغوث إلٰهي ضمن فيضان وغيث ، لا سيما وان الفيضان نفسه ليس إلّا بالغيث الذي يمده من مجاريه عن بلاده .

«فيه يغاث الناس» غيثاً وغوثاً «وفيه يعصرون» الفواكه ، مما يلمح إلى كثرتها لحد الإعصار بعد الإعسار ، فلا يعني - فقط - يعصرون الخمر ، بل ولا يعنيه فيما يعنيه ، إذ تجل ساحة النبوة ان ينبيء فيما ينبيء عما فيه شهوات النسناس بخمر تخمر الناس ، وتبغض إلٰه الناس !

فان لم يدل تأويله الرؤيا على نبوته وتسديده بالوحي ، فليدل إنباءه بـ «عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون» فليس تمام السبع الشداد مما يدل عليه ، إلّا عاماً غير شديد ، كما قبل السبع الأولى ، عام يكفي نفسه كتقدير معتاد ، وأما ان «فيه يغاث الناس وفيه يعصرون» فزيادة لا تُعلم إلّا بالوحي .

وهنا يحذف السياق ما يُعلم من المساق او هو غير ضروري في القصة ، وينتقل إلى مشهد الملك وتأثره عن تعثره في سجن الصديق ، فلنسمع الملك كيف ينهاز إلى خلاصه بكل إخلاصه والتماسه :

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ

﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (٥٠)

يا عُظماه لذلك الصديق العظيم، يطلب إليه الملك ليخرج عن السجن ويدخل عليه فلا يستجيب، وطبعاً ما كان الإتيان به إشخاصاً لاستجواب يعود بعده إلى السجن، فإنه أمر قاطع لا مرد له ولا قِبَل أمامه، وإنما هو إحضار عن عفو وإغماض، فله أن يقبل وله ألا يقبل.

هنا نرى يوسف السجين وقد طال سجنه بضع سنين لا يستعجل إجابة الملك في الخروج ، حتى يخرج قبله عن تهمة الخيانة، ويُعلن متهموه براءته من الوشايات والمكائد التي أدخلوه السجن بظِنّتها.

فلو خرج من فوره لكان خارجاً عن طوره، متهماً في توسله بالساقي، وقد تبقى عليه وصمة الخيانة أن يُظن بخروجه عفو الملك وإغماضه عما كان، بما ظهر منه الآن. ولكنه مسبوك بذلك الأدب الرائع ، والسكينة والثقة والطمأنينة في قلبه البارع، فلا يعود عجولاً ولا معجلاً، تقديماً لخروجه عن سجن الروح في تهمة الخيانة، على سجن البدن، وإن بقي فيه بضعا أخرى، ذلك يوسف ولم يكن ممن دارت عليهم الرحى، فبأحرى إمام المرسلين وخاتم النبيين وافضل الخلق اجمعين محمد (ص) لو كان مكانه لكان أمتن منه وأمكن خلاف ما اختلق على ساحته من روايات[1] كما على أخيه الصديق!

(١) كما في الدر المنثور ٤ : ٢٣ عن ابي هريرة قال تلا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الآية: «فلما جاءه الرسول ...» فقال: لو كنت انا لاسرعت الاجابة وما ابتغيت العذر! وفي اخرى عنه انه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: يرحم الله يوسف ان كان لذا اناة لو كنت انا المحبوس ثم ارسل الي لخرجت سريعاً، وعن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): عجبت بصبر أخي يوسف وكرمه والله يغفر له حيث ارسل اليه ليستفتي في الرؤيا وان كنت انا لم افعل حتى »

وأيا كان رسول الملك ، أهو الساقي الناجي وعله أنسب لكونه أرفق وبصاحبه أليق ؟ أم هو رسول تنفيذي يكلّف بمثل هذا الشأن ، لمكان قوله « ائتوني به » دون «آتني به» فبطبيعة الحال ليس هذا الرسول إلا عظيماً من الحاشية يليق بهذه الرسالة ، لا نعرفه من هو ؟ ولا فائدة في أن نعرفه .

« فلما جاءه الرسول» وعرفه رسالته « قال ارجع إلى ربك » لا « الملك » ولا « الرب » او « ربنا » كما يقوله السجناء بُغيةَ الخلاص ، وإنما « إلى ربك » ثم « فاسئله » كأنه من قبلك نفسك ، لاعني ، ولأنه لا يجرء الساقي وأضرابه على سئوال الملك من نفسه ، اللهم الآ رسول خاص له اختصاص بالسُّدة العليا ، يتأيد أنه غير الساقي . « فاسئله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن » .

فانظر إلى ذلك السجين كيف يستجوب الملك والنسوة في مسألة واحدة ، بكل حائطة واحتشام ، حيث لا يذكر مراودة امراة العزيز ، فإنما النسوة والنسوة فحسب ، إذ كان أمرهن واضحاً في المملكة وضَحَ النهار ، وأمرها يظهر ضمن أمرهن كما ظهر ، فبالهن وخطبهن ذريعة إلى خطبها وبالها ، وهو لم يذكرها بسوء ولا إياهن إلاّ قدر الضرورة التي هي مفتاح براءته : «إن ربي بكيدهن عليم » ولسوف تعلمون في ذلك الإستجواب وعلّ من كيدهن أنهن لما يئسن عن مراودتها ألقين حبل التهمة الوقحة على عاتقه ، في وشاية دائبة وجناية صارحة سارحة ، لحد شككن الملك والعزيز في أمره ! .

= اخرج ، وعجبت من صبره وكرمه والله يغفر له اني ليخرج فلم يخرج حتى اخبرهم بعذره ولو كنت انا لبادرت الباب ولكنه احب ان يكون له العذر ! وعن الحسن عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : رحم الله اخي يوسف لو انا اتاني الرسول بعد طول الحبس لاسرعت الاجابة حين قال : ارجع الى ربك ، فاسأله ما بال النسوة !

والبال هو الأمر العظيم والشأن الخطير، وهو للنسوة هنا أخطر من أيديهن واعظم حيث نسينها لبالهن، وليس إلاّ الشغف الهالك الحالك في حبه، لحد أنساهن أنفسهن فقطعن أيديهن، مكان الأكل والفاكهة التي بأيديهن.

فلما يُعرف ذلك البال يُعرف واقع الحال منهن ومن امراة العزيز وكفاه ذلك السؤال ظهوراً لبراءته في الحال وبكل استعجال.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾(٥١).

والخطب هو جلل الأمر ومصابه، فالصديق يتغاضى عن مراودتهن احتشاماً حتى يصرح بها ويخطبهن الملك، ويصرحن ببراءته، مما يدل على أنه كان يعلمها من ذي قبل، او استقصى قبل إحضارهن فعلمها، وهذه قضية الحال في كل استجواب ولا سيما بالنسبة للعظماء، ليكون المستجوب للحال على بينة من الأمر، والظروف المحيطة به قبل الخوض والإنغمار فيه، فهنالك يواجه النسوة على بينة من واقع المراودة وخطبهن فيها: «ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه»؟ أهو الذي أوقعكن في خطبكن ومراودته أم أنتن من أنفسكن؟

«قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء» لا سوء المراودة، ولا سوء النظرة «ما علمنا عليه» امرٌ يعلوه او يظهر فيه «من سوء» إلاّ حسناً وجمالاً «ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملك كريم»! حقيقةً ليست لتُنكر او تُستر ولو من مثل هؤلاء النسوة المترفات المتجبرات الارستقراطيات اللاتي لا يحنّ إلى معروف ولا يقررن بمنكر فعلن.

وهنا لا تملك المراودة الأولى، الخائنة الأولى، لا تملك نفسها في جو

المصارحة بين النسوة ان تختصه بالتهمة فتتقدم النسوةَ في مصارحة المراودة «قالت امراة العزيز الآن حصحص الحق» ظهوراً لا يحتمل أي خفاء ولا يتحمل، مهما نحمله من ذي قبل بما حمّلناه «أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين»(*١) شهادة ناصعة دون أية ريبة ولا شائبة، يقال حصحص البعير في بروكه إذا تمكن واستقر في الأرض، وكأن اشتقاقه من الحِصة حيث بانت حصة الحق عن حصة الباطل بكل تمكن واستقرار، ولا تبالي الشاهدة هنا أن تشهد له على نفسها، مستهينة ما وراءها مما يلم بها نفسها، ومن ناحية أخرى هي طبيعة الحال في الأوساط النسائية في المترفين، لحد قد يتفاخرن بتلك المراودات إذا كان المراوَد معترَفاً بلياقته وصلوحه للمراودة، حيث التحلل والتميّع وحيونة السعار الجنسي المرتدي ثياب الارستقراطية، هنا مقاييس في الحياة غير ما للشعوب المحطّمة المظلومة.

ولقد تمت هنا الشهادة من الملك والنسوة وامراة العزيز على براءة الصديق ويراعته، وقد شهد العزيز في أول وهلة: «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم» فهل كان هنا غائباً عن المشهد أم ميتاً ولذلك لم يشهد، أما ذا؟ القدر المعلوم انقطاع خبره منذ الوهلة حتى آخر القصة وقد كانت في شهادته الأولى كفاية، إضافة إلى شاهد من أهلها وشهادة القميص أمن ذا ممن قد مضى؟ والتوراة على تحرّفها شاهدة لصدقه مهما اختلف التعبير أو تهافت في بعض المواضيع(١).

---

(١) فالى تتمة الاصحاح ٤١ من سفر التكوين الذي اوردناه من ذي قبل... وسأل الساقي ان يذكره عند فرعون لعله يخرج من السجن لكن الشيطان انساه ذلك «اقول: «لكن» هنا يؤيد ما أيدناه بالادلة السبعة «ثم بعد سنتين رأى فرعون في منامه سبع بقرات سمان حسنة المنظر خرجت من نهر وسبع بقرات مهزولة قبيحة المنظر =

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ(٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ(٥٣)﴾ .

اترى من هو القائل «ليعلم .. وما أبرى نفسي » ؟ هل هي امراة العزيز؟ فمن هو الذي لم تخنه ؟ أهو العزيز وقد خانته في مراودات

= وقفت على الشاطىء فاكلت المهازيل السمان فاستيقظ فرعون ثم نام فراى سبع سنابل خضر حسنة سمينة وسبع سنابل رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها فاكلت الرقيقة السمينة فهال فرعون ذلك وجمع سحرة مصر وحكماءها وقص عليهم رؤياه فعجزوا عن تعبيره وعند ذلك اذكررئيس السقاة يوسف فذكره لفرعون وذكره ما شاهده من عجيب تعبيره للمنام فامر فرعون باحضاره فلما ادخل عليه كلمه واستفتاه فيما رآه في منامه مرة بعد اخرى فقال يوسف لفرعون حلم فرعون واحد قد اخبر الله فرعون بما هو صانع : البقرات السبع الحسنة في سبع سنين وسنابل سبع الحسنة في سبع سنين هو حلم واحد ، والبقرات السبع الرقيقة القبيحة التي طلعت وارءها هي سبع سنين والسنابل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية يكون سبع سنين جوعاً .

هو الامر الذي كلمت به فرعون قد اظهر الله لفرعون ما هو صانع هوذا سبع سنين قادمة شبعاً عظيماً في كل ارض مصر ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً فينسى كل السبع في ارض مصر ويتلف الجوع الأرض ولا يعرف السبع في الارض من اجل ذلك الجوع بعده لانه يكون شديداً جداً ، واما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلان الامر مقرر من عند الله والله مسرع لصنعه

فالآن لينظر فرعون رجلاً بصيراً وحكيماً ويجعله على ارض مصر يفعل فرعون فيوكل نظاراً على الأرض ، ويأخذ خمس غله ارض مصر في سبع سنين الشبع فيجمعون جميع طعام هذه السنين الجيدة القادمة ويخزنون قمحاً تحت يد فرعون طعاماً في المدن ويحفظونه فيكون الطعام ذخيرة للارض لسبع سني الجوع التي تكون في ارض مصر فلا تنقرض الأرض بالجوع . . .

واهتمامات بالغيب وكما صرحت بصدق الصديق في خيانتها وبراءته ! أم هو يوسف ؟ وقد خانته في الحضور والغيب ، حيث احتالت عليه حتى ادخلته السجن بتهمة الخيانة ! ثم ولم تكن موحدة حتى تقول : «وان الله لا يهدي كيد الخائنين » او تقول «إلاّ ما رحم ربي » ثم وما برّئت نفسها إلاّ «وألفيا سيدها لدى الباب » وقد فضحت بشهادة الشاهد من أهلها ، وإنما برّئت نفس يوسف في مشهد النسوة مرتين ، فلم تكن في موقف التبرئة لنفسها حتى تنفيها عن نفسها ! ثم وماذا تعني - إذاً - من ذلك ؟ أتعني أن ذلك الإعتراف ببراءة الصديق وخيانتها ليعلم او يعلم العزيز أنها لم تخنه بالغيب؟ وهو اعتراف منها بخيانتها بالغيب! اللّهم إلاّ في ذلك الغيب الأخير بمشهد الملك وغياب يوسف ! ولم تكن امراة العزيز بالتي لا تخون يوسف وقد خانت العزيز ! ولا أن علم الصديق بعدم خيانتها إياه بالغيب يهمها لحدّ تفضح له نفسها أمام النسوة والملك أم والعزيز !.

إنها - دون ريب - من كلام يوسف إجابة عن سؤال مقدر ، لماذا لم تحضر عند الملك فور إحضاره ، وطائل السجن كان يوكد التهمة عليك فضلاً عن مزيده ؟ فيجيب ، «ذلك ليعلم» العزيز «أني لم أخنه بالغيب » فلو خرجت دون استجواب النسوة لظلت تهمة الخيانة عليّ لزاماً ، وهو استبقاء في سجن التهمة ، فسواء أخرجت أم بقيت إلاّ أن تحصل هذه الحصحصة في حقي أمام الجماهير ، فيعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب .

أتراه لم يعلم أنه لم يخنه بالغيب وهو القائل لدى الباب بعد شاهد من أهلها «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » ؟

أجل إنه أخذ يعلم ولكنها بدلته من بعد علم جهلاً ، كما هددت الصديق مراراً وتكراراً «ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » وهكذا يأخذ مكائد النساء بأزمة قلوب الرجال ، فقد فعلت

وافتعلت حتى دفعته أن يسجنه بتهمة الخيانة ، وظل بضعه في سجنه في ظل هذه التهمة الوقحة ، فكيف يخرج دون ان يقضي عليها ؟.

أجل لقد كان لزاماً على يوسف قوله «للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك» تذرعاً إلى رفع التهمة ، ولزاماً عليه إلاّ يخرج بطلب الملك إلاّ بعد زوال التهمة ، و«ذلك» القول وعدم الخروج إلاّ ببرائته «ليعلم» العزيز ومعه مَن معه مِن المَلِك وسواه «أني لم أخنه» في قصة المراودة «بالغيب» اذ كان غائباً .

«وليعلم» على علمه «أن الله لا يهدي كيد الخائنين» كإمرأته ونسوة في المدينة ، ومعهن العزيز والملك في خيانتهم المكرَّسة وشيطنتهم المدروسة ، فلو أنني كنت من الخائنين ، والجهاز الفرعوني مصرٌّ على أنني خائن فكيف اهتديت إلى برائتي بشهادتهم هؤلاء أنفسهم؟ ثم «وان الله لا يهدي كيد الخائنين» ضابطة تضرب إلى مثلث الزمان ومختلف الكائن والمكان ، وقد أقام الله تعالى فيها كيد الخائنين مقام الخابط في طريق ليصل الى مضرة المكيدة وهو عنه غافل ، فأعلمنا سبحانه انه لا يهديه حيث لا يوفقه لإصابة الغرض ، ولا يسدده لبلوغ المقصد ، بل يدعه يتخبط في ضلاله ويتسكع في متاهه ، حيث يسري في معصية الله فلا يستحق ان يهدى لرشد او يتسدد لقصد .

ولانهم كانوا خَوَنة بحقي بكل المكائد الفرعونية ، نسائية ورجالية ، لم يكن الله ليهدي كيدهم إلى بغيتهم : دراسة متينة ونصيحة مكينة من الصديق السجين لرجال البلاط ونساءه ولمّا يخلص من السجن !

ولأن «اني لم اخنه بالغيب» تلمح كأنه بحوله ـ فقط ـ وقوته ترك تلك الخيانة فلم يَصبُ إليهن ، يثنّيها بما يزيل غشاوة الإيهام والإبهام بقوله : «وما ابّرىء نفسي» عن الخيانة وهمها لـ«إن النفس لأمارة بالسوء» نفسي

وسواها « إلّا ما رحم ربي » وقد رحمني بما أراني برهانه:« وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » وصرف عني كيدهن:« وإلا تصرف عني كيدهن أَصْبُ اليهن وأكن من الجاهلين » «إن ربي غفور رحيم » يغفر برحمته ويستر زلات المخلِصين والمخَلصين ، فلولا غفره بما أراه برهانه وصرف عنه كيدهن لهمَّ بها وصبا إليهن وكان من الجاهلين ، وذلك غفر قبل حلول العصيان ، وهكذا كلُّ غفرٍ للمعصومين ، كما هنالك غفر بعد حلوله كما لغير المعصومين .

فإذا كان يوسف الصديق لا يبرىء نفسه وهو من المخلَصين ، فيربط برائته برحمة ربه ، فبأحرى لمن دونه من الصالحين ، فلولا رحمة الرب لكنا من المهلَكين «ولولا نعمة ربي لكنت من المحضَرين » (٣٧ : ٥٧) !

فـ «النفس » هنا هي الشهوانية وهي بطبعها «أمارة بالسوء» إلّا برادع من نفس مؤمنة مطمئنة بالله ، تكرّس كافة طاقاتها سياجاً صارماً على أمر السوء وفعله ، مستعينة بالله وحتى النفس المعصومة ، حيث العصمة الإلٓهية وتثبيته يحولان بين النفس وشهواتها «ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » .

وصحيح أن النفس لا يصح ان تأمر بسوء ، فإنما تشتهي السوء ، ولكن الإنسان لما كان بطبعه يتبع دواعيها إلى الشهوات ، وينقاد بأزمتها إلى المقبحات كانت بمنزلة الآمر المطاع ، والإنسان بمنزلة السامع المطيع ، والمبالغة في « لأمارة » مؤكدة باللام تحاكي صفتها بكثرة الدفع إلى المهاوي والقود إلى المغاوي .

ثم وهذه الأمارة بالسوء ـ بطبيعة الحال ـ تتدرج على ضوء المحاولة البشرية والرحمة الإلٓهية من أسفل سافلين إلى أعلى عليين ، إلى لوّامة بدرجاتها ، ومن ثم مطمئنة بدرجاتها ، مخلِصة لا تخلو من أخطاءِ اللمم ،

ثم مخلَصة معصومة بعصمة إلهية ، وهذه رحمة خاصة تخص المخلَصين، وقبلها عامة تعم المخلِصين ، ويوسف من الاوّلين « انه من عبادنا المخلَصين » والرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هو إمام المخلَصين «قل إن كان للرحمن ولد فانا أوّل العابدين » لحد يقول عن نفسه «شيطاني أسلم بيدي ـ جزناها وهي خامدة » .

فـ« إلّاما رحم ربي » إستثناء متصل يعني إلّا النفس التي رحمها ربي فليست أمارة ولا آمرة بالسوء بل لوامة أو مطمئنة: « يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

وليست لنا إلّا إحدى هذه الثلاث، وهي مختلفَة حالات الروح ، واجتماعها في هذه الحالات ، ام تعددها كل بحالتها ، ذلك اجتماع الأضداد المتنافرة، أو المحالات المتهاترة .

« ونفس وما سواها . فالهمها فجورها وتقواها . قد افلح من زكاها . وقد خاب من دساها » وأمثالها هي من براهين وحدتها دون تعدد في ذواتها ، ولا اجتماع في حالاتها ! .

ثم ومع الأسى نرى هنا كما هنالك ترسم أيدي الخيانة ما يمس من كرامة الصديق وليُضرب عرض الحائط لمخالفته كتاب الله المصرح في آيات عدة ببراءة يوسف وبراعته(١) .

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٣ عن ابي صالح في الآية قال : هذا قول يوسف (عليه السلام) لم يخن العزيز في امرأته ، فقال له جبرائيل : ولا حين حللت السراويل ؟ فقال يوسف (عليه السلام) : « وما ابرّىء نفسي .. » اقول أليس حل السراويل للعزيزة بغيب العزيز خيانة ، ثم وفي القيلة المنسوبة الى جبرائيل تكذيب لقول يوسف اضافة الى تهمة الخيانة ! والصحيح ما اخرجه ابن ابي حاتم وابو الشيخ عن الحسن في الآية قال : خشي نبي الله ان يكون زكي نفسه قال : وما ابرىء نفسي الآية .

وهكذا ينتهي دور السجن لمن كرمّه الله واصطفاه ، بريئاً عن تهمة الخيانة ، جرئياً على الخَوَنة ، مما يدفع الملك أن يطلبه إليه مرة ثانية :

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾(٥٤) .

وهكذا يتجلى الإنسان في أكمله وأنقصه في قصص القرآن التي لا تقص لمجرد قَصِّ التاريخ وأداء الفن القصصي ، بل «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب » فانما تُساق لتعالج قصة العقيدة والداعية عبرةً وعظة ، في واقعة تتناسق فيها جميع المؤثرات والمؤشرات والواقعيات في نفوس بني الإنسان .

هنا يصدر الأمر الملكي مرة ثانية « ائتوني به » ولكنه في هذه المرة يستخلصه لنفسه حيث يرى إخلاصه في علمه ودرايته وأمانته : « أستخلصه لنفسي » فلو استجابه في الأولى لم يستخلصه إذ لم يعرفه بذلك الإخلاص والأمانة والرزانة ، واستخلاص الملك هو الصدارة الثانية بعده كرئاسة الوزراء امّا ذا من القمة الثانية .

إنه في هذه المرة خلاف الأولى لا يطلبه ليرى مأول الرؤيّ ، أو ليسمعه كلمة الرضا لصاحب السموّ الملكي ، وليعفو عنه ويطلق سراحه ، وإنما ليستخلصه لنفسه معتذراً إليه عما كان عليه ،ومفوضاً إليه ما سيكون .

. . هنا الملك يطلب إلى من لا يتهافت على خروجه من السجن ، ولا يتفاوت عنده السجن وخارج السجن ، إلاّ أن يخرج قبل خروجه عن تهمة الخيانة ، وإلاّ فالسجن أحب اليه من عفوه دون براءة ، كما كان أحب إليه مما يدعونه إليه .

يطلب الإنسراح عن السجن ممن اخذ يفتي برؤياه لصالح المملكة ،

ويحكم كقائد أوّل لإصلاح الحالة الاقتصادية عند توترها وتبعثرها وتعثّرها ، وهكذا يكون رجالات الحق والصدق والدعات الى الله ، لا يخضعون للأمر الواقع المفروض عليهم أياً كان ، فلا يذلون عن عزهم ، ولا يترذلون أمام السلطات الباطلة المفروضة عليهم ، ولا يحيدون عن موقفهم الرسالي ، ولا يفرق لديهم السجن وخارجه ، ولكي يبرزوا الحق كما يليق به ويحق ، دون مسّ من كرامته وكراماتهم ، ودون نكص على عقبيهم انتقاصاً لحق الدعوة والداعية .

فيا ليت رجالاً ـ ولا رجال ـ يمرغون كل كرامة على أقدام الطغات ـ بمطلق سراحهم ـ متسابقين متهافتين على نظرة رضى وكلمة ثناء ، ليتهم يعتبرون بأحسن القصص ، وليعلموا أن العزة والإباء يدرُّ عليهم أضعافاً من إدرار التمرغ والتزلُّف والإنحناء أمام ذوي السلطة والكبرياء «وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض . . . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون »(٥٧) .

« . . فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين » خلاف ما قبل اليوم لمّا طلب إليه للمرة الأولى « ائتوني به »! لستَ أنت اليوم الفتى العبراني المُشرىٰ بثمن بخس دراهم معدودة ، لعبة العزيز وامراته ، وإنما أنت «لدينا اليوم مكين » ذو مكانة عالية مرموقة ، ولا أنت المهدَّد بالسجن أو عذاب اليم ، وإنما انت «لدينا اليوم امين » ، وتراه في ملتقاه مع الملك أخذ يتملق له بقولة او فعلة كما يفعله رجال الحاشية ؟ كلا ولا في شطر كلمة ، فالنص «فلما كلمه » فالملك هو البادىء بالكلام دونه ، اللهم إلا بسلام والسلام ، وفي ذلك الكلام الملكي الهام : «إنك اليوم لدينا مكين أمين » نرى كل مراتب العزة والإكرام ، دون ألفاظ مرسومة خاوية في المواجهات العادية ، وإنما كلام مكين أمين ، حيث الملك ليس ليهاب أحداً او يماريه حتى يجاريه في كلمة خاوية المُرام .

هنا مثلث التأكيد للمكانة والأمانة ، المستفاد من حرف التأكيد وتقدم الظرفين ، يؤكد له المكانة والأمانة الخاصة المتميزة ، والسلطة الصالحة لإدارة أمور المملكة بحاجة جذرية ماسة إلى تلك المكانة والأمانة ، ولا سيما في تلك الظروف الحرجة المرجة ، وفي الحق يلمح من كلامه هذا حكم صدارته العليا بعده ،

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(٥٥) .

«إني حفيظ» لشتات الأمور ومتفرقاتها لأجمع شملها ، ولمجموعاتها عن تمزقها وشتاتها ، حفيظ للمعادلة الإقتصادية في السبعَين الرخوة والشداد ، حفيظ في كلها تحتاجه خزائن الأرض من صالح الإنماء والمصرف، فالحفيظ على الحرمات والنواميس في تلك الظروف المحرجة ، هو بأحرى حفيظ على المصالح الإقتصادية !

«إني حفيظ عليم» فمن حفيظ غير عليم ، يحاول في الحفظ ولكنه لا يعلم ، فقد يكون ما يفسده على جهله أكثر مما يصلحه كصُدفة ، ومن عليم غير حفيظ ، يعلم ويخالف علمه إلى جهالة ، أم لا يحافظ على المصلحة الجماعية ، إذ لا يلاحظ إلاّ شخصه وشخصيته وصالحه ، ولكني «حفيظ عليم» كركنين أساسيين لمن يجعل على خزائن الأرض .

وتراه لماذا يتطلب إلى الملك ذلك المنصب دون أن يصبر حتى ينصبه هو كما يراه ؟ علّه ما كان ليعلم أية مصلحة في الملك هي أصلح ليجعله عليها ؟ فهو- بعد ما يتأكد أنه لديه مكين أمين ، وبطبيعة الحال يحتاجه لأمرٍ مّا لمصلحة البلد- فهو يدله على ما هو الأصلح في تلك الظروف الصعبة الملتوية ، كمواصلة صالحة لما يريده منه المَلِك ، حيث الأزمة القادمة وسنو الرخاء التي تسبقها، هي بأمسّ الحاجة إلى الحفظ والصيانة على علم واسع ودراية ، لذلك يختار ذلك المنصب المناسب الضروري لحفظ البلد عن

التفكك ، الذي لا بديل عنه ، كما هو (عليه السلام) لذلك المنصب ، فلا يطلب إلى الملك وزارة البلاط الملكي ، ولا أية وزارة إلا وزارة الإقتصاد والتنمية والإصلاح الزراعية ، التي كانت تحلّق حينذاك على كافة الوزارات ، وفي الحق هي رئاسة الوزارات كلها حسب الظروف الراهنة !

فبالرغم من أنَّ تصدي أمر الإقتصاد في ذلك الظرف الحرج تورُّطٌ في مختلف الصعوبات ، يختاره الصديق لنفسه ، وهناك أمور أريح ، ولصالحه الشخصي أصلح ، لأنه حسب واجبه الرسالي كان حصيناً في اختيار اللحظة المرهقة ذات التبعة الضخمة ، فيكون مسئولاً عن إطعام شعب بكامله والشعوب المجاورة ، ليؤدي واجبه الرسالي عدلاً ناصعاً ناصحاً للجماهير ، وعلّه على ضوئه يجلب أنظار المحاويج إلى شرعة الله .

فليس من السهل تكلُّف ذلك العبء الثقيل ، ولأقل تقدير في أربعة عشر سنة التي قد تكلّف في مصطرع المراجعات والمنازعات رأس الرئيس وحياته ومصرعه ، المنصب الذي يحيد عن تقبله سائر الحاشية الملكية ، حيث ترجِّح الأريحية وحياة الترف والرعونة .

أفبعد ذلك كله يخلج ببال ، أن كيف يزكي الصدِّيق نفسه والله تعالى يقول : « فلا تزكوا أنفسكم » يزكي قائلاً : « إني حفيظ عليم »؟ أم كيف يطلب إلى فرعون المشرك الظالم أن يجعله على خزائن الأرض؟ ومعونة الظالمين حتى في عدلهم هي من المحرمات القطعية ؟!.

إن أمر الصديق هنا أبعد أعماقاً وأوسع آفاقاً من هذه الضوابط الناظرة إلى الناس العاديين ، فإنه يرتكن على ركن الرسالة والدعوة إلى الله ، ولا بد للرسول ان يزكي نفسه بما زكّاه الله تعالى لتحل رسالته محلها من القلوب ، وإنما التزكية المحرمة هي للنفوس غير المزكّاة ، أو التي تأخذها بتزكيتها رعونات وطنطنات ، دون النفوس المطمئنة بالله التي زكاها الله بما

رحمها « إن النفس لامارة بالسوء إلّا ما رحم ربي » أوَ ليست النفس المرحومة بالله مزكاة !.

ولان زكاة النفس من نعمة الرب فلا بد لصاحبها أن يحدث بها «وأما بنعمة ربك فحدث » لا سيما في مقامات الضرورة لإظهار الحق والدعوة إليه وتطبيقه ، دون التظاهر بالحق وأنت مبطل أو معجب : «ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً » (٤ : ٤٩) «فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » (٥٢ : ٣٢) . وقد زكى الله نفس الصديق وهو أعلم به وهو يريد مكانته وتمكُّنه في الأرض : «وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض . . »[١] .

ومن ثم ليس طلبه إلى المَلِك أن يجعله على خزائن الارض إلّا ليعدل حسب الشرعة الآلهية فيمن لا يقرون بحق الله وشرعته ، وإزالة الظلم ثم تقليله من المفروض على عواتق الدعاة إلى الله ! وليجد ظرفاً صالحاً للدعوة الرسالية وذلك من أهم الظروف الواسعة والمجالات الفاسحة .

ثم الضرورات تبيح المحظورات ، فحتى لو كانت قيادة خزائن الأرض والرئاسة عليها في الملكية الفرعونية محظورة للصديق ، لكانت أقل المحظورين حيث الضرورة الرسالية تفرضها .

وقد قبل الإمام الرضا (عليه السلام) ولاية عهد المأمون لنفس الضرورة وأحرى ، فلما يُسأل : يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله

---

(١) نور الثقلين في تفسير العياشي وقال سليمان قال سفيان قلت لابي عبد الله (عليه السلام) ما يجوز ان يزكي الرجل نفسه ؟ قال : نعم اذا اضطر إليه اما سمعت قول يوسف «اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم » وقول العبد الصالح : «وانا لكم ناصح امين » .

وسلم) إن الناس يقولون : إنك قبلت ولاية العهد مع إظهارك الزهد في الدنيا ؟ يقول (عليه السلام) : قد علم الله كراهتي لذلك فلما خُيِّرت بين قبول ذلك وبين القتل اخترت القبول ، ويحهم أما علموا أن يوسف (عليه السلام) كان نبياً ورسولاً فلما دفعته الضرورة إلى تولي خزائن الأرض قال : إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » ودفعتني الضرورة إلى قبول ذلك على إكراه وإجبار بعد الإشراف على الهلاك ، على أني ما دخلت في هذا الأمر إلاّ دخول خارج منه فإلى الله المشتكى وهو المستعان»[1] واين ضرورة من ضرورة ، والحكمة فيهما والحكم واحدة على اختلاف الدرجة .

والامام ابو عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول لأقوام يظهرون الزهد ويدعون الناس ان يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشف : أين أنتم عن سليمان بن داود (عليه السلام) ثم يوسف النبي (عليه السلام) حيث قال لملك مصر واجعلني على خزائن الأرض إني

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٣٢ ج ٩٩ في عيون الاخبار باسناده عن الريان بن الصلت الهروي قال : دخلت على علي بن موسى الرضا (عليه السلام) فقلت له يا بن رسول الله ان الناس يقولون ... وفيه حجاج اخرى له مما شاءَ ومجارات عن عيون الاخبار باسناده عن الحسن بن موسى قال : روى اصحابنا عن الرضا (عليه السلام) انه قال له رجل : اصلحك الله كيف صرت الى ما صرت اليه من المأمون ـ وكأنه انكر ذلك عليه ـ فقال له ابو الحسن الرضا (عليه السلام) يا هذا ايهما افضل النبي او الوصي ؟ فقال : لا بل النبي ، قال : فايهما افضل مسلم او مشرك ؟ قال لا بل مسلم ، قال : فان العزيز عزيز مصر كان مشركاً وكان يوسف (عليه السلام) نبياً وان المأمون مسلم ، وانا وصي، ويوسف سأل العزيز ان يوليه حين قال : اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم » وأنا اجبرت على ذلك ، وقال (عليه السلام) في قوله : « اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم » قال : حافظ لما في يدي عليم بكل لسان .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

حفيظ عليم » فكان من أمره الذي كان أن اختار مملكة المَلِكَ وما حولها إلى اليمن ، وكانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم وكان يقول الحق ويعمل له فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه ![1].

وفي الحق إنما الحكم لله ومن يمثِّل حكم الله من رسله وأوليائه ، والحاكمون على الشعوب دونهم كلهم طغات ، ومن المفروض على من له أهلية الحكم تكريس الطاقات في كافة الحَلَقات لإزالة هذه السلطات وتأسيس الحكم الحق قدَر المستطاع ، أم - ولأقل تقدير - التقليل من ظلمهم في سلطاتهم ، فإزالة السلطة الظالمة المغتصِبة وتقليلها هما مفروضان دوماً على عواتق المؤمنين بالله وبرسالاته .

فمن يندّد بمثل يوسف الصديق والإمام الرضا (عليهما السلام) كفقيه ينقد ائمة الفقه ورسله ، إنه في الحق ليس له فقه بطبيعة الفقه ورسالته الجماهيرية، وفقه الإسلام الناصع هو فقه الحركات والبركات ، محلقاً على كل فقه وفقيه ، ومطبِّقاً شرعة الله في سياسته الجماهيرية والسلطة الشرعية والزمنية ، دون فكاك له عن السياسة ، وهؤلاء الذين يفصلون الدين عن السياسة في الحق لم يعرفوا الدين ولا السياسة ، وبهذه الجهالة فسحوا كافة المجالات القيادية الزمنية لرجالات السياسة غير الديِّنين ، ورجال الدين هم في الوقت نفسه وعاظ السلاطين ، والفقهاء الذين يحصرون الشرعة الإلهية في مدارس وأوراق وحلقات الدروس وفي المساجد وحفلات الوعظ والتعزية ، التي هي تحت هذه السلطات السياسية الجهنمية .

---

(١) المصدر الكافي القمي باسناده عن مسعدة بن صدقة عن ابي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه لا قوام . . .

إن الفقه الاسلامي لم يُنشأ ليُنشيء أمة في فراغ ، ويعيش ويعيِّش في فراغ ، لا تتمثل فيه عناصر المواقف الخاصة بأجوائها، والبيآت والملابسات التي ينشأ فيها ، منعزلاً عن السياسات والملابسات والأحكام الزمنية ، مدروساً في فراغ مثالي لا يمثل في المجتمع حتى نفسه .

لقد جاء الإسلام بشرعة كاملة الجهات ليحكم بها العرض الجغرافي في الطول التاريخي ،أفبالإمكان تطبيق هذه الشريعة بلا قيادات زمنية تتجمع فيها كافة الصلاحيات للحكم على الشعوب ؟!

وكذلك كل شرعة آلهية في كافة الرسالات ، فلم يكن ليوسف الصديق ـ بعد تمشيه في هذه الطريق الملتوية الشاقة الطويلة ـ لم يكن له أن يبقى مكتوف اليدين عن أية عملية إصلاحية ، والجو الملكي يستقبله ويستدعيه: «وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين امين» وحين يصل أمره إلى ذلك المكانة والتمكين ، عليه كواجب رسالي أن يرشد الملك إلى الأصلح للشعب من المناصب المطروحة لديه ويقول : «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم » ![1]

ولئن سُئلنا كيف بالإمكان تطبيق النظام الإلهي في التراكيب العضوية الجاهلية واللادينية ، فلا تحرك الشرعة الآلهية في ذلك التركيب العضوي العارم إلاّ ضدها ، كما ولا تتحرك في فراغ ، فلنصبر لإصلاح التركيب

---

(١) نور الثقلين في تفسير العياشي وقال سليمان قال سفيان قلت لابي عبد الله (عليه السلام) ما يجوز ان يزكي الرجل نفسه؟ قال: نعم اذا اضطر اليه اما سمعت قول يوسف «اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم» وقول العبد الصالح: «وانا لكم ناصح امين».

العضوي حتى يصلح الحكم على أساسه ولا يكون ذلك إلا في زمن المهدي القائم من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) !

فالجواب أن الناس على دين ملوكهم ، فالسلطة هي التي تصنع أعضاءها وتراكيبها الصالحة مهما طال الزمن ، ومهما ظلت بعض الأعضاء فاسدة ، فما لا يُدرك كله لا يُترك كله ! وإذا كان الإصلاح الرسالي قائماً على أساس التركيب العضوي الصالح ، وذلك الصلاح ليس إلا على ضوء الرسالات الإلهية ، فهو الدور المصرح المستحيل ، بل والرسالات التي تحمل أعباء الاصلاحات لا تحلّ إلاّ في مجتمع فاسد هو بحاجة إلى إصلاح ، وحملة الرسالات هم الذين يصنعون التركيب العضوي الذي هو من أنس الحكم ، ثم يحكمون بحكم أوسع ، كما صنعه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بادئ بدء في العهد المكي ، ثم في العهد المدني أنشأ دولة الإسلام بذلك التركيب الذي أنشأه من ذي قبل ووسّعه في المدينة .

والصديق يرى الجو يومذاك صالحاً لإصلاحٍ مّا حيث الحاجة إليه في الإصلاح الإقتصادي ذريعة تفرض عليه كونه على خزائن الأرض ، ليمتلك بها قلوب أهل الأرض، فيحكم بشرعة الله في الأرض .

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ(٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾(٥٧) .

«وكذلك» الذي فعله يوسف في رحلته الشاقة الطويلة ، منذ البئر حتى البلاط الملكي مستخلَصاً للملك ، «وكذلك» الذي فعلنا بيوسف من تعليم الأحاديث وأنباء الغيب الرسالية ، وإراءته برهاننا وصرف السوء عنه والفحشاء .

«وكذلك» الذي فعله اخوته والعزيز وامرأته ونسوة في المدينة، والذي ظن أنه ناج والمَلِك. وحتى «كذلك» المكانة التي حصّلنا له في الجو الفرعوني، بهذه المعدات المثلثة المقدرة المقررة من قبلنا.

«كذلك مكنا ليوسف في الارض..» مكانة مكينة، وإمكانية متينة، حيث يُجعل على خزائن الأرض فيصبح عزيزاً لحد يتوارى في ظله العزيز، فلا نسمعه حتى نهاية القصص إلاّ له، دون الذي اشتراه من مصر حيث يخاطبه إخوته: «يا ايها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً..»(٧٨) - «يا ايها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة..»(٨٨).

أترى العزيز الأول مات او قتل او عزل فاحتل الصديق مكانته؟ لا فحسب بل وتوارى المَلِك ايضاً إلاّ مرة، : «.. ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلاّ أن يشاء الله..».

أجل إن مكانة يوسف وإمكانيته في الأرض جعلته هو العزيز في كل المملكة لحد توارى كل عزيز من ملك فضلاً عن العزيز!

أترى تلك المكانة المرموقة ليوسف كانت من الله؟ فلماذا تطلّبه الصديق من المَلِك! أم كانت من الملك؟ فكيف ينسبها الله إلى نفسه! ولا دلالة هنا على أنه جعله على خزائن الأرض.

«كذلك مكنا» تدل أن الملك إستجابه إلى مطلوبه، وأنه كان من تمكين ربه، فالعبد يدبر وقد دبر الصديق بما قدم وما سئل، والله يقدّر كما قدر تمكينه في الأرض بما دبَّر، مما يبرهن بوضوح أن سؤاله ذلك من الملك كان بمرضات الله تدبيراً، فكان من مرادات الله تقديراً، وتوافق الأمر ان في تمكينه في الأرض! حيث حوّل قلبَ الملك ووجهه إلى تلك الواجهة. فكان ما سأله وأراده الله.

نرى في طول الخط تتحول أسباب ذُله إلى عزه برحمة خفية إلٓهية تجلت آخر أمره ،! فقد حسده إخوته فجعلوه في غيابت الجب ليغيب عن ذلك الإكرام والحب ، فاخذته السيارة ليشروه للعزيز ، فأكرم الله مثواه في بيت العزيز ، وكادت به النسوة وامراة العزيز لإدخاله في صغار الفجور أو «ليسجنن وليكونن من الصاغرين» فأصبح عزيزاً في السجن ، يؤوّل الروىً ، وقد جعله الله ذريعة لتخلّصه عن التهمة وخلاصه عن السجن ، لحدّيثيّ الملك تطلبُه إليه ويستخلصه لنفسه ، ويجعله على خزائن الأرض ، فيتوارى في ظل عزته العزيز الذي أذله ، وكل عزيز .

لقد مكن الله ليوسف أوّل مرة حين دخل بيت العزيز حيث قال لإمرأته «أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون(٣١) » «ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين»(٢٢) . وكأنه آنذاك ـ فقط ـ تمكين الخلاص عن غيابت الجب إلى أرض البلاط ، والتمكين العلمي والرسالي ولمّا يَجِن حينُ تمكينٍ لسلطته الزمنية تطبيقاً عزيزاً لرسالته .

ولكنما الآن يمكّنه بعد ذلك التمكين في الأرض ، أرض المملكة وحواليها ، لحد يتبوء منها حيث يشاء ، دون مشية فوقية تحده فيما يشاء ، إذ أصبح مطلق الإختيار في كل أرض المملكة ، كأن له السلطة العليا ، ولم يكن الملك لو كان له كون ـ إذ ذاك ـ أو كيان ، إلّا صورة فاضية وسلطة خاوية ليست له إرادة دون إرادته ولا مشيئة فوق مشيئته ! .

لقد تعاضدت أعضاد الدولة والملة بأسباب قاطعة وتظاهرت وتواترت لخفضه فلم يزدادوه إلّا عزاً ، ولم يكن إلا ما أراده الله «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .

وهنالك حصحص حق الآية : «إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم» (١٠ : ١٠٧).

أتراه لماذا «مكنا ليوسف» دون «مكناه» كما في آخرين في آيات أخرى ؟ :

إن التمكين «له» أوسع مكانة وإمكانية من تمكينه، فقد مكّن - بوجه عام - كل من في الأرض فيها : «ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش ..» (٧ : ١٠) وهذا من تمكين إمكانية إستعمار الأرض واستثمارها دون منع عنها وتمنّع منها، ومن ثم مكانة فوقها تخص الماكن فيها يتوجب عليه دون إحراج او إخراج : «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكوٰة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور» (٢٢ : ٤١) وهذا التمكين على قدر الماكن من تطبيق واجبه الشخصي، وآخر جماعي لا يُحوجه إلى أكثر من تطبيقٍ مّا قل او كثر، دون حاجة إلى سلطة زمنية، وإلا لما وجبت هذه الأربع على الأمة، حال «ولتكن منكم أمة ...»!

ثم التمكين «له» نراه في يوسف كما هنا، وفي ذي القرنين : «إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً» (١٨ : ٨٤) حال أن فيه نفسه بالنسبة لصناعة السد، غير المحتاجة الى سلطة واسعة زمنية يقول : «ما مكني فيه خير فأعينوني بقوة» (١٨ : ٩٥) دون «ما مكني له».

وفي السلطة العالمية للذين آمنوا «وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ..» (٢٤ : ٥٥) دون «تمكنهم في دينهم»، كما وفي وعد الإمامة ووراثة الأرض للمستضعفين المؤمنين : «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في

الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» (٢٨ : ٦).

وذلك التمكين لهم هو السلطة الصالحة لأنبياء إسرائيلين، كموسى وداود وسليمان ومن تبعهم بإحسان، ويوسف هذا يقدمهم فيه: «وكذلك مكنا ليوسف في الأرض» وهو يسبق هؤلاء كلهم في ذلك التمكين المكين الأمين.

«وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوء منها حيث يشاء..» وليس فقط تبوُّء الدار المكان، بل وتبوء الإيمان ورفع أعلامه، فإن تبوُّء الدار حاصل لمن يشتريها أياً كان، فذلك - إذاً - تبوُّء وتمكن رسالة الإيمان على ضوء النبوة السلطة الزمنية، بإمكانية واسعة ومكانة شاسعة دونما تحدد أو تهدد[1].

«نصيب برحمتنا من نشاء» لو أنه يشاء ويعمل له فيصلح لإصابة الرحمة، وهو من المحسنين «ولا نضيع أجر المحسنين» لا في الدنيا ولا في الآخرة «ولأجر الآخرة خيرٌ» لأنها هي دار الأجر والجزاء،وهنا دار التكليف والبلاء «للذين آمنوا» لا فحسب الإيمان كعقيدة مخبوئة في الجنان بل «وكانوا يتقون» على طول الخط في معارك الحياة، يتقون المحاظير فردية وجماعية، وليرفرفوا أعلام التقى، ويخفضوا منارات الطُغى. ومن «رحمتنا» هنا هي

---

(١) في الإصحاح٤١من تكوين التورات تباعاً لما سلف ما يلخص كالتالي: «ان فرعون استحسن كلام يوسف وتعبيره واكرمه واعطاه امارة المملكة في جميع شؤنها وخلع عليه بخاتمه والبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه واركبه في مركبه الخاصة ونودي امامه ان اركعوا واخذ يوسف يدير الامور في سني الخصب ثم في سني الجدب احسن ادارة.

جماعٌ من المكانتين الروحية والزمنية كما حصل ليوسف وأضرابه ، وليس كل المحسنين ليُصابوها ، وليس حرمان المحرومين عنها ضياعاً لأجرهم ، فلهم أجرهم في الآخرة عياناً وبياناً ، وأجرهم في الدنيا وبدون سلطة زمنية هو النصرة الإلهية في غَلَبَ البرهان ، والتصبُّر على كل حرمان في سبيل الإيمان : «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» ! فـ« اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات رحمة الله فإن لله عز وجل نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده واسألوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم»[1] .

وقد تلمح «نصيب» بأن الجمع بينهما في الدنيا ليس إلا كصدفة قاصدة «من نشاء» حسب ما تقتضيه المصلحة الجماعية ، ولسوف تصبح الرحمتان هامتان وعامتان ومنقطعتا النظير في زمن القائم المهدي من آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين !

من هنا تدور عجلة زمن سلطته الزمنية طوال السبع الأولى سنوات الرخاء ، دون أن تذكر القصص ما هو دور الصديق فيها ، ولا كيف أدار جهاز الدولة المخولة إليه ، اللهم إلا ما أفاده من قبل : «إني حفيظ عليم» ثم ولا يذكر العزيز ولا الملك إلاّ مرة مشيرة : «في دين الملك» فضلاً عن رجال المُلك والحاشية ، مما يلمح أن الأمر بكامله وكله صار إلى يوسف ، بارزاً مبارزاً على مسرح الحوادث ومصرع الكوارث ، كأنه هو الآمر الناهي لا سواه،حيث يضطلع بالأعباء كلها في الأزمات الخانقة الخافقة ، فقد تصدق ـ على ضوء هذه التلميحة ـ الرواية القائلة بعد مقابلة طائلة ان «قال له الملك إن

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥ ـ اخرج الحكيم الترمذي وابن ابي الدنيا في الفرج والبيهقي في الاسماء والصفات عن انس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انه قال : ....

ذلك لشرفي وفخري ألاّ أسير إلاّ بسيرتك ، ولا أحكم إلاّ بحكمك ، ولولاك ماقويت عليه ولا اهتديت له وقد جعلت سلطاني عزيزاً ما يرام وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك رسوله فأقم على ما وليتك فإنك لدينا مكين أمين »(١) .

---

(١) لقد مضى ما يشبهه من التورات والرواية في نور الثقلين ٣ : ٤٢٥ عن المجمع عن الطبرسي في كتاب النبوة بالاسناد عن احمد بن محمد بن عيسى عن الحسن بن علي بن الياس قال سمعت الرضا(عليه السلام)يقول: واقبل يوسف على جمع الطعام في السبع السنين المخصبة مكبسة في الخزائن فلما مضت تلك السنون واقبلت السنون المجدبة اقبل يوسف على بيع الطعام فباعهم في السنة الاولى بالدراهم والدنانير حتى لم يبق بمصر وما حولها دينار ولا درهم الا صار في ملك يوسف .
وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق بمصر وما حولها حلي ولا جواهر الا صار في ملكه ، وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي حتى لم يبق بمصر وما حولها دابة ولا ماشية الا صار في ملكه ، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والاماء حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا امة إلا صار في ملكه وباعهم في السنة الخامسة بالدور والفناء حتى لم يبق في مصر وما حولها دار ولا فناء إلا صار في ملكه ، وباعهم في السنة السادسة بالمزارع والانهار حتى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة إلاّ صار في ملكه وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حر إلا صار عبداً ليوسف . .
فملك احرارهم وعبيدهم واموالهم وقال الناس ما رأينا ولا سمعنا بملك اعطاه الله من الملك ما اعطى هذا الملك حكماً وعلماً وتدبيراً ، ثم قال يوسف للملك : ما ترى فيما خولني ربي من ملك مصر واهلها ؟ اشر علينا برأيك فاني لم اصلحهم لافسدهم ولم انجهم من البلاء ليكون وبالاً عليهم ولكن الله نجاهم على يدي ، قال الملك : الرأي رأيك .
قال يوسف : اني اشهد الله واشهدك ايها الملك اني قد اعتقت اهل مصر كلهم ورددت عليهم اموالهم وعبيدهم ، ورددت عليك الملك وخاتمك وسريرك وتاجك على ان لا تسير الا بسيرتي ولا تحكم الا بحكمي ، قال له الملك : ان ذلك . . . .

يا عُظماه كيف يصبح العبد السجين مالكاً لمولاه فيعبُده لله ؟ اجل و وان الحر حرّ على جميع أحواله ، ان نابته نائبة صبر لها وإن تداكّت عليه المصائب لم تكسره ، وإن أُسِر وُقهِرَ واستبدل بالعسر يسراً كما كان يوسف الصديق الأمين (عليه السلام) لم يضر حريته ان استعبد وقهرَ واسر ، ولم يضرره ظلمة الجب وحشته وما ناله - أن من الله عليه فجعل الجبار العاتي له عبداً بعد أن كان له مالكاً فارسله ورحم به أمة ، وكذلك الصبر يعقب خيراً ، فاصبروا ووطنوا أنفسكم على الصبر توجروا »(١).

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٣٤ ح ١٠٨ في اصول الكافي باسناده عن ابي بصير قال سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول . . . .

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ

فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم
بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ
أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ
فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ
أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَـٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ
فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا
ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾
قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ
فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟
مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ
هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا
وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ

مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ
بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾
وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ
مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ
إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾
وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ
وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ
قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾
فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ
ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟
عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن
جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم

مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا
جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ
فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾
فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ
أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ
الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ
كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ * قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ
أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا
لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾
قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا
مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ
نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾
فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا
أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ

فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ
يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُوا إِلَىٰ
أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا
عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي
كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾(٥٨) .

بين مجيئهم هذا ومجيئهم يومذاك ليجعلوه في غيابت الجب أمة بعيدة من الزمن ، علها لا تقل عن عشرين عاماً(١) وبعد ما يجتاح الجدب والمجاعة مصر وما حولها بكنعانها ، فيحتاج أهلوها إلى فائض غلة مصر المتسامع أنه من السبع السمان الرخاء ،(٢) « جاء إخوة يوسف » وطبعاً في أوليات سني السبع الشداد !

---

(١) فبينه وبين ان بلغ اشده في بيت العزيز سنة او سبع سنين اذ كان حين اشتراه العزيز قرابة التسع ثم بضع السجن سبع ، ثم السبع الاولى وهي سني الرخاء .

(٢) وهنا تستمر التورات في الاصحاح ٤٢ - ٤٣ من التكوين القصص ما نلخصه كالتالي: انه لما عمت السنة ارض كنعان امر يعقوب بنيه ان يهبطوا الى مصر فيأخذوا طعاماً فساروا ودخلوا على يوسف فعرفهم وتنكر لهم وكلمهم بجفاء وسألهم من اين جئتم ؟ قالوا : من ارض كنعان لنشتري طعاماً قال يوسف : بل جواسيس انتم جئتم الى ارضنا لتفسدوها قالوا : نحن جميعاً ابناء رجل واحد في كنعان كنا اثني عشر اخاً ففقدنا واحد وبقي اصغرنا ها هو اليوم عند ابينا والباقون بحضرتك ونحن جميعاً امناء لا نعرف =

= الفساد والشر - قال يوسف : لا وحياة فرعون نحن نراكم جواسيس ولا نخلي سبيلكم حتى تحضرون اخاكم الصغير حتى نصدقكم فيما تدعون فامر بهم فحبسوا ثلاثة ايام ثم احضرهم وأخذ من بينهم شمعون وقيده امام عيونهم واذن لهم ان يرجعوا الى كنعان ويجيئوا باخيهم الصغير - ثم امر ان يملأ اوعيتهم قمحاً وترد فضة كل واحد منهم الى عدله ففعل فرجعوا الى ابيهم وقصوا عليه القصص فابى يعقوب ان يرسل بنيامين معهم وقال : اعدمتموني الاولاد يوسف مفقود وشمعون مفقود وبنيامين تريدون ان تأخذوه لا يكون ذلك ابداً وقال : قد اسأتم في قولكم للرجل : ان لكم اخاً تركتموه عندي قالوا : انه سأل عنا وعن عشيرتنا قائلاً : هل ابوكم حي بعد ؟ وهل لكم اخ آخر ! فاخبرناه كما سألنا وما كنا نعلم انه سيقول : جيئوا إلي بأخيكم ، فلم يزل يعقوب يمتنع حتى اعطاه يهوذا الموثق ان يرد اليه بنيامين فاذن في ذهابهم به ومعهم وامرهم ان يأخذوا من احسن متاع الأرض هدية الى الرجل وان يأخذوا معهم اصرة الفضة التي ردت اليهم في اوعيتهم ففعلوا .

ولما وردوا مصر لقوا وكيل يوسف على اموره واخبروه بحاجتهم وان بضاعتهم ردت اليهم في رحالهم وعرضوا له هديتهم فرحب بهم واكرمهم واخبرهم ان فضتهم لهم واخرج اليهم شمعون الرهين ثم ادخلهم على يوسف فسجدوا له وقدموا اليه هديتهم فرحب بهم واستفسرهم عن حالهم وعن سلامة ابيهم وعرضوا عليه اخاهم الصغير فاكرمه ودعا له ثم امر بتقديم الطعام فقدم له وحده ولهم وحدهم ولمن عنده من المصريين وحدهم - ثم امر وكيله ان يملأ اوعيتهم طعاماً وان يدس فيها هديتهم وان يضع طاسه في عدل اخيهم الصغير ففعل فلما اضاء الصبح من غد شدوا الرجال على الحمير وانصرفوا .

فلما خرجوا من المدينة ولما يبتعدوا قال لوكيله ادرك القوم وقل لهم : بئس ما صنعتم جازيتم الاحسان بالاساءة سرقتم طاس سيدي الذي يشرب فيه ويتفأل به : فبهتوا من استماع هذا القول وقالوا : حاشانا من ذلك هوذا الفضة التي وجدناها في افواه عدلنا جئنا بها اليكم من كنعان فكيف نسرق من بيت سيدي فضة او ذهباً من وجد الطاس في رحله يقتل ونحن جميعاً عبيد سيدك فرضي بما ذكروا له من الجزاء فبادروا الى عدولهم =

وها نحن ممن نشهدهم أولاء « فدخلوا عليه » وبالروعة المشهد حينذاك بعد هذا الفصل الطويل ؟ أتظن أنه لا يعرفهم كما لا يعرفونه؟ كلا ! «فعرفهم وهم له منكرون » .

تراه كيف عرفهم والفصل طائل، وسعار الملك حائل ؟ إنه «عرفهم » كما هي طبيعة الحال في كل مظلوم يعرف ظالمه مهما طال الزمن وتطاولت المحن ، فضلاً عن يوسف النبي حيث يعرف الأغارب بسيماهم فضلاً عن الأقارب ، ومن ثم فهذه معرفة قاصدة إلى تعرُّف أبويه بمكيدة إلهية ، ان يوسف قد اجتباه الله كما في تأويل رؤ ياه ، ينبه بذلك أباه ، ثم ولم يكن من هؤلاء الملوك الذين يزدهون بزهوة الملك ، فيحول بينه وبين إخوته سعاره وكباره ! .

«وهم له منكرون » كما أنكروه حين جعلوه في غيابت الجب ، وهم الآن لا يخلد بخلدهم أنه حيّ ، وحتى في حياته فأين غلام عبراني يُشرى بثمن بخس دراهم معدودة وذلك المَلِك العظيم في هيله وهيلمانه وحيطة

= وانزل كل واحد منهم عدله وفتحه فاخذ يفتشها وابتدء من الكبير حتى انتهى الى الصغير واخرج الطاس من عدله .

فلما رأى ذلك اخوته مزقوا ثيابهم ورجعوا الى المدينة ودخلوا على يوسف واعدوا عليه قولهم معتذرين معترفين بالذنب وعليهم سيماء الصغار والهوان والخجل فقال : حاشا ان نأخذ الا من من وجدنا متاعنا عنده واما انتم فارجعوا بسلام الى ابيكم فتقدم اليه يهوذا وتضرع اليه واسترحمه وذكر له قصتهم مع أبيهم حين امرهم يوسف باحضار بنيامين فسألوا اباهم ذلك فابى اشد الاباء حتى اتاه يهوذا الميثاق على ان يرد بنيامين اليه وذكر انهم يستطيعون أن يلاقوا اباهم وليس معهم بنيامين وان اباهم الشيخ لو سمع منهم ذلك لمات من وقته ثم سأله ان يأخذه مكان بنيامين عبداً لنفسه ويطلق بنيامين لتقر بذلك عين ابيهم المستأنس به بعد فقد اخيه من امه يوسف . . .

واسعة له من غلمانه ، ومهابة مهيبة لسلطانه ، وحتى لو عرفوه فـ «هم له منكرون » أن يعرفهم وهم ظالموه وهو في سطوته وجبروته ! وقد أخبره الله تعالى بذلك من ذي قبل وهو في غيابت الجب كأوّل ما أوحى إليه «لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » وذلك إنباءهم بما فعلوا بيوسف وهم لا يشعرون «هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون »(٨٩) ؟ فأنّى لهم معرفته من قبل إذ واجهوه لأوّل مرة ولمّا يعرفوه بزمن بعدها ؟!

في ذلك المشهد الرائع ليس يوسف ليكشف عن نفسه ولا يلمح لهم بحاله إذ لا بد لهم منذ لقاءه من دروس يدرسونها ، وبليات يُبتلون بها بما قدمت لهم أنفسهم « وما الله بغافل عما كانوا يعملون » .

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾(٥٩) .

«جهزهم بجهازهم » الذي كانوا يطلبون وفق بضاعتهم ، وطبعاً طلب إليهم تعريفهم بأنفسهم وأهليهم حتى يفصح بقوله : «ائتوني بأخ لكم من أبيكم » فإن في إفصاحه دونما استفساره تلميحاً لهم فاستلهام منهم أنه من هو؟ وعليه في ذلك المسرح التخفي عن كل ملمح ليكيد كيده ، فقد أنزلهم لمّا جاءوه خير إنزال ، وتركهم يأنسون إليه بكامل الأنس ، واستدرجهم حتى عرّفوه بأنفسهم لحد عرف أن لهم أخاً من أبيهم لم يأتوا به ، فلما جهزهم بحاجيات الرحلة بإيفاء كيل وخير إنزال «قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم » ولمّا تلمّح منهم أن أباهم ضنين(١) عليهم بأخيهم، ظنين ،

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٣٨ في تفسير العياشي عن ابي بصير قال سمعت ابا جعفر (عليه السلام) يحدث قال : لما فقد يعقوب يوسف (عليه السلام) اشتد حزنه عليه وبكائه حتى ابيضت عيناه من الحزن واحتاج حاجة شديدة وتغيرت حاله وكان يمتار القمح من مصر في السنة مرتين في الشتاء والصيف وانه بعث عدة من ولده ببضاعة =

ويخاصة بعد افتقاد يوسف أخيه ، فليس أمره ميسوراً لهم ، يثني دعوته بتأكيد في ترغيب : «ألا ترون أني أوف الكيل» فلكم إيفاءكم وله إيفاءه ففيه المزيد وكما قالوا بعد : «ونزداد كيل بعير» . «وأنا خير المنزلين» منقطع النظير في إنزال المراجعين وتكريمهم ، فلا خوف إذاً من بخس مكيال ولا ركس في مقال أو حال .

وهنا «خير المنزلين» يعصف بتهمته إياهم بالتجسس عبر الرياح خلافاً لما يُروى، وكما في التورات، ولأن إيفاء الكيل لا يلائم رواية المزيادة لأخيهم وأبيه

وهذه سنة سنية لاجتلاب القلوب واجتذاب العواطف العادية أو المتفلتة ، لترجع إلى طلبة موفي الكيل وخير المنزلين ، مهما كانت العقبات والصعوبات والإلتواآت ثم يؤكد تأكيده بتهديد :

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾(٦٠) لا كيل فضلاً عن إيفاءه ، ولا إنزال فضلاً عن خيره ، كلمة قاطعة ملكية لامرد لها أبداً ، جامعة بين الترغيب والترهيب !

ولذلك تراهم يتقبلون عبء الإتيان بأخيهم من أبيهم ضرورة المعيشة فإن الضرورات تبيح المحظورات ! :

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾(٦١) .

= يسيرة الى مصر مع رفقة خرجت فلما دخلوا على يوسف وذلك بعدما ولاه العزيز مصر فعرفهم يوسف ولم يعرفه اخوته لهيبة الملك وعزته فقال لهم هلموا بضاعتكم قبل الرفاق وقال لفتيانه عجلوا لهؤلاء الكيل واوفوهم فاذا فرغتم فاجعلوا بضاعتهم هذه في رحالهم ولا تعلموهم بذلك ففعلوا ثم قال لهم يوسف قد بلغني ان لكم اخوان لابيكم فما فعلا؟ قالوا : اما الكبير منهما فان الذئب اكله واما الصغير فخلفناه عند ابيه وهو به ضنين وعليه شفيق قال : فاني احب ان تأتوني به معكم اذا جئتم لتمتاروان « فان لم تأتوني به .... » .

هناك تراوده امرأة العزيز عن نفسه ، وهنا إخوته يراودون عن أخيه أباه،وأي مراودة من مراودة ؟ ومراودتهم هذه في مختلف احتيالاتهم لاستلاب بن يامين كوعد قاطع منهم ليوسف لامرد له « وإنا لفاعلون » المراودة المثمرة والإتيان به في المرة الآتية . و « أباه » هنا دون « أبانا » تلمح أنهم عرفوه بأبيهم وأخ لهم من أبيهم هو أحب إلى أبيه منهم ، ولذلك لم يصاحبهم في رحلتهم هذه ، مما يؤيد أنه سألهم عن حالهم وبالهم، حاضرهم وغائبهم ، وهو طبيعة الحال في مثل ذلك اللقاء المقصود .

وليؤكد الصديق واقع مطلوبه منهم ، ويشجع أباه على إزالة العقبات دون السماح لمجيئه يرجع بضاعتهم بصورة خفية إليهم :

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٦٢).

من هنا يبدء كيد الله ليأخذ الصديق أخاه وليبلغ مناه «كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلّا أن يشاء الله . .»(٧٦) ! فلا تثريب على يوسف أو تعييب لماذا كادهم ذلك الطائل الغائل ، حيث كان بمرضات الله وإرادته شرعة وتكويناً .

«وقال » يوسف «لفتيانه » عبيده وغلمانه «إجعلوا بضاعتهم » التي سلموها لجهازهم «في رحالهم » وطبعاً بصورة خفية وغير مرئية «لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم » فإنها التي أدوها ؛ فبطبيعة الحال يعرفونها ، على احتمال بعيد ألّا يعرفوها أنها هيه، ولذلك نترجى قريباً «لعلهم يعرفونها . . » فإذا عرفوها تشوّقا لرجوعهم مع أخيهم من أبيهم بداعية ثالثة إضافة إلى ذلك الترغيب والترهيب سلفاً «لعلهم يرجعون » .

و «لعل » الثانية في ترجيّها ، علّها ترمي هدفين ، أولها تعلقها بـ «لعلهم يعرفونها » حيث الترجي لا يخلّف إلّا ترجياً مثله ، وثانيها تعلقها

بواقع المعرفة ، فقد يعرفونها ، ومع الوصف لا يرجعون ، أم لا يستطيعون ، فما أحسنه تعبيراً أدبياً في حساب المستقبل إذ لا يحتّم شيئاً من الأمرين إلا رجاءً على رجاء.

فها هم الآن يرجعون إلى أهليهم ومعهم بضاعتهم في رحالهم وجهازهم بإيفاء كيل وخير إنزال مما يرغبهم ، ولكنهم على وعد أن يأتوه بأخيهم مما يرهبهم ، عائشين في هذا البين بين الخوف والرجاء ، متشاورين في طريقهم كيف يراودون أباهم عن اخيهم ، وسابق مراودتهم إياه عن يوسف قد يحول بينه وبين هواهم !

هنا ندع يوسف في مصره ، ولنشهد مشهد الجمع بينهم وبين أبيهم ماذا يقولون وكيف يفعلون ؟

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(٦٣).

في هذه المرة لا تعني المراودة احتيالاً لاغتيال ، وإنما اكتيالاً لأنفسهم وآخر لأخيهم ، ولماذا هنا يتقدم «منع منا الكيل» وهو الأخير في ترهيب بعد ترغيب ؟ علّه لأنه الحاسم لموقفهم والمحرض لسؤالهم : لماذا منع الكيل ؟ ثم الجواب يضم الأولين : «أني أوف الكيل وأنا خير المنزلين» وقد يعني «منع» فيما عناه كيل أخيهم أم أبيهم، فمهما كان أبوهم شيخاً كبيراً لا يأتيه ، فأخوهم لا يُعذر إذا لم ياته فلا كيل له ، وقد يشير له «ونزداد كيل بعير» .

ولولاعرضهم لما حصل عن تفصيل لم تكن صلة مقبولة بين منع الكيل وإرسال الأخ للإكتيال ، وهنا «أخانا» دون «إبنك» مزيد تأكيد لإرساله بتعطف أخوي ، وتأكيد ثان «وإنا له لحافظون» .

وهم بذلك الطلب العارم الجازم يستثيرون كوامن يعقوب حيث وَعدُه من قبل في يوسف نفس الوعد بنفس الصيغة،وقد خالفوه!فكيف يأمن لهم بسابق كيدهم وميدهم ؟ ولذلك نجده :

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(٦٤).

خلوني خلوني من وعودكم الفارغة وكلماتكم البارقة، والعاقل لا يلدغ من جُحر مرتين، وقد لُدِغت لأوّل مرة والجرح لمّا يندمل، فقد أمنتكم على أخيه من قبل حين صدقتكم، فكيف آمنكم عليه الآن، ثم وليس وعد الحفظ منكم بالذي يؤمنني ولو كنتم صادقين، إذ قد تنجرفون بعد صدق أو يحاط بكم على صدق «فالله خير حافظاً» مِن سواه «وهو أرحم الراحمين» سواه، فقد لا ترحمونه وهو الراحم، أم ترحمون ويحاط بكم «والله غالب على أمره».

إنه «خير حافظاً» له ولأخيه «وهو أرحم الراحمين» به وبأخيه، فكيف تقولون في بتّ وقاطعية «وإنا له لحافظون»؟

وقد يشير بحفظ الله ورحمته بعد التنديد بهم في وعدهم لبُعديه(١) أنه لو أرسله معهم فليس إلّا امتحاناً وإيماناً بحفظ الله، دون وعدكم البارق الفارغ.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾(٦٥).

هنا يبتغون بضاعتهم المردودة إليهم لحجة على ما يدعون ويعدون: «قالوا يا أبانا» نحن وأخينا «ما نبغي» بعدُ من العزيز وقد أوفى لنا كيلنا دون بضاعة حيث ردها خفية، وأنزلنا عنده خير إنزال، ووعدنا مزيداً، فـ «هذه» التي تراها وتعرف هي «بضاعتنا ردت إلينا» ثم من بعد ذلك إذا أُرسلت معنا أخانا «نمير أهلنا» ميرة الزاد فلا يظلون جياعاً «ونحفظ أخانا» هنا من الجوع وهناك من أية حادثة، كيف لا وهو عزيز على العزيز، فحق

---

(١) الأول هل آمنكم والثاني لستم انتم بحافظين اذ قد يحاط بكم.

ولو أردنا به سوءً فهو المدافع عنه ، ثم «ونزداد كيل بعير» لأخينا و«ذلك» الميرة والزيادة «كيل» هو «علينا يسير» غير عسير .

وهذه محاولة تضم في جنباتها ترغيبات وترهيبات ، ان كان يعقوب يحب البُقية على العائلة ومنهم بنيامين فلا بد له أن يرسله معهم .

وقد يعني « يسير » -فيما يعنيه- يسير من العزيز الذي رد علينا بضاعتنا ، ام و « يسير » قليل ، وهنا « ذلك » يعني غير ما عناه «ذلك» هناك،فإنه هنا « ذلك » الذي أعطانا من قبل « كيل علينا » على كثرتنا « يسير » قليل ، وهو إذا أرسلت معنا كثير حيث « نزداد كيل بعير » .

يبدو هناك من قولهم «أرسله معنا نكتل» وهنا « نمير أهلنا .. ونزداد كيل بعير» أنهم اعتبروا أخا يوسف متاعاً لهم في حاجة مدقعة يسهلون به ميرة الزاد لأنفسهم ثم «ونزداد كيل بعير» وكما يوسف من قبل:«وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » فكل غال ورخيص عندهم فيما يهوونه رخيص بخيس .

كما ويبدو من «ونزداد كيل بعير» أن يوسف (عليه السلام) كان يعطي كل من حضر كيل بعير ، دون ان يبيع المشتري كل ما يريد ، وإنما لكل رأسٍ شرطَ الحضور ، او التأكد من محظور لعدم الحضور ، وتلك حكمة حكيمة في سنيّ الجدب والمحاصرة الإقتصادية ، تنظم بها نظام العيشة العادلة للشعب ، دون أن تتحكم في مزيد الميرة زيادة مال ، او قوة وجلال .

أترى نبي الله يعقوب هل يستسلم بغُيه ما يرمون من هدف الميرة وزيادة كيل بعير؟ وهل إن طلب المعاش يبرره هدر نفس محترمة له سابقة من قبل كما في يوسف؟ كلا !

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾(٦٦)

فـ «لن» تُحيل إرساله معهم على أية حال، فليس نبي الله يعقوب بالذي يجعل إبنه متاعاً لميرة حتى عند الضرورة، فضلاً عن هدره نفساً، علماً أو ظناً، ولكنه يرسله على شرط يصرح به «حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتنني به» دون أية إشارة إلى ميرة الأهل وازدياد كيل بعير ببضاعة أو دونها.

أتراه كيف يرسله معهم بموثهم ولا ميثاق لهم كما تبين له من قبل؟ علّه لما كان يعلمه بتأويل رؤياه: «وكذلك يجتبيك ربك» أن يوسف موجود الآن بعزة، أو أنه هو العزيز، فبارقة الرؤيا ببارقة النبوة خارقة تخرق حجب الغيب عن يوسف وبعد زهاء العشرين.

ثم «الله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين» ـ «والله على ما نقول وكيل» سياجان على ما قد يحاط به أو يهم، وهذه الثلاث يصاحبها في هذه السفرة طلب الميرة الضرورية، مما يرجح له أن يرسله معهم.

وترى ما هو «موثقاً من الله» حيث يعتبره أصلاً يحوّل مستحيله: «لن» إلى ممكنه الراجح حيث أرسله؟ ثم «والله على ما نقول وكيل» دليل أن موثقهم قول يوثق به، ولا يوثق بقول ما لم يرتبط بالله من حلف بالله أو عهد مع الله، ولذلك فالوكيل أيضاً هو الله، وثقة يعقوب بموثقهم وقد نقضوه من قبل علّها لأنهم تحولوا عن حالتهم الأولى إلى الحسنى، ثم ولم يكن منهم فيها موثق إلاّ «إنا له لحافظون» كمعاهدة معه لا مع الله.

وعلى أية حال أصبح واثقاً بموثقهم بسائر الوثائق التي تحوطه لحدٍّ يرسله معهم غير مجازف ولا هازف أو خارف، وإنما إرسال نبي على بصيرة مما يجوز عما لا يجوز.

ولماذا «الله على ما نقول وكيل» دون «شهيد»؟ علّه لأنه يعني رباط موثقهم بالله في تحقيقه، كما نيط بالله في عقده «فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين».

فإرساله ـ إذاً ـ كان على ضوء شرعة الله، والتكلان فيه على الله، فمهما لا يأمنهم يعقوب على ابنه فهو مؤمن بالله متكل على الله فيما يقدم عليه، وقد سُمح له في شرعة الله، فليس الإتكال على الله مما تتعامى معه الأسباب وتبطل، ولا التوسل بالأسباب مما يغني عن الله، فإنه على كل شيء وكيل، وهو القائل «وابتغوا إليه الوسيلة» بجنب القول «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين».

لذلك نرى نبي الله يعقوب يأخذ في إرساله ابنه بكلِّ حائطة، دون اتكالـية فيها إبطال الأسباب والتغاضي عنها، ودون تحتيم عليهم أن يأتوه به باستقلال الأسباب، فمحاولة منهم كما يقدرون «الّا أن يحاط بكم» فلا تستطيعون حيطة بكم فلا ترجعون، أم لا يرجع أخوكم، فإنما المحظور التقصير في واجب الإتيان به لا القصور.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٦٧).

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

وترى ما هو باب واحد وأبواب متفرقة؟ هل هي أبواب القصر؟ فما هو الفارق بين دخولهم من أبواب متفرقة أم باب واحد كما دخلوا من ذي قبل، أمّا هيه من أبواب؟

قد تعني أبواب القصر المتفرقة خوفة من عين او حسد، ... ان يحاط بهم جميعاً أو الثلاثة كلها فإنها كلها مخيفة، إلا أن «ما كان يغني عنهم من الله من شيء» لا تلائم الأولين، إذ لم يُحسدوا ولا اخذتهم عين، بل أحيط بهم في أخيهم.

«وما أغني عنكم» دليـل عـلى خيفـة منّا عليهم لا مـردَّ لهـا، و«ان الحكم ـ المتوكلون» تبصرة لهم منه أن هذه الحائطة ليست لتغني عنكم من الله من شيء، ولكن التوسل بالأسباب لزام كل سلب وإيجاب، على علم أنه «إن الحكم إلّا لله» لا للأسباب، لذلك «وعليه» لا

سواه « فليتوكل المتوكلون » فالمسموح لنا إنما هو التوسل بالأسباب ، لا والتوكل عليها ، بل هو على الله فـ « إن الحكم الا لله » .

فالإتكال ـ الإستقلال ـ على الأسباب إشراك بالله ، والإتكال على الله فيما له أسباب دون توسل بها انعطال لها يخالف أمر الله : «وابتغوا إليه الوسيلة » ويخالف تكوين الأسباب في دار الأسباب ، فإنما هو توسل صالح بالأسباب المناسبة المعنية لما تروم متوكلاً على الله ، عارفاً بأنه «إن الحكم إلا لله » .

فـ «العين حق »[1] وتأثير الحسد حق : «ومن شر حاسد إذا حسد» شراً بفعله عن حسد ، ام تأثيراً من نفس الحاسد وكما تؤثر العين ، فليست أسباب الشر لتنحصر في أعمال الجوارح ، وتنحسر عن أعمال الجوانح ، بل هي أقوى منها احياناً، وكلما كانت الأرواح أقوى في خير أو شر فتاثيراتها كذلك أقوى من خير او شر ، في تقوى أم طغوى .

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٨ : ١٧٣ قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) والعين حق ولو كان شيء يسبق القدر لسبقت العين القدر » وفيه ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يعوذ الحسن والحسين فيقول : اعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة،وفيه روى عبادة بن الصامت قال دخلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في اول النهار فرأيته شديد الوجع ثم عدت اليه آخر النهار فرأيته معافى فقال : ان جبرئيل (عليه السلام) أتاني فرقاني فقال : بسم الله ارقيك من كل شيء يؤذيك ومن كل عين وحاسد الله يشفيك قال (صلى الله عليه وآله وسلم) فافقت وفيه روى ان بني جعفر بن ابي طالب كانوا غلماناً بيضاً فقالت اسماء يا رسول الله ان العين اليهم سريعة فأسترقي لهم من العين فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) لها : نعم وفيه دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بيت ام سلمة وعندها صبي يشتكي فقالوا : يا رسول الله أصابته العين فقال : افلا تسترقون من العين .

وفي المجمع عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ان العين حق والعين تستنزل الحالق .

ولئن سئلنا كيف تؤثر العين وأضرابها و«إن الحكم إلاّ لله» ؟ فالجواب أنّ «لا جبرْ ولا تفويض بل أمر بين أمرين» فكما أن سائر الشرور من سائر الأشرار ليس ليمنعها الله تكويناً إلاّ لحكمة كما في نار إبراهيم، كذلك شر العين والحسد أماذا.

ومع كل هذه التفاصيل في تأثير العين والحسد، فلا عين ولا أثر من عين ولا حسد إلاّ حاجة في نفس يعقوب قضاها:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٨).

دخولهم من حيث أمرهم أبوهم من أبواب متفرقة «ما كان يغني عنهم من الله من شيء» حيث أحيط بهم في أخيهم من أبيهم، بل وهكذا دخول فَسحَ المجال لـ «حاجة في نفس يعقوب قضاها» وهو لقيا يوسف ولا مُعدِّله ظاهرياً إلاّ «آوى إليه اخاه» وليس أمراً عادياً إلاّ أن يدخل هو من غير الأبواب التي دخلوها، فله أن يستقبل أخاه ويؤويه إليه دونهم من حيث لا يعلمون، ثم «وإنه لذو علم لما علمناه» قد لا تمتّ بصلة لحاجة في نفس يعقوب إلاّ أن يكون لُقيا يوسف مما علمه كخلفيّة من خلفيات إرسال ابنه ودخولهم من أبواب متفرقة، وهنا يتأكد انه لم يرسله لمجرد موثقهم ليأتنّه به.

أما أن دخولهم من أبواب متفرقة مخافة عين أو حسد أو حيطة، هو - فقط - «حاجة في نفس يعقوب قضاها» فلا يناسب «وإنه لذو علم» وهو كسبب لـ «حاجة» وتعليل لها، ولا أن حاجته قضيت بذلك إذ «ما كان يغني عنهم من الله من شيء» وليست هذه الحائطة التي تخلفت عن النتيجة حاجة مقضية.

إذاً فاللامح من جنبات الآية هو أن دخولهم من أبواب متفرقة قضى حاجة في نفس يعقوب، حيث سهل أمر المكيدة الصالحة ليوسف في إبقاء أخيه عنده وإلى لقيا والديه معه.

«ولكن اكثر الناس لا يعلمون» أن هذه الاسباب والحياطات في ترتيبها لا يغني عن أصحابها من الله من شيء فـ«إن الحكم إلاّ لله» وأن دخولهم هكذا قضى حاجة في نفس يعقوب، وأن يعقوب «لذو علم لما علمناه» من طريقة لقضاء حاجته.

واحتمال آخر هو الآخر، أن دخولهم كما أمر ما كان يغني إلاّ حاجة في نفس يعقوب قضاها دون أن يعلم، فقد قدم حيطة لرجوع ابنه ما لم يقضه، بل قضي حاجته الأصيلة دون أن يعلم، «وإنه لذو علم..» إذاً يعني ان أمره أيّاً كان عن تعليم إلٰهي مهما لم يعلم أن النتيجة هي حصول أصل الحاجة.

وهذه من الرحمات الخفية الإلٰهية أنه قد يبتلي عباده الصالحين بما ظاهره العذاب ولكن باطنه من قبله الرحمة، يطلب أمراً ويدعو له ويقدم للحصول عليه كل إمكانياته، ويقضي الله له أمراً آخر دونه وهو حاجة أصلية، وما تطلّبه بالنسبة لها كمقدمة من حيث هو لا يعلمها.

وهنا ندرس ألاّ مغني عن الانسان اياً كان من الله من شيء في الاسباب التي يتوسل بها، حيث الإذن تكويناً في كل خير أو شر انما هو من الله فـ«إن الحكم إلاّ لله» دون أية علة او اسباب، فهو تمام العلل ومتممها، كما هو خالقها ومعللّها، دون ان يكون هناك جبر كما لا تفويض، وانما امر بين امرين.

كما وندرس ان على الانسان تقديم كافة المحاولات والإمكانيات والحائطات للوصول الى مُرامه ومَرامه دون استقلالية فيها ولا اتكالية عليها ولا على الله بترك الاسباب، اللهم إلاّ فيما لا حول له ولا قوة فالدعاء من الله والاستدعاء.

واخيراً ندرس من «لا تدخلوا من باب واحد» أن الحائطة في قضاء الحاجة، لا سيما الملتوية الخطرة، أن تؤتى من أبواب متفرقة، فان سدّت باب او أبواب، فهنالك أبواب أخرى او باب.

وهذه الحائطة الحكيمة تحلّق على كافة المتطلبات الهامة سلباً وايجاباً، فالذي عنده نقود يخاف عليها، عليه أن يحافظ عليها في مكانات متفرقة،

حتى إذا سرقت ام ضاعت من مكان، تظل البقية الباقية محفوظة.

إذاً فهذه الحائطة ضابطة سارية المفعول في كل الحقول، تبعّد عامليها عن الخسار، ويقربه إلى اليسار، كسبب ظاهري، والله من وراءه حفيظ.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٦٩).

«ولما دخلوا على يوسف» من أبواب متفرقة كما أمرهم أبوهم، وطبعاً من إحدى عشر باباً «آوى إليه أخاه» من أبويه، اتراه يعجل بإيوائه قبل استقبالهم جميعاً وقبل كل شيء، وفور دخولهم عليه؟ لا شك انَّ ذلك أوّل خاطر يساور يوسف عند دخولهم عليه ورؤيته لأخيه بعد الفراق الطويل، ولا يكاد يصبر لشيء إلا أن يؤويه إليه، ففي دخولهم عليه من أبواب متفرقة ـ وهو عليهم رقيب ـ مجالٌ له غير مريب أن يؤوي إليه أخاه قبل أن يستقبلهم، وقد آواه وكلمه غير طائل: «قال إني أنا أخوك» تعريفاً له بنفسه في تأكيدات ثلاث، وفرع عليه: «فلا تبتئس بما كانوا يفعلون» فاترك كل أسى وبؤسى بما كانوا منذ ذلك الزمن الطويل يفعلون بي وبك وبأبينا، فقد حظوت الحظوة التي رأيتها في رؤياي وأولها أبونا «وكذلك يجتبيك ربك...».

هنا يطوي السياق كلما حصل مما ليس له أصل في القصص وعبرة لأولي الالباب، ليواصل ماله أصل، وهو الدرس الذي يلقيه على أخوته ليعتبروا به إن كانوا من أولي الألباب.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾(٧٠).

السقاية هي المشربة وطبعاً كان لها قيمتها الغالية، لولاها لم يؤذن مؤذن بما أذّن حيث الرخيص لا أذان فيه عند الملِك الذي يرد عليهم بضاعتهم من ذي قبل، فلتكن ذهبيته مرُصعة أماهيه؟

والرحل هو ما يوضع على البعير للركوب والحِمل، والعير هم القوم الذين معهم أحمال الميرة أماهيه، إسماً للرحال والجمال الحاملة للأحمال ميرة وغير ميرة، فليس العير حميراً لذلك ولمكان «لمن جاء به حمل بعير» خلاف ما يروى، وكما في التورات.

وهنا جاعل السقاية هو يوسف حيث الضمآئر المفردة كلها راجعة إليه، ولكن المؤذن هو غيره لمكان «مؤذنٌ» دون «أذن» كما «جعل» وليس مؤذن ـ بطبيعة الحال ـ يؤذن في هذه المهمة الفادحة إلّا بأمره الصراح[1] إذاً فذلك من أذانه حيث كان بإذنه «أيتها العير إنكم لسارقون» وحتى إذا لم يكن بإذنه فسكوته عن ذلك إذن منه صُراح وهو الممكّن في الأرض، فكيف يترك النهي عن المنكر، وتقريرات الأنبياء كمقالاتهم وأفعالهم حجة، فسواء أكان الأذان الإعلام بإذنه الصُراح وهو طبيعة الحال في موقفه العظيم، أم لم يكن، بخلاف الحال، فهو على أية حال مرضي عنده مباح.

لقد كانت حيلة من الصديق حيث يدس صواع الملك في رحل أخيه،

---

(١) المصدر ج ١٣٤ في كتاب علل الشرايع باسناده الى صالح بن سعيد من رجل من اصحابنا عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال: سألته عن قول الله عز وجل في يوسف «ايتها العير انكم لسارقون» قال انهم سرقوا يوسف من ابيه الا ترى.. اقول: فقول الله في يوسف ايتها العير، دليل انه من مقاله لا المؤذن من عند نفسه، وكذا قول ابي جعفر (عليه السلام) فيما مضى ولقد قال يوسف «ايتها العير..».

تنفيذاً لتدبير إلٓهي يخصه في ذلك المشهد المثير المغير، ولكن ما هو مصير «أيتها العير إنكم لسارقون»؟ ولم يكونوا سارقين ولا واحد منهم في رحله صواع الملك! والمكيدة الإلٓهية بعيدة عن الضعف والكذب والظلم، قاصدة جزاء العدل الوفاق للظلم، كيد عادل قاصد هو جزاء كيد ظالم فاسد كاسد، فماذا يعني ـ إذن ـ ذلك الأذان المعلن أمام الجماهير، متهماً ولد نبي الله يعقوب «انكم لسارقون»؟ فيرتاع إخوته لذلك النداء وهم أولاد النبي وأحفاد شيخ المرسلين!

أكان وجود الصواع في رحل أخيه ـ دون سرقة منه ـ يسمح لاتهامهم كلهم «إنكم لسارقون»؟ وحتى لو كان سارقاً في الحق فنسبتها إلى العير ـ وهم أحد عشر ـ تهمة جمعية ومسٌّ من كرامة البرآء العشرة، وحق القول في مثله «واحدٌ منكم سارق» حيث لا يسرق صواعاً واحداً إلّا واحد، فـ «أيتها العير إنكم لسارقون» إذاً فرية قاطعة حتى لو كانت هناك سرقة، ولكنه كذب وفرية إذ لم تكن سرقة بتة، وكما لم تكن البتة!

إنهم في هذا المسرح ما سرقوا شيئاً، وما كذب الصديق، حيث الحيلة كانت بأمر الله، وهو نبي الله فكيف يكذب، وإنما وَرَّى تورية صادقة حيث عنى من «إنكم لسارقون» أن سرقوا يوسف من قبل! وكما يروى تصديق الصديق عن الصادق: «ما سرقوا وما كذب يوسف فإنما عنى سرقتم يوسف من أبيه»[1] «ألا ترى انه قال لهم حين قالوا «ماذا تفقدون» «قالوا نفقد صواع الملك» ولم يقولوا «سرقتم صواع الملك» إنما عنى انكم سرقتم يوسف من أبيه» وهم لا يشعرون!

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤٤٢ ـ القمي في حديث سئل الصادق (عليه السلام) عن قوله عز وجل «ايتها العير انكم لسارقون» قال: ما سرقوا وما كذب يوسف فانما عنى سرقتم يوسف من ابيه وفيه ٤٤٤ ح ١٢٩ في اصول الكافي باسناده عن عطا عن ابي عبد الله =

هنا ندرس من أذان الصديق درسين اثنين: أحدهما أن التورية مسموحة إرادةَ الإصلاح[1] وإلاّ فهي كذب إذ ينتج نتاجه مهما اضمر قائلُه صدقاً ،

(عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا كذب على مصلح ثم تلا «ايتها العير انكم لسارقون».

ثم قال: والله ما سرقوا وما كذب ثم تلا «بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون» ثم قال: والله ما فعلوه وما كذب.

اقول: ما كذب دليل التورية، حيث الكذب كذب مهما كان مسموحاً في الإصلاح والضرورة، وفيه عن علل الشرايع باسناده الى ابي بصير قال: سمعت ابا جعفر (عليه السلام) يقول: لا خير فيمن لا تقية له ولقد قال يوسف «ايتها العير انكم لسارقون» قال: ما سرقوا وما كذب، اقول: التقية هي وقاية الأهم بتفدية المهم وهي لا تسمح للكذب ما أمكنت التورية كما هنا وفيه ١٣١ عن روضة الكافي باسناده عن ابي بصير قال قيل لابي جعفر (عليه السلام) وانا عنده ان سالم بن ابي حفصة واصحابه يروون عنك انك تكلم على سبعين وجهاً لك منها المخرج فقال: ما يريد سالم مني ايريد ان اجيء بالملائكة والله ما جاءت بهذا النبيون ولقد قال يوسف (عليه السلام) ايتها العير انكم لسارقون «والله ما كانوا سارقين وما كذب».

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٤٢ القمي باسناده عن الحسن الصيقل قال قلت لابي عبد الله (عليه السلام) انا قدر روينا عن ابي جعفر (عليه السلام) في قول يوسف: «ايتها العير انكم لسارقون» فقال: والله ما سرقوا وما كذب وقال ابراهيم «بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون» فقال: والله ما فعلوا وما كذب قال فقال ابو عبدالله (عليه السلام) ما عندكم فيها يا صيقل؟ قلت: ما عندنا الا التسليم قال فقال: ان الله احب اثنين وابغض اثنين أحب الخطر فيما بين الصفين واحب الكذب في الاصلاح وابغض الخطر في الطرقات وابغض الكذب في غير الاصلاح ان ابراهيم (عليه السلام) انما قال: «بل فعله كبيرهم هذا» ارادة الاصلاح، ودلالة على انهم لا يفعلون. وقال يوسف (عليه السلام) ارادة الاصلاح.

اقول: هنا سميت التورية الصدق كذباً مسموحاً للاصلاح، وفي روايات اخرى انه ما =

فالضرورات تقدَّر بقدرها، فلا يسمح للكذب المطلق ما دامت التورية ممكنة ، ولا ضرورة لله ولنبي الله في كذب والتورية مورِّية صادقة ! مهما كان « لا كذب على مصلح »[1] وليست الغاية التي يبتغيها الصديق درساً لإخوته بالتي تبرر هذه الوسيلة الهائلة ، فإنها على أية حال مكيدة إلٰهية وليس الله ليضطر في كيده الى ما حرّمه من كذب وتهمة !

وثانيها أن استلاب نفس محترمة هو من السرقة ، وكيف لا تكون سرقة واستلاب شطر من دينار سرقة مهما اختلف الحكم بين سرقة وسرقة ، وهم قد استلبوا يوسف من أبيه إخراجاً عن مُلكته ومُلكة أبيه ، بمكيدة خائنة ، وهم مجمعون ان يجعلوه في غيابت الجب ، أوَليست هذه سرقة ، وهي أسرق سرقة تضم معها كذبة حين استلبوه ، وحين رجعوا إلى أبيهم وقد تركوه فيها تركوه ، وألقوه في غيابت الجب إساءة إليه وعلّ فيها هتف نفسه ، وهذه ثالوث منحوس تحيط بأصل السرقة ، أليسوا يستحقون بعد هذه الأربع أن يُنسبوا إلى واحدة منها « أيتها العير انكم لسارقون » ومهما كان بن يامين بريئاً وقد شملته العير ، فالعشرة الآخرون كانوا سراقاً وخَوَنة ، وقد أسرَّ يوسف إلى أخيه هذه المكيدة ، ليُستثنى عن العير السارقين ، فكان يرضى ذلك التعميم أو يؤكده وصولاً إلى « حاجة في نفس يعقوب قضاها » فهل إن ذلك التعميم مسّ من كرامته ، أم خارج عن أدب التعبير في أحد عشر رجلاً واحد منهم بريء والباقون خونة سارقون ؟ . .

وقد نحتمل أن يوسف عرّف رجال الحاشية بموقف المكيدة ، فلم يكن

= كذب وما سرقوا والجمع ان التورية صدق من جهة تخفى وكذب حسب الظاهر ، ولا يجوز الكذب المطلق ما دامت التورية في موارد الاصلاح .

(١) مضت روايته عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

في ذلك الشمول مهانة لأخيه في نفسه حيث عرفه ! ولا في أنفس رجال الحاشية أن عرفهم ، وأما في أنفس إخوته فليس ليهمه ذلك أمام البغية المهمة ، كيف وقد علموا ـ في ظنهم ـ أنه سرق ، وشهدوا بذلك عند أبيهم « إن ابنك سرق » ولم يكن له في هذه وتلك تغير حالة فان الضرورات تبيح المحظورات ، حتى ولو كان ذلك له محظوراً.

ذلك ولكن «ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلّا أن يشاء الله» دليل أنه ما عرفهم ولا حتى المؤذنَ مكيدتَه، إذ لو عرفهم كان يعرفه الملك، وكيف يأخذ أخاه بمكيدة يعرفها الملك؟.

ولئن سئلنا أن الشرعة الإلٰهية لا تسمح الجهر بالسوء وقد جاهرهم به ، اللّهم إلاّ شهادة بشروطها عند الحاكم ، ولم تكن هناك من يوسف شهادة ولا حكم ؟ فالجواب « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلاّ من ظُلم » وقد ظُلم يوسف بأقبح الظلم فكيف لا يجهر بسوء ما ظُلم ، وهو كاتم ظلمه طيلة سنين حتى أتى دوره الصالح لمكيدة بأمر الله ، فقد صدق فيما جاهر وترك كثيراً حين قال مؤذنه : « أيتها العير انكم لسارقون » .

﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ(٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾(٧٢) .

« واقبلوا عليهم » تلمح أن المؤذن أذن وهم يرجعون ، ثم أقبلوا عليهم ، و « ماذا تفقدون » إشارة منهم أننا لسنا بسارقين، فلعله فُقد عنكم صواع الملك ، والمحتملات فيه ثلاث ثالثها أنه عند أحدنا ، وقبل ذلك قد يكون تحت طعام أمّاذا ، أو عند أحدكم أمن ذا ، فلا تُحتّموا أننا سرقناه .

ورجال الحاشية بمن فيهم المؤذن ، هنا لا يكررون القولة الأولى بصيغة أخرى « سرق منا صواع الملك » وإنما « نفقد » مما يؤيد أن الأولى تورية لا

تعني سرقة الصواع، ثم رغّبوا «لمن جاء به حمل بعير» كجعالة على وجدان الضالة «وأنا» الذي هو طبعاً المؤذن «به زعيم» كفيل ضمين، أم قائم بأمره رئيس، وعلى أية حال فقد تكفل هذا الجعل لمن جاء به، ولو كانت سرقة فجزاءه غير جزائه «جزاءه من وجد في رحله فهو جزاءه كذلك نجزي الظالمين».

فقد تحول مسرح السرقة وجزاءها إلى مسرح وجدان الضالة وجعله وأين سرقة من جعالة؟.

أترى «نفقد» ليس كذباً وهم ما فقدوه حيث هو «جعل السقاية في رحل أخيه»؟ نفقد - في نفسها - تعني ليس هو عندنا، علمنا مكانه ام جهلنا، وغاية أمره أن يكون تورية كالأولى فقداناً على علم بمكانه، ثم والقائلون «نفقد» جماعة فليس هو الصديق ام ولا المؤذن، فقد يجوز أنه ما أخبرهم، ولا المؤذن بما فعل، كما يدل عليه «ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك»، كما وقد يقربه أن الصديق هو الذي «جعل السقاية في رحل أخيه» دونهم، ولا حتى المؤذن، فقد أمر أن يؤذن: «أيتها العير إنكم لسارقون» ثم أمروا أن يغيروا القول في مسرح الصراحة «نفقد صواع الملك» ثم «ولمن جاء به حمل بعير» إنصراف عن إتهامهم في سرقة الصواع وبجاراتهم في «ماذا تفقدون» إذاً ففتّشوا عنه ولمن جاء به جعلُه، وطبعاً ليس المجيء به من سرقه أو من الإخوة تفتيشاً لأنفسهم بعضً البعض، وإنما من غيرهم أم في نفس القصر، مما يوكد أن تهمة السرقة الجاهرة لا تتجه إلى صواع الملك .

وعلى أية حال فهم مستيقنون ببرائتهم، فيستندون إلى ثقتهم فيهم في ماضيهم وحالهم واستقبالهم:

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾(٧٣).

قسماً بالله « لقد علمتم » من حالنا وحِلنا وترحالنا « ما جئنا لنفسد في الأرض » في رحلاتنا إلى ههُنا حالاً ، و «لقد علمتم » أننا « ما كنا سارقين » ماضياً، وتراهم كيف تاكدوا من علمهم فيهم لحد الحلف بالله ، برائة لهم في حالهم وما مضى ، وهذه حجة صارمة ـ لو علموا ـ على برائتهم في إنكارهم واستنكارهم سرقتهم؟.

قد نتخذ ذلك دليلاً أنهم عرّفوا الصديق بأنفسم بما قالوا وما فعلوا وعاملوه من مظاهر الصدق في نياتهم وسجياتهم ، ولحدِّ يضيِّفهم أحسن ضيافة ويضيف لهم إلى متاعهم بضاعتهم ، وعلّهم ـ كما يروى ـ ردوها إليه ، مما يبرهن أنهم ليسوا من المفسدين في الأرض ولا سارقين !

ولأنهم في الحق فاقدون سواع الملك ، ولم يُبقوا احتمالاً أنه مخبوء هنا وهناك أم هو عند أحدٍ من رجال الحاشية ، فرغم علمهم بسابق حالهم فالمحتوم ـ إذاً ـ أنه عندهم على أية حال ، كما المحتوم عند الإخوة خلافه ، معلومان يتعارضان، فلا سبيل ـ إذا ـ لتكشُّف الحال الغامضة الا تفتيش رحالهم لبيان حالهم فإذاً :

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾(٧٤).

فما جزاء من وُجد في رحله ؟ وترى « إن كنتم كاذبين » هي في نكران سرقة الصواع؟ وهم فيه صادقون ! فلماذا يهددون ! ـ أم في نكران اي إفساد في الأرض وسرقةٍ طول حياتهم ؟ اللهم نعم فإنهم فيه كاذبون، ومن أقل الجزاء لهم ألا يرجعوا بأخيهم، فيختجلوا عند أبيهم ويرتبكوا بما ارتكبوا.

ولكن حيث كانوا كـاذبين فلمـاذا الجزاء عـلى من ليس منهم؟ إن ذلك - في الحق - جـزاءهم، وأما جـزاءه فهـو ظاهرة مـوَرّاة مجاراةً لحقـل الجـزاء، و «جـزاءه» مفـرداً عن «كنتم كـاذبـين» جمعاً، هـو أجمـل تلميحـة لاختـلاف المجـزي عن الكـاذبـين، فـإن للكـاذب - لـو كـان هـو بن يـامـين - جـزاءه وللصادقين سواه ليس هنالك جزاءٌ ما هم غير عارفين أنه سرق.

فحصالة المعني منها : فما جزاء من وجد في رحله إن كنتم أنتم كاذبين ، لا من وجد في رحله فإنه صادق هنا وعلى طول الخط ، وإلاّ فليكن « إن كان كاذباً» ولأنه لم يكن كاذباً لم يكن وجدانه في رحله يسمح لان يؤخذ إلاّ بكذب صراح في حقه أنه كاذب دون مجال في ذلك لأية تورية .

﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾(٧٥).

وقد حكموا حسب شرعتهم أن جزاء السارق هو نفسه أن يسجن أو أن يسترق ، و « الظالمين » تعمم هذا الحكم إلى سائر الظالمين بحق الناس .

ولماذا التكرار في « جزاءه » مبتدءً مرة وخبراً اخرى ؟ علّه للتأكيد انه هو جزاءه لا سواه ، أم هو وسواه ، إنما هو جزاءه ليس إلاّ إياه .

وبطبيعة الحال كل هذه الحوار كان باذن يوسف ومنظره ومسمعه فإنه من كيده المسموح بإذن الله : « وكذلك كدنا ليوسف » ولكن من هذا الذي يمدّ يده إلى أوعيتهم تفتيشاً ؟ ليس ذلك إلاّ يوسف نفسه إكراماً لبيت النبوة واحتشاماً للإخوة، ولأنه هو الذي « جعل السقاية في رحل أخيه » فليكن هو الذي يستخرجه بخاصة كيده من وعاء أخيه :

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ

دَرَجَاتٍ مَّنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾(٧٦)

بدأة بديعة تذود عنه كل تهمة وريبة ، فبدءُه بوعاء أخيه مريبة قريبة ، واستخراجه منه بين أوعيتهم مريبة بعيدة ، ولكن استخراجه منه بعد أوعيتهم كلهم تطوي كل ريبة وتزيل كل شبهة وتهمة ، أن هناك مؤامرة وحيلة مدروسة .

« كذلك كدنا ليوسف » فكل ما حصل فيها هنالك من مكيدة وتوريةكان من كيد الله ليوسف ، ما لولاه لـ «ما كان لياخذ أخاه في دين الملك » اللّهم إلاّ بدينه أو دينهم ، وقد حكموا « هو جزاءه » فلياخذه الصديق إذ كانوا هم كاذبين ، وهو في الحق جزاء كذبهم، وحسب الظاهر جزاء من وجد في رحله .

« ما كان لياخذ . . إلاّ ان يشاء الله » وقد شاء الله وفق شرعته وارادته في مكيدته ، كيدٌ دون اي ضعف او كذب او ظلم ، بل هو شطر من جزاءهم عن مربع ظلمهم في يوسف ، فقد « مكروا ومكر الله والله خير الماكرين » و « دين الملك » كما سلف دليل لا مردّ له أن ذلك الكيد كان خفياً عمن سوى الصديق.

وانه لكيد يرفع من كيان يوسف ويضع من كيان إخوته« نرفع درجات من نشاء» مهما تظافرت عساكر خَفْضته وضِعته ، « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ».

وترى وما هي الصلة بين« وفوق كل ذي علم عليم » وما قبلها؟ علّها لأن الإخوة كانوا في هذه الرحلة كلهم عيوناً مفتّحة حفاظاً على أخيهم لَيأتُنَّ به أباهم ، حاسبين لكل صغيرة وكبيرة حسابها ، ولكن الصديق بوحدته فوقهم في علم ، ما لم يكونوا له حاسبين ، ثم وهذه ضابطة سارية في حقل

العلم إذ ليس له حدٌ ولا حدود ، ففوق كل ذي علم عليم حتى يصل إلى علم بلا حدود ، فلا فوق له ولا قرين حيث اللاّ نهاية لا تتكرر .

لذلك لا يحق للعالم-أياً كان- زعمةُ الزعامة العامة في حقل العلم وإن في تخصص خاص ،فَعَلَّ فوقه عليم ، حتى وإن كان نبياً يوحى إليه ، إلاّ من أوحي إليه أن ليس فوقه في كل الخلق عليم كالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اللهم إلاّ ربه تعالى جَدُّه .

فـ « نرفع درجات من نشاء » تحكم برفعة الصديق عليهم في درجات ومنها درجة العلم فـ « فوق كل ذي علم عليم» وكما فوق كل ذي فضل فاضل ، حتى يصل إلى خالق الدرجات والفضائل فلا فوق له في أي شيء ولا قرين حتى يقارنه فضلاً عن أن يفوقه .

وقد « سأل رجل علياً (عليه السلام) عن مسألة فقال فيها ، فقال الرجل ليس هكذا ولكن كذا وكذا، قال علي (عليه السلام) أحسنت واخطأت وفوق كل ذي علم عليم »[1] ولا يعني ذلك الجمع إلاّ خطأه في مسألته ، وإن كان صواب فهو قول الله « وفوق كل ذي علم عليم » فانا فوقك علماً كما أن فوقي عليم حتى ينتهي العلم إلى الله ، فمنه نبدء وإليه نعود .

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾(٧٧) .

هنا - ولكي يخلصوا عن الورطة نجياً - يظهر كامن حقدهم الدفين على يوسف وبنيامين، يجعلونها في خط دون خطهم تبرئة لساحتهم أنفسهم : « إن يسرق » هو فله سابقة من أخيه من أمه وأبيه « فقد سرق أخ له من

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٨ - اخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال سأل رجل . . .

قبل » فليسرق هو من بعد نسخة طبق الأصل ، حيث الأم لها دورها في التربية مهما اشتركنا في أبينا

وتراهم هنا يصدقون وهم في ورطتهم ، وقد كذبوا من قبل لاستلاب الصديق عن أبيه وهم في حريتهم ؟ إنهم يعنون بهذه الفرية أن يلطّخوا ساحة أخويهم من أبيهم فيضيفون تهمة سرقة لأخ له من قبل إلى هذا الذي ظنوه سارقاً من بعد ، وكأنهم لا يشعرون أنهم يكذبون بذلك قولتهم من قبل : « وما كنا سارقين » ضاربة إلى أعماق الماضي إلى الحال ، فكيف الحال في سرقة في الحال وأخرى يدعونها في الماضي؟

أجل هناك شيء نتلمح من « أسرّها » فإنها لا مرجع لها إلاّ سرقة مستفادة من فعلها ، فقد «أسرها» هنا «يوسف في نفسه ولم يبدها » بعينها « لهم » لكيلا يتكشف أمره هنا حتى حين ، وإنما لَمَح بصيغة عامة لشر مكانهم في قولهم وما فعلوه من قبل ، وعلى ضوءه لخير مكانه في قوله فيهم وما يفعله الآن : «قال أنتم شر مكاناً » ثم أرجع العلم بما يصفون من سرقة سابقة إلى الله « والله أعلم بما تصفون ».

ففي ذلك الموقف نتلمح من كلام الصديق« أنتم شرٌ . . » وقول الله فيه « فأسرها ولم يبدها » أنه كانت له سرقة ولكنها صالحة وليست شريرة طالحة ، فلو أنهم كانوا في قولتهم عنه صادقين ، لم تكن ـ في الحق ـ تثبت عليه إلاّ فضيلة لا رذيلة ، ولكنهم عرضوها هنا رذيلة لو أنهم يعنون تلك السرقة الفضيلة .

وعلّها ما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « سرق يوسف (عليه السلام) صنماً لجده أبي امه من ذهب وفضة فكسره وألقاه في

الطريق فعيّره بذلك إخوته »(١)فهذه أمّاهيه من سرقة لا تحمل منها إلاّ لفظتها ، كما المكيدة من الله أماهيه من أفعال صالحة يعبر عنها بعبارات متشابهة فتفسرها الآيات المحكمة .

فالسرقة قد تكون واجبة حيث يضر المسروق بصاحبه ولا يتخلى عنه ، فليُسرق منه نجاةً له عن ورطته ، اي يؤخذ منه ما يضره من مال او حال على غفلة منه صداً عن ايِّ تمنُّع .

ثم « وأنتم شرٌ مكاناً والله اعلم بما تصفون » ذود عن كرامته ما يمسها من سرقة محرّمة ، رَجعاً لشرها إليهم وأنهم يجهلون ما يصفون او

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٨ ـ اخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله تعالى : ان يسرق فقد سرق اخ له من قبل قال: . . . ، واما ما يروى انه كانت لاسحاق النبي منطقة يتوارثها الانبياء والاكابر وكانت عند عمة يوسف وكان يوسف عندها وكانت تحبه فبث اليها ابوه ان ابعثيه إلى وأردّه اليك فبعثت اليه ان دعه عندي الليلة اشمه ثم ارسله اليك غدوة فلما اصبحت اخذت المنطقة فربطته في حقوه والبسته قميصاً وبعثت به اليه وقالت سرقت المنطقة فوجدت عليه وكان اذا سرق احد في ذلك الزمان دفع الى صاحب السرقة فاخذته فكان عندها . .

وقد نقله في نور الثقلين ٢ : ٤٤٤ عن الخرائج والجرايح باسناده عن داود بن قاسم الجعفري قال : سئل ابو محمد عن قوله تعالى : وان يسرق،وعن تفسير العياشي عن اسماعيل بن همام قال قال الرضا (عليه السلام) كما هو المتن الذي نقلناه،واخرجه مثله في الدر المنثور ٤ : ٢٨ بعدة طرق عن جماعة دون إسناد إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

اقول : ولكنه لا يلائم اصولنا المستفادة من الكتاب والسنة ، (١)فقد كان يوسف (عليه السلام) دون التكليف ولا حكم لسرقة الصغير(٢)، ومع الغض عن الصغير فكيف يقبل نبي الله يعقوب شهادة امرأة واحدة على ابنه الذي يعرفه بصدق وصفاء ؟ (٣)وان يوسف حسب الآيات كان عند يعقوب حتى اخذه منه اخوته .

يتجاهلون ، وهنا اخذوا يلتجئون إليه ويسترحمون :

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾(٧٩) .

ونرى الصديق هنا لا يلفظ بشطر كلمة تمس من كرامة أخيه حتى في تورية إذ يقول « من وجدنا متاعنا عنده » دون «من سرق متاعنا » ثم « متاعنا » دون « صواع الملك » تحمل تلميحة مليحة ـ فيما تحمل ـ أن اخاه هو متاعه ، متعة معنوية بلقاء أخوي ممتِع ! فقد وجدنا متاعنا هذا عنده ، وهو نفسه الغالية ، كما وجدنا صواع الملك عنده ، واين متاع من متاع ؟

وفي التعبير عن يوسف بـ « العزيز » دليل على انه أصبح مكان العزيز بعزله ، او موته ، وأنه غير الملك لاختلاف التعبير مهما مُلِّك ما كان يملكه الملك حيث طوي عن ذكره كأصل واندرج درج الرياح .

و « إن له أباً » استعطاف له خاص أن له مكانة عند الأب ليست لنا ، فكأنه هو ـ فقط ـ ابنه ، « فخذ أحدنا مكانه» كيلا يأسى بفقده أبوه الشيخ الكبير ، فاجاب عن إقتراحهم « معاذ الله .. إنا إذاً لظالمون » أن ناخذ بديله غيره ،وهو متاعنا وبغيتنا ،وهو الذي وجدنا متاعنا عنده .

أترى أن ذلك ـ في الحق ـ كان ظلماً ولا سرقة في البين حتى يثبت حق أصلاً او فرعاً ؟ إنه مجاراة لهم فيما قالوه وقرروه : « جزاءوه من وجد في رحله » تورية في مسرحه . و « إنا إذاً لظالمون » قد تعني تورية ، لو أنا تركنا « من وجدنا متاعنا عنده » ظلمنا أنفسنا فانه هو بغيتنا ومتاعنا في ذلك الكيد الأمين المكين ، كما وظلمنا حسب دين الملك « ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك » وكما في دينكم ، مثلث من الظلم مجاراةً ، مهما انفلت البعض منها مواراةً ، فقد صدق الصدِّيق في « إنا إذاً لظامون » على أية حال !

وتراهم كيف يستفدونه بأحدهم وهم من نعرفهم من شقوة ليوسف من قبل ولأبيهم ؟ علّه لأن استلاب يوسف من أبيه كان عن حقد لا يعرف شفقة إلاّ شقوة ، وأخذهم لاخيه لم يكن إلاّ شفقة للعائلة ككلّ، وقد آتوا أباهم موثقهم من الله ليأتنّه به ، ففدوا بأحدهم مكانه تخلصاً عن ورطة مستقبلة أمام أبيهم ، وهم عارفون بعض الشيء أن العزيز ليس لياخذ أحدهم مكانه .

ثم وما هي الرباط بين « فخذ أحدنا مكانه » و « ان له أباً شيخاً كبيراً » ؟ « له اباً » تختصه بابيهم اكثر منهم ، كأنه فقط ابنه، فهذه زاوية أولى لاستعطافه ، ثم « شيخاً كبيراً » هي الثانية ، حيث الشيخ المتقدم في العمر أحوج إلى ولد يؤنسه من سواه ، ويزيده انعطافاً كونه شيخاً كبيراً بساير معانيه ، مجتداً وعلماً وإيماناً وعائلة وعشيرة ، فهو يستحق العطف من جهات شتى ، ومن ثم الزاوية الثالثة « إنا نراك من المحسنين » وهنا أظرف ظروف الإحسان ، ويعني الإحسان فيما يعني إحساناً يناسب تحرير رق ، ولأقل تقدير « فخذ أحدنا مكانه » ! وقد كان - كما يروى - انه حرّر نفراً عظيماً ممن شراهم الطعام بأنفسهم حين نفدت بضايعهم .

وما أجمل جواب الصديق وأحوطه إذ لم يقل « معاذ الله ان نأخذ بريئاً بجريرة سارق»، وإنما « أن ناخذ إلاّ من وجدنا متاعنا عنده » ثم يعتذر عن كل هذه الزوايا المتعطفة بـ « إنا إذاً لظالمون »وهل يظلم المحسن ؟ أم إن غاية الإحسان تبرر وسيلة الظلم ؟ ! .

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾(٨٠) .

الإستيآس هو من اليأس والإياس ، ولأنه استفعال فقد يزيد على

« ايئسوا » وعلّه تطلّب الإياس،وما أدقه تعبيراً وألطفه على حالتهم الراجية ، المتعمقة في قلوبهم ، المستكنة في افئدتهم ، لحدٍّ ما كان يخلد بخلدهم يأس عن إحسان الصديق ، ولكنه قطع كل آمالهم بكلمة تهديد : « إنا إذن لظالمون » حيث تهدُّدهم فتحدد موقفه منهم مما آيسهم، وكأنهم حينذاك تطلّبوا الإياس من أنفسهم رغم ما كانوا يظنون ، كما وخوفهم ، ولذلك « خلصوا نجياً ».

و « نجياً » تستعمل جمعاً كما هنا، ومفرداً : « وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً » (١٩ : ٥٢) وهي واوية تعني النجوى ، ويائية تعني النجاة،وقد تعنيهما هنا « نجياً » لمكان « خلصوا » فالثانية النجاة ، وحيث « قال كبيرهم .. » فالأولى النجوى، ولو عنت نجيّ النجوى فالصيغة الفصحى ـ إذاً ـ النجوى نفسها كما : « وإذ هم نجوى » (١٧ : ٤٧) .

« فلما استيأسوا منه » من يوسف أن يسمعهم ومن أخيه أن يرده إليهم « خلصوا » من حضرته على تخوف أن يلحقهم مزيد مما لحقهم «نجياً» نجاة من ملاحقته ، ونجوى بينهم في أمرهم كيلا يسمعهم هؤلاء فيما يتناجون ، ومن نجواهم « قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف » ؟

أترى لماذا « أباكم ـ عليكم ـ فرطتم » تغاضياً عن نفسه وقد كان معهم فيما كان منهم وهو كبيرهم ؟ علّه إشارة إلى أن كبيرهم هذا ما كان ليرضى عما فعلوا ، ويشهد له أنه حملهم على أن يجعلوه في غيابت الجب ، فلا يقتلوه ، ولا يطرحوه أرضاً ولا يلقوه في غيابت الجب ، بل يجعلوه « يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ».

فهو مهما كان يشاركهم بعض الشيء في نفي الصدِّيق ، كان أخفهم اجتراماً بحقه وأثقلهم احتراماً له ، يحاول في تآمرهم عليه ، الحفاظ على

نفسه وسلامته ، اقتصاراً على الأقل فيما يرمون ، وعلّه ان لم يسايرهم بعض الشيء وأخبر يعقوب بتآمرهم عليه ، قضوا عليه .

علّه لذلك كله تحق له هذه المصارحة في مثلثها : « أباكم قد أخذ عليكم .. ومن قبل ما فرطتم » فقد كان التفريط في يوسف منهم دونه ، وبطبيعة الحال «موثقاً من الله » ماخوذ عليهم دونه ، أو أن تفريطه لم يكن فارطاً فالتاً مثلهم ، وأن موثقه لم يكن كموثقهم ، ولذلك نراه هنا لا يبرح الأرض حتى يأذن له أبوه أو يحكم الله ، مما يدل على أن « موثقاً من الله » يشمله مهما كان في أخفه .

ثم « أبي » دون « أبونا » هي رابعة الأضلاع في تلك المفاصلة بينه وبينهم في التفريط والميثاق ، فهو « أبي » فوق ما هو « أبوكم » حيث أراعي الحرمة الأبوية له وأنتم لا تراعون ، فأنا - إذاً - ناظر احد أمرين « حتى ياذن لي أبي » لكي أبرح الأرض للقاءه دون اختجال لمكان براءتي « او يحكم الله لي » : بخلاص أخي فابرح معه الأرض الى أبي ، أو يوحي إلى أبي براءتي أنا فيرضى عني ، أم - ولآخر تقدير - بموتي حتى لا أرى أبي كئيباً ينظر اليّ نظرته إلى من خانه وشانه « وهو خير الحاكمين » لا يحكم إلاّ خيراً .

ثم بعد هذا التنديد الشديد بهم يأمرهم بالرجوع ، ويرشدهم كيف يواجهون أباهم في مقال :

﴿ إِرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ(٨١) وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾(٨٢) .

« ارجعوا » دوني أنا إذ لا أبرح الأرض حتى ياذن لي أبي « إلى أبيكم »

دون أبينا ، حيث المقام مقام استنهاض الرحمة الأبوية لهم دونه ، فانه ليس معهم لا في رجعهم ولا في كل ذنبهم « فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق » كاوّل قالة لهم بعد السلام والإكرام جبراً للمفاجأة من فقده ، حجة لهم حاضرةً علّها تقنع أباهم بفقده ، ولأنه ليس ليقبل هذه التهمة الوقحة لابنه الحبيب يحاولون تثبيت دعواهم بما حاولوا .

أب مفجوع بابنه يوسف من قبل ، يُفضى إليه بنبأ فظيع لإبنه الثاني ، وأفظع من فقده، فرية السرقة ، فليواجهوه في ذلك المشهد الرعيب الرهيب بحجة قيِّمة تعذرهم ، وتسد كل منافذ ظِنَّة الخيانة عنهم وقد فعلوا :

« وما شهدنا إلّا بما علمنا » كأنه جواب عن أسئولة مطوية كالتالية : لماذا شهدتم بحكم السارق في شرعتنا ليجعلوه مُسكة في إمساكه ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ؟ أو شهدتم بسرقته لديهم فأمسكوا ولدي أنا إمساكاً عنكم؟ والجواب: « وما شهدنا » بحكم شرعتنا « إلّا بما علمنا» منه فلا محظور ، وإلا بما علمنا أنه لم يسرق ولذلك شهدنا ، و « إلّا بما علمنا » انه سرق لوجود الصواع في رحله ، « وما كنا للغيب حافظين » ما كنا نحفظ غيب أنه سارق حتى لا نأخذه معنا ، او لا نشهد بحكم السارق عندنا حفاظاً عليه ،ولا للغيب المتخلف عن علمنا بانه سرق لو أنه لم يسرق إذ لا نؤمر إلّا بما علمنا دون الغيب الذي جهلنا ، فقد كانت هذه الشهادات الثلاث « بما علمنا » شهادة بالحكم ، وشهادة بالسرقة عندهم وأخرى عندك ، والعلم عاذرٌ في الشهادات مهما تخلف عن الواقع إذ « ما كنا للغيب حافظين » .

« وسئل القرية التي كنا فيها» عن مسألتنا « والعير التي أقبلنا فيها » وهم كلهم يشهدون لنا : « وإنا لصادقون » حتماً فيما نقول ونشهد .

ولكن ذلك شهادة بحكم الشرعة بما علموا، فكيف يشهدون بالسرقة

بما علموا كما يدعون وهي بحاجة إلى شهود السرقة ، فلكلٍّ مشهود به شهادة تخصه ، كما ويندد يعقوب بشهادتهم هذه :

«قال بل سولت لكم أنفسكم امراً . . » سولت أمر السرقة في أخيه حين قلتم فيها شهدتم :
« إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . . » شهادة ذات بعدين بعيدين عن أي علم أم أية حجة شرعية ، فكيف شهدتم أن يوسف سرق من قبل ، ثم كيف شهدتم أن أخاه سرق بمجرد ما وجدتم الصواع في رحله، وعلّهم جعلوه في رحله لياخذوه ، فلم تكن هذه الشهادة لا عن شهادة ولا عن علم « بل سولت لكم أنفسكم أمراً . . ».

هنا علمٌ ، وهناك شهادة، وهنالك غيب ، فنحن وإن كنا لا نؤمر بالغيب ، فان أمره بيد من يعلم الغيب ، ولكن الشهادة هي عوان بين العلم والغيب ، وأكثرها توافق الغيب ، فالعلم غير المسنود إلى شهادة وحضور في المعلوم المشهود به ، قد يحصل من تسويل نفس ، ممن له نكاية على المشهود ، فيحصل له علمٌ بقرائن غير قطعية ، وحتى إذا كانت بقرائن قطعية فليست كالشهود لدى الجريمة ، فلا حجة فيه على المتهم بجريمته .

وكما أن الشاهد لدى الحاكم ليست له شهادة بعلم إلّا سناداً إلى شهوده وحضوره على شروطه، كذلك الحاكم نفسه ليس له حكم بعلمه ، إلّا بشهادة صالحة ، وكما هو ثابت بنصوص الكتاب والسنة .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى
اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾
وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ
مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ
حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ
إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ
وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن
رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ
قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ
مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ
يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ
وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ
قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن

يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾
قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾
قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ
أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾

---

(١) هنا تستمر التورات في القصة تاركة قصة رجوعهم الى ابيهم بابقاء بنيامين عند يوسف قائلة بعد ذكر التماسهم ان يرسل معهم اخاهم : «فلم يستطع يوسف ان يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده فصرخ اخرجوا كل انسان عني فلم يقف احد عنده حين عرف يوسف اخوته بنفسه فاطلق صوته بالبكاء فسمع المصريون وسمع بيت فرعون وقال يوسف لاخوته : انا يوسف احيٌّ ابي بعد ؟ فلما يستطع اخوته ان يجيبوه لأنهم ارتاعوا منه ـ وقال يوسف لاخوته تقدموا الي فتقدموا فقال: انا يوسف اخوكم الذي بعتموه الى مصر والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتموني الى هنا لاستبقاء حياة ارسلني الله قدامكم لأن للجوع في الآن سنين وخمس سنين ايضاً لا يكون فيها فلاحة ولا حصاد فقد ارسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض وليستبقي لكم نجاة عظيمة فالآن ليس انتم ارسلتموني الى هنا بل الله وهو قد جعلني ابا لفرعون وسيداً لكل بيته ومتسلطاً على كل ارض مصر . اسرعوا واصعدوا الى ابي وقولوا له هكذا يقول ابنك يوسف : انزل الي لا تقف فتسكن في ارض جالسان وتكون قريباً مني انت وبنوك وبنو بنيك وغنمك وبقرك وكل مالك ، وأعولك هناك لانه يكون ايضاً خمس سنين جوعاً لئلا تفتقر انت وبيتك وكل مالك وهوذا عيونكم ترى وعينا اخي بنيامين ان فمي هو الذي يكلمكم وتخبرون ابي بكل مجدي في مصر وبكل ما رأيتم وتستعجلون وتنزلون بابي الى هنا ثم وقع على عنق بنيامين اخيه وبكى وبكى بنيامين على عنقه وقبل جميع اخوته وبكى عليهم ـ ثم تقول ـ : انه جهزهم احسن التجهيز وسيرهم الى كنعان فجاؤا اباهم وبشروه بحياة =

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾(٨٣).

« قال » ليس كما تزعمون «ما شهدنا إلاّ بما علمنا » فلا علم هناك « بل سولت لكم أنفسكم امراً » وزيّنته فاصبح علماً عن تسويل فهو ظِنّة رديئة « فصبرٌ جميلٌ » وهي كلمته الأولى يوم فقد يوسف ، ولكنه هنا يضيف إليها وطيد الأمل : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً » والجميع هم الأخوان وكبيرهم الذي ما برح الأرض « إنه هو العليم الحكيم » مما يدل على أنه بعدُ راجٍ في حياة يوسف و « العليم الحكيم » ياتي على لسانه أوّل ما اوّلَ رؤ ياه : « وكذلك يجتبيك ربك .... ان ربك عليم حكيم » وفيها هنا ثاني مرة،ثم يوسف هوَ الذي يثلّثها عند اللقاء : « ورفع أبويه على العرش .. إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » (١٠٠)وذلك مما يوحي بتأكد الرجاء وأن المرجو قضيةُ علمه تعالى وحكمته .

أتراه يرجوه بما أوحي إليه ؟ علّه نعم ، وعلّه لا ، حيث الرجاء بالله والأمل الوطيد في الله شعورٌ يتجلّ دوماً في قلوب الصفوة المختارة ،لا سيما وهو الذي أوّل رؤ ياه : « وكذلك يجتبيك ربك » ولكنه أمل راجح دون يقين ، فعلّه يجتبيه دون علمه بمكانه ، وعلّه ميتٌ الآن بعد تحقق رؤ ياه ، ولكن العِلّات على عُلّاتها ليست لتزلزل من صرح رجاءه ، وقد يأتي نبأ

= يوسف وقصوا عليه القصص فسر بذلك وسار باهله جميعاً الى مصر وهم جميعاً سبعون نسمة ووردوا ارض جالسان من مصر وركب يوسف الى هناك يستقبل اباه ولقيه قادماً فتعانقا وبكى طويلاً ثم انزله وبنيه واقرهم هناك واكرمهم فرعون اكراماً بالغاً وآمنهم واعطاهم ضيعة في افضل بقاع مصر وعالهم يوسف ما دامت السنون المجدبة وعاش يعقوب في ارض مصر بعد لقاء يوسف سبع عشرة سنة .

اقول وهذا كله ملخص ما فصله التورات يقارن بما في القرآن ليرى البون البعيد بين الكتابين .

علمه بحياته بعد حين في آيته : « يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه . . » .

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾(٨٤).

هنا يختص يوسف بذكراه إذ لا يتاكد بعدُ من حياته أو أن يأتيه ، ولكن أخاه وكبيرهم بعدُ موجودون بمكان معلوم ، ثم ويوسف هو القمة العالية الغالية في حبّه ، وما فاصل الزمان البعيد بالذي يُنسيه ، لا سيما والحادث الجلل الجديد يذكر جَلَل القديم .

« وتولى عنهم » اعتراضاً عليهم وإعراضاً عنهم ، منقطعاً إلى الله « وقال يا أسفى على يوسف » إذ ما هوَّنت من مصابه طائل السنون ، والنكبة الجديدة في أخيه ثم كبيرهم تجدده أكثر مما كان طيلة السنين ، وذلك غاية الأسف والأسى على أعز الأبناء وأغرهم الذي تتلوه غائلة فوق غائلة ، فهنا « وابيضت عيناه من الحزن » حيث أذهب الحزن بسواده فانظّم في سائر بياضه ، ولكنه على حزنه الذي بلغ به إلى العمى لم يكن ليشكوا حزنه إلى أحد إلاّ لله « فهو كظيم » غيظَه وحزنَه عمن سوى الله ، هضيم عبَء مصابه لله : « إنما اشكوا بثي وحزني إلى الله » ممن أحزنني وخانني لا من الله .

أترى أن الحزن ، وعلى أثره البالغ منه : ابيضاض العين ، ذلك لا يلائم الصبر الجميل ؟ إنه لو كان شكوىً من الله لخرج عن الإيمان بالله ، فضلاً عن الصبر الجميل ، ولكنه إذا كان شكوىً إلى الله من بأس الظالمين ، فهو قضية الإيمان ، وصبرٌ جميل ، حيث لم تخرجه عن الرجاء بالله والأمل في رحمة الله .

وفي نائبة يوسف واجهتان ، من إخوته خيانة وظلماً حسداً من عند أنفسهم، ففيهـا «وتولى عنهم وقـال يا أسفي عـلى يوسف وابيضت عينـاه من الحزن . . ».

وأخرى تجاه الله وفيها « فصبر جميل . . فهوكظيم . . إنما اشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون . . إذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله . . » وكلتاهما قضية الإيمان ، رحمة ابويّة على أفضل أولاده،ونقمةٌ على حاسديه ،وثقةٌ وايماناً بالله ورجاءً به « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ».

وقـد صـدق رسـول الله (صـلى الله عليـه وآلـه وسلم) في قـولـه : «كان له من الأجر أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة من ليل أو نهار »[1]!

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣١ ـ اخرج ابن جرير عن الحسن عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه سئل ما بلغ وجد يعقوب على ابنه ؟ قال : وجد سبعين ثكلى ، قيل : فما كان له من الاجر؟ قال : اجر مائة شهيد . . .

وفي نور الثقلين ٢ : ٤٥٢ عن القمي عن هشام بن سالم عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال له بعض اصحابنا : ما بلغ من حزن يعقوب على يوسف ؟ قال : حزن سبعين ثكلى،وفيه في الخصال عن ابي جعفر محمد بن علي الباقر(عليه السلام) قال : كان علي بن الحسين (عليه السلام) يصلي في اليوم والليلة الف ركعة ـ الى ان قال ـ ولقد بكى على ابيه الحسين (عليه السلام) عشرين سنة ما وضع بين يديه طعام إلاّ بكى حتى قال له مولى له : يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اما آن لحزنك ان ينقضي ؟ فقال له ويحك ان يعقوب النبي (عليه السلام) كان له اثنا عشر ابناً فغيب الله عنه واحداً منهم فابيضت عيناه من كثرة بكائه عليه واحدودب ظهره من الغم وكان ابنه حياً في الدنيا وانا نظرت الى ابي واخي وعمي وسبعة عشر من اهل بيتي مقتولين حولي فكيف ينقضي حزني ؟.

وما هو موقف الفاء في « فهو كظيم » ؟ علّه كعلة لـ « ابيضت عيناه » فالحزن الظاهر المتظاهر يخفف عبءَ الباطن المتكاثر ، وأما إذا كان مكظوماً لا يظهر ، فهو صادر عن القلب ووارد في القلب ، فيحرق القلب ويؤثر على القالب ، ولماذا « عيناه » ؟ طبعاً لمزيد البكاء، وطبعاً ابيضّ سائر شعره مع عينيه ، واحدودب ظهره ، وكل ذلك لعظم الحزن وأنه كظيم لا يظهر حزنه .

﴿ قَالُوا تَا للهِ تَفْتَؤُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ ﴾(٨٥) .

«تفتؤ» هنا منفي بأداته المحذوف (لا)، المدلول عليها ، بترك اللاّم ونون التأكيد في جوابه ، فانهما لزامان لجواب القسم في الإثبات .

« قالوا تا لله لا تفتؤ »: لا تنقطع « تذكر يوسف » آسفاً حزيناً كئيباً ، كلمة حانقة خانقة مستنكرة ، ظاهرها فيه الرحمة تعطفاً على أبيهم ، وباطنها من قبله العذاب تنديداً شديداً بأبيهم ، كيف يأسى على يوسف الفقيد منذ سنين ؟

تدأب في ذكر يوسف « حتى تكون حرضاً » : مشرفاً على الهلاك كما هلكت عيناك « او تكون من الهالكين » والحَرَض ما لا يعتد به ولا خير فيه ،وهذه هلكة الإنسان في كيانه قبل هلاكه بموته ، فلا هو حي كالأحياء ، ولا ميت كالأموات ! وهكذا يتظاهرون لأبيهم في مظهر الناصح المشفق ألاّ يتذوّب بذكر يوسف الفقيد حيث ذهب دون عودة ، ولكنه يرد عليهم رداً حازماً حاسماً جازماً : أنه لا يشكو إليهم ما كان منهم ولا يجزع لديهم :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٨٦) .

البث المقارن للحزن هو الحزن المبثوث حين يغلي مرجله فينبثُّ باختيار ودون اختيار ، حيث يظهر في ملامح الوجه وفلتات اللسان ومعارض الأركان ، والحزن هَمٌّ دونه حيث يملك ستاره ، وشكوى البث والحزن هي الإختياري منهما وقد اختاره يعقوب « إلى الله » لا سواه ، لمكان « إنما » فلا يشكو هما إلى أحد حتى أهله وولده ، وهذه هي قمة الشعور بمقام الربوبية في قلب منقلب إلى الله ، موصول النياط بالله ، في لألاء باهر وجلال غامر .

فليس بعدُ الزمان ، واستنكار الولدان لذلك التطلُّع الدائب بعد هذا الأمد البعيد ، ليسا هما وأمثالها من مؤيسات بالتي تؤثر في أمل الرجل الصالح الواثق بربه ،فإنه يعلم من الله ما لا يعلمون هؤلاء المحجوبون .

ولذلك يدأب في شكواه بثاً وحزناً إليه ، ويمضي حياته عليه ، ولحد ابيضاض عينيه من كمد البكاء دون لفظة قول ولا لحظة عين ولا أية إشارة في شكواه إلى غير الله ، وهنا نضرب بالرواية القائلة خلاف الآية عرض الحائط حين تقول : كتب يعقوب بكتاب له إلى العزيز يشكو فيه كل شكواه ، فحتى لو كان يعلم أنه يوسف ما كان له أن يشكو إليه ، ولكنه لم يعلم[1] أنه هو فكيف يشكو إلى العزيز الذي هو بطبيعة الحال مشركٌ ويستجدّه ويسترحمه في نفسه ؟ ويطلب منه أن يتصدق عليه وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): « من أصبح حزيناً على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه ومن أصبح يشكو مصيبة أنزلت به فإنما يشكو الله ومن

---

(١)نور الثقلين ٣ :٤٦١ ج ١٨٢ في امالي شيخ الطائفة باسناده الى ابي جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام) قال : فلما كان من أمر اخوة يوسف ما كان كتب يعقوب الى يوسف وهو لا يعلم أنه يوسف ....

تضعضع لغني لينال من دنياه أحبط الله ثلثي عمله . . »(١)، ومن بث لم يضبر»(٢)وقد قال يعقوب «فصبر جميل» فقد صبر جميلاً ولم يبث إلا إلى الله لا سواه، وهكذا يكون مَن عند الله، مطمئناً بالله، مجاهداً في الله، جاحداً لغير الله إلاّ في أمر بأمر الله، وكما أمرهم:

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾(٨٧).

فليست الثقة بالله والتكلان على الله بالذي يعطّل التوسل بالأسباب، ويعطل ابتغاء الوسيلة إلى رحمة الله وكما قال الله: « وابتغوا إليه الوسيلة »! وهنا يتجلى ـ وضَحَ الشمس في رابعة النهار ـ أنه كان على علم بحياة يوسف(٣)وطبعاً بوحي من الله، وكما اوّل رؤياه في الأوّل: « وكذلك يجتبيك ربك . . » وقد كرر قوله « إني أعلم من الله ما لا تعلمون » لما ارتد بصيراً: « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم اقل لكم إني اعلم من الله ما لا تعلمون » فكان مما يعلم من الله حياة يوسف!

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣١ ـ اخرج البيهقي في الشعب عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي آخره: ومن أعطي القرآن فدخل النار فأبعده الله.

(٢) المصدر ـ اخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): . . ثم قرأ الآية.

(٣) نور الثقلين ٣ : ٤٥٥ ج ١٦٦ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة وقال الصادق (عليه السلام) ان يعقوب قال لملك الموت: اخبرني عن الارواح تقبضها مجتمعة او متفرقة؟ قال: بل متفرقة، قال: فهل قبضت روح يوسف في جملة ما قبضت من الارواح؟ فقال: لا، فعند ذلك قال لبنيه ويا بني اذهبوا فتحسسوا . . . » ورواه مثله في العلل باسناده الى حنان بن سدير عن ابيه قال قلت لابي جعفر (عليه السلام) . . .

وكأنّ التحسّس والتجسّس سواء في معنى التفتيش لكنها الاوّل في غير شر والثاني في الشر، فالتفتيش عن عورات الناس وأسرارهم المخبوئة التي لا يرضون كشف الستر عنها هو التجسس، وقد منع عنه باتاً «ولا تجسسوا» واما التفتيش عما سواها، ولا سيما الأشياء او الامور التي تخصك من حقك، فهو التحسس، أن تبالغ في استعمال حواسك ظاهرة وباطنة لتجد ضالتك المنشودة، وهكذا يأمر يعقوب بنيه.

«.. اذهبوا» إلى مذاهب التحسس ومظانّه «فتحسسوا من يوسف وأخيه» فكبيرهم لا يُتحسس فإنه في نفس الأرض التي تركتموها، وأخي يوسف الموقوف عند العزيز لا يُدرى مسيره ومصيره فليُسأل عنه العزيز، ويوسف نفسه يُسأل عنه العزيز وغير العزيز، فالمذهب الأول في ذهابكم هو العَزيز وكما ذهبوا إليه.

«اذهبوا فتحسسوا.. ولا تيأسوا من روح الله» كما يشتم لحد تنصحونني الّا أذكر يوسف، فروح الله غير مأيوس منه إلّا لمن يكفر بالله، أو يستر عن معرفة الله برَوحه ورحمته: «ومن يقنط من رحمة ربه إلّا الضالون» (١٥ : ٥٦).

الرُوح والرَوح هما من أصل واحد هو الحياة، واختص الأولى بالنفس كلها، والثانية بنَفَسها وراحتها، وللرَوح كما الرُوح نسبةٌ إلى الإنسان وأضرابه كما في الواقعة: «فأما إن كان من المقربين، فرَوح وريحان وجنة نعيم» (٥٦ : ٨٩) وأخرى إلى الله كما هنا «رَوح الله» تنفيساً منه عن كَرب، كمن يتنفس عن خنق، فيستريح بعد عذاب، فرَوح الله ـ إذاً ـ هي رحمته بعد نقمته، بتنفيسه بعد خنفه وحنقه لخلقه، حيث الرَوح هو تنسيم الريح التي يلذ شميمها ويطيب نسيمها، فشُبّه الفَرَج الذي يأتي بعد الكربة ويطرق بعد اللزبة، بنسيم الريح الذي ترتاح القلوب له وتثلج

الصدور به ، وكما يروى ان « الريح من نفس الله » أي من تنفيسه عن خلقه ، وهذا رَوح في الظاهر ، ومن ثم رَوح في الباطن ينسم على الرُّوح نسمة الراحة بعد الكربة .

فالكافرون بالله بدركاته آيسون من رَوح الله بعد كربه،ولكنما المؤمنون بالله بدرجاتهم لا ييأسون من رَوح الله ورحمته ، ولو أحاط بهم كل كربة ومصيبة ، مستظلين في ظل رَوحه من الكرب الخانق حيث ينسم على أرواحهم من نسمة روح الله الندي ، حيث يشعرون في طمأنينة بنفحاته المحيية الرخيَّة المنفِّسة عن كل كرب .

ورُوح الله المستكن في أبدان المؤمنين ، هو الكافل لرَوح الله ، رَوح في رُوح ورُوح يضمن الرَوح ،فهما لِصقُ بعض في المؤمنين ، كما هما منفيان عن الكافرين !

أجل و « الفقيه كل الفقيه من لم يقنِّط الناس من رحمة الله ولم يؤيسهم من رَوح الله ولم يؤمنهم مكر الله »[1] فإن القنوط من رحمة الله في حد الكفر بالله ، فهو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله[2] .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾(٨٨) .

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٥٦ عن نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين علي (عليه السلام) .

(٢) المصدر في الفقيه في باب معرفة الكبائر التي اوعد الله عز وجل عليها النار عن ابي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام) ، بعد ان ذكر الشرك بالله وبعده اليأس من روح الله لان الله عز وجل يقول : انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

إنه لم يكن في أمر يعقوب أن يذهبوا إلى العزيز إلاّ ضمن ما يتحسس عن بنيامين عنده، فضلاً عن أن يكتب إليه بكتاب يمس من كرامة النبوة والإيمان كما يهرفه المحرِّفون الخارفون، وفضلاً عن أن يطلبوا إليه تصدقاً عليهم شكوىً إليه من الضر الذي مسهم وأهليهم، وهم في هذا اللقاء لم يطلبوا إليه تسريحاً لِبن يامين لا ظاهراً ولا تصريحاً، وإنما المطلوب أولاً وأخيراً إيفاء الكيل ببضاعة مزجاة وتصدقاً زائداً على الإيفاء، اللّهم إلاّ أن تشمله «تصدق» وليس بذلك البعيد، ولكنه ـ إذاً ـ مطلوب ضمني في آخر المطاف، وليكن أولاً لأنه أولى من إيفاء الكيل.

وعلّهم لأنهم في هذه الجيئة الفجيعة لا يرجون من العَزيز تعزيزهم لسابق السرقة من أحدهم فيما يزعمون، لا ينطلق ألسنتهم لإطلاق سراح أخيهم صراحاً، فعلّهم يجربونه بتقديم بيان حالهم وأهليهم، فإذا عرفوا انعطافاً طلبوا إليه طلبهم الأصيل، وقد تطلبوه في «وتصدق علينا».

دخلوا عليه للمرة الثالثة، ولكنها مُرّة فالسَة كالسة، وقد أضرت بهم المجاعة، ومستهم وأهليهم الضر والضراوة، ونفدت منهم كل بضاعة إلاّ مزجاة مقلعة، يدخلون منكسرين منحسرين ما لم يعهد لهم من ذي قبل وعند ذلك تمت كلمة الربوبية: «وكذلك يجتبيك ربك» في واجهته أمام الإخوة حيث ذلوا وانكسروا أمامه.

و «بضاعة مزجاة» كأنها الكاسدة غير الطائلة من متاع قليل رثٌ، لأنها البقية الباقية مما يملكون، حيث المزجاة من الإزجاء الإقلاع قلة إلى قلة كما أن «الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه» فالسحاب مزجاة مقلَعة من مختلف الأبخرة الجوية، قليلة قليلة، فاذا ألفت كثرت، مهما بان البون بين مزجاة ومزجاة!

فـ «بضاعة مزجاة» من هؤلاء الذين مسهم وأهلهم الضُرّ ليست إلاّ

ما يجمع منهم كأخريات البضاعات المتبقّية لديهم حيث قلّت في مس الضر، ورثّت ببأسه، فلم تحصل في هذه المزجاة إلاّ قلة في كمٍّ وقلة في كيف، فهم حين لم يكونوا واثقين ان يُعطَوا كيلاً ببضاعة مُغلاة لسابقهم السوء، يتطلّبون إليه أن يوفي لهم الكيل ببضاعة مزجاة، ثم ويتصدق عليهم، حيث لمسوا فيه سابغ العطف من إيفاء كيل وإنزال خير، حين كانت بضاعتهم وافية، فكيف إذا كانت تافهة مزجاة، فعلّه ـ إذاً ـ يرحمهم ثم ويتصدق عليهم.

هنا ـ وقد بلغ بهم أمرهم الإمر إلى ذلك الحد الحادّ من استرحام في تضيّق وانكسار وانحسار ـ لم يملك يوسف نفسه أن يمضي في تمثيل دور العزيز، فقد انتهت الدروس واندرست عليهم معالم بيت النبوة في ذلك الشخوص كلُّ دروس، وحان حين المفاجأة العظمى التي لا تخطر لهم ببال.. فهنا يتلمع في لمحة لائحة كأنه هو يوسف:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) ﴾.

يرنّ في آذانهم رنّة تجرسهم في أعماقهم، تذكرة لها نبراتها على عُلاتها في يوسف وأخيه إذ هم جاهلون، فهل إنه هو يوسف حيث يخبرنا بما فعلنا بيوسف وأخيه؟ وهو في سمت العزيز وأبهته! وتراهم فعلوا بيوسف وأخيه ما فعلوه وهم جاهلون يوسف وأخاه، ام جاهلون نُكر ما فعلوه؟ فهم إذاً معذورون؟ كلاّ، حيث الجهل هنا التجاهل على عمد، فـ «كل ذنب عمله العبد وإن كان عالماً فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصية ربه»[1] و «هل علمتم» تنديدٌ بهم فيما جهلوا ثم الآن علموا بما

---

(١) مجمع البيان وروى عن ابي عبد الله (عليه السلام) انه قال: كل ذنب... فقد حكى الله سبحانه قول يوسف لاخوته «هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه اذ انتم

فعلوا ، علماً بمدى العصيان في ذلك الطغيان حيث وقعوا في فخه الآن فكيف بما ياتيهم بعد الآن ؟ ! وفي « إذ أنتم جاهلون » تبرير لموقفهم الآن أنهم ليسوا بجاهلين ، فان جهالة الصبا والغرور مضت والآن وقت النُبهة والعلم فالتوبة عما كان .

ثم وفي ذلك تصديق لما أوحي إليه من قبل : « وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » وقد نبههم الآن بما كان وهم لا يشعرون أنك لانت يوسف حتى شعروا بذلك الإنباء ثم علموا بعدما سألوا :

﴿ قَالُوا ءَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٩٠).

سؤال استفهام بكل استعجاب حيث يرونهم أمام يوسف - الصغير الطريد الشريد - صغاراً وصغاراً، وهو الآن ذلك الرجل الكبير الكبير ، فأين « تكونوا من بعده قوماً صالحين » ؟ !

وهنالك لمعة التصديق أننا لمّا نفاجأ بلقاء القائم المهدي روحي وأرواح العالمين لتراب مقدمه الفداء نقول لقد رأيناه مراراً وتكراراً والآن كما كان ، فـ « في القائم (عليه السلام) شبهٌ من يوسف في غيبته ومعرفته »، وكما في متظافر الأحاديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته الكرام (عليهم السلام)(١).

جاهلون » فنسبهم الى الجهل لمخاطرتهم بانفسهم في معصية الله .

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٥٩ ج ١٧٧ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى سدير قال سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول : في القائم شبهة من يوسف (عليه السلام) قلت : كانك تذكر خبره او غيبته ؟ فقال لي : ما تنكر من هذه الامة اشباه الخنازير ؟ ان اخوة يوسف كانوا اسباطاً واولاد انبياء تاجروا يوسف وبايعوه وهم اخوته =

وأكرِم بيوسف وأعظِم بعطفه على إخوته حين يعرِّف بنفسه وأخيه إخوته ، دون أن يعلنهم بما فعلوه إلاّ في إجمال مضى ، وليكون ذريعة منبهة لتعريفه ، وإنما يذكرهم بما منَّ الله عليه وعلى أخيه بما أحسنا في صبرهم وتقواهم ، وفيه لمحة بتنديدهم حيث أساءوا بما طغوا إذ لم يصبروا ولم يتقوا .

وترى ما هو موقف « وهذا أخي » تعريفاً بمن يعرفونه حيث الفصل قصير وهم عارفون أنه عنده ؟ . علّه إلحاق قاصد بنفسه لكي يشملهما معاً كل ما ياتي به من تبجيل وتجليل ، وأن دورهما واحد في البراءة ، وما حسدوا وما من الله عليهما ، ولكي يزيدوا به معرفة كما عرفوا يوسف بمحتده .

والتاكيدات الثلاث في سؤالهم : « ءإنك لأنت يوسف » تكشف عن مدى حيرتهم في أبعاد بعيدة ، ثم الجواب دون تاكيد « قال أنا يوسف » لعدم الحاجة فيه،حيث العزيز أعز من أن يكذب ، ثم لا يحتار في أمر نفسه حتى يؤكِّد .

= وهو اخوهم فلم يعرفوه حتى قال لهم : انا يوسف ، فما تنكر هذه الامة ان يكون الله عز وجل في وقت من الاوقات يريد ان يبين حجته ، لقد كان بينه وبين والده مسيرة ثمانية عشر يوماً فلو اراد الله عز وجل ان يعرفه مكانه لقدر على ذلك والله لقد سار يعقوب وولده عند البشارة مسيرة تسعة ايام من بدوهم الى مصر فما تنكر هذه الامة ان يكون الله عز وجل يفعل بحجته ما فعل بيوسف ان يسير في اسواقهم ويطأ بسطهم وهم لا يعرفونه حتى يأذن الله عز وجل ان يعرفهم نفسه كما اذن ليوسف حتى قال لهم : هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه اذ انتم جاهلون . قالوا ءانك لانت يوسف قال انا يوسف وهذا اخي . . . » ورواه مثله عن سدير عنه (عليه السلام) في الكافي باختلاف يسير .

﴿ قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ(٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾(٩٢).

وذلك منهم اعتراف بفضيلته ورذيلتهم حيث آثره الله عليهم وأذلهم أمامه خلاف ما كانوا يظنون.

وترى هل يأخذه فرح الإيثار وترحه باستكبار، كلّا ما ذلك الظن بذلك العبد الصالح، فإنه يقابلهم بكل تكريم وإكبار، ناجحاً في ابتلاءه بالنعمة كما نجح في ابتلاءه بالنقمة، وهذه هي شيمة الرجال الكرماء وكما فعله الرسول الأقدس (صلى الله عليه وآله وسلم) في فتح مكة حيث «صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أهل مكة ماذا تظنون؟ ماذا تقولون؟ قالوا نظن خيراً ونقول خيراً ابن عم كريم قد قدرت، قال فاني أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»[١] «.. فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام»[٢].

ذلك مهما كان البون بين يوسف ومحمد كما البون بين إخوته واهل مكة، ولكن الكرم نفس الكرم وإن كان درجات.

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٤ - اخرج ابن مردويه عن ابن عباس ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما فتح مكة صعد المنبر ...

(٢) المصدر اخرج البيهقي في الدلائل عن ابي هريرة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما فتح مكة طاف بالبيت ركعتين وصلى ركعتين ثم اتى الكعبة فاخذ بعضادتي الباب فقال ماذا تقولون وماذا تظنون قالوا نقول ابن اخ وابن عم حليم رحيم فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) اقول كما قال يوسف : لا تثريب .. فخرجوا .. وفي نور الثقلين ٢ :٤٦٠ ح١٨٠ في الكافي باسناده عن حريز عن ابي عبد الله (ع) لما قدم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مكة يوم افتتحها فتح باب الكعبة فامر بصور في الكعبة فطمست فاخذ بعضادتي الباب فقال: لا اله إلاّ الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ماذا تقولون ...

« قال لا تثريب عليكم » والثرب شحمة رقيقة هي غاشية الكرش ، والتثريب هو إزالة هذه الغاشية فيبين الكرش ، فهو هنا التقريع والتعييب بالذنب ، وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يثربها » فان في تثريبها مع جلدها اعتداءً عليها باكثر من ذنبها ، وفي تأنيبها دون جلدها تبديل حكم الله إلى غيره !

بذلك الصفح يُنهي موقفهم المخجل الشائن وكأنه هو الذي يعتذر منهم ، فقد انتهى أمري على إمره ولم تعد له جذور ، وإذا كان من حقي اعتداءً بالمثل فأنا أرجِّح العفو « فمن عفى وأصلح فأجره على الله » .

ذلك خطأكم عندي و « لا تثريب عليكم » وأما عند الله فقد « يغفر الله لكم » لأني قد غفرت لكم واستغفرت وإذا أنا ـ العبد المربوب ـ أرحمكم وأغفر لكم ، فبأن يرحمكم الله ويغفر أحرى وأحق « وهو أرحم الراحيمن » لا سيما وأن غضبه لم يكن إلا لاغتصابي باغتصابي عن أبي !

ثم « يغفر الله لكم » قد تجمع بين الإخبار والإنشاء وما أحلاه جمعاً وما أجمعه حلواً .

وهكذا يكون حق الناس ، أن الله لا يغفر لمن ضيّعه إلّا ان يغفره صاحب الحق ، وما أحسنه إذا كان الغافر له هو المستغفر له بجنب استغفار الخاطىء لنفسه بعد اعترافه بالخطيئة .

« لا تثريب عليكم » مني كصاحب الحق الأصيل ، ولا ممن سواي وبأحرى حيث الدخيل زائل بزوال الأصيل « لا تثريب عليكم اليوم » مهما كان عليكم قبل اليوم تثريب وتخجيل كما كان من يعقوب من ذي قبل بحق القول : « قال هل آمنكم عليه إلّا كما أمنتكم على أخيه من قبل . . » (٦٤) «قال بل سولت لكم أنفسكم امراً» (٨٣) وكما كان مني أنا لمّا اتهمتموني وأخي بالسرقة : «قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون»(٧٧) .

فمهما كان قبل اليوم عليكم تثريب مني ومن أبينا ، ولكنا اليوم « لا تثريب عليكم » فيه إذ قد مضى دور الإمتحان والإمتهان، وحان حين اللطف والحنان ، منا ومن الرب الملك المنان .

فـ « اليوم » إنما هو ظرف لـ « لا تثريب . . » دون « يغفر الله لكم » فان قضيته أدبياً تاخيره : « يغفر الله لكم اليوم » ليكون نصاً لمظروفه دون تردد ، ولان غفّر الله لهم ما تمت شروطه بعدُ ولّما يغفرهم يعقوب ويستغفر لهم ! وكما طلبوا إليه « يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم »(٩٨)، ومن ثم فذلك من سوء الأدب والجرئة على الرب أن يقال عنه « يغفر الله لكم اليوم » ولا يملك أحدٌ غفّره ولا وقته حين يغفر، وإنما على العبد أن يستغفر دون تحديد لأصل الغفر أو وقته!.

وإذا كان « اليوم يغفر الله لكم » فما لهم يطلبون إلى يعقوب ان يستغفر لهم وهو يعدهم ، وهذا تكذيب منهم ومن يعقوب لـ « اليوم يغفر الله لكم » ! .

وإنها لضابطة أخلاقية ضابطة على الإنسان زهوة القدرة والرئاسة ، وزهرة النصرة في المعركة ، وقد ازدهى يوسف وازدهر حيث أصبح عزيزاً في بلد الفراعنة ، فجاءت إخوته متصاغرين أمامه ، معتذرين ، ولكنه ينهي أمرهم ويعذرهم لا في حقه فحسب : « لا تثريب عليكم » بل وتطلباً من الله أن يغفر هم : « يغفر الله لكم » ثم البقية الباقية هي غفرة واستغفارة من أبيهم وقد فعل : « سوف أستغفر لكم ربي ».

ومن ثم لا نسمع من يوسف صغيرة بعد ولا كبيرة بحق الإخوة ، إلا محاولة مسرعة في تفريج الكربة عن أبيه ببشارة عملية وقولية :

ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ
وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾
وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ
لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ
ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ
فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ
مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا
كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ
إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾
وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ
هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ
أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ
ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ

رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾
* رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ
ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا
وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟
أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿ إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَرْتَدَّ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾(٩٤).

أترى ما هو « قميصي هذا » ؟ أهو الذي جاؤا عليه بدم كذب ؟ وقد جاؤا عليه وما رجعوه لأنهم ما عرفوه حتى عرّفهم نفسه ! إذاً فهو قميص آخر علّه كان شعاره ، وهم جاؤا على قميصه الدثار بدم كذب !

ومن ثم ترى كيف يجد ريح يوسف من قميصه لّما فصلت العير ،وبينهما زهاء ثمانين فرسخاً ؟ وكيف يرتد بصيراً بعدما كان ضريراً لّما يُلقى على وجهه ؟ إنها من عجاب أمر النبيين الكريمين ولا عجب ، فإنهما إتقيا الله وصبرا لله وأن الله لا يضيع اجر المحسنين .

« قميصي هذا » في هذه الإضافة المشرِّفة دليل على أن القميص اكتسب منه ما اكتسب ، مهما كان له سابق فضل وسابغه أن نزل به

جبرئيل من الجنة لابراهيم فكان لابسَه حين ألقي في النار، ثم انتقل إلى اسحاق فيعقوب فيوسف، ولكن الجنة ليست بأشرف من هؤلاء النبيين بل هم أشرف وأعلى، وأعرف منها وأنبى! فكلٌّ بنفسه جنة لبس قميص الجنة، فكان جُنةً عن نار إبراهيم، وعن جب يوسف، وتوارثه النبيون حتى وصل إلى خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله وسلم) ومنه إلى أوصيائه المعصومين، وهو الآن عند القائم المهدي من آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[1].

ولقد وجد الرسول الأقدس (صلى الله عليه وآل وسلم) ريح أويس القرني على حد قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «تفوح رائحة الجنة من قبل قرن واشوقاه إليك يا أويس القرني ألا ومن لقيه فليقرأه مني السلام..»[2] هذا ولمّا رآه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولمّا رأى

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤٦٣ ح ١٨٧ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى مفضل بن عمر عن ابي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: سمعته يقول: اتدري ما كان قميص يوسف؟ قال: قلت لا ـ قال: ان ابراهيم لما اوقدت له النار نزل اليه جبرئيل (عليه السلام) بالقميص والبسه اياه فلم يضر معه حر ولا برد فلما حضرته الوفاة جعله في تميمة وعلقه على اسحاق وعلقه اسحاق على يعقوب فلما ولد له يوسف علقه عليه وكان في عضده حتى كان من امره ما كان فلما اخرجه يوسف بمصر من التميمة وجد يعقوب ريحه وهو قوله عز وجل حكاية عنه «اني لاجد ريح يوسف لولا ان تفندون» فهو ذلك القميص الذي انزل من الجنة، قلت جعلت فداك فالى من صار هذا القميص؟ قال: الى اهله ثم يكون مع قائمنا اذ اخرج، ثم قال: كل نبي ورث علماً او غيره فقد انتهى الى محمد وآله.

(٢) سفينة البحار ١: ٥٣ روى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انه كان يقول: تفوح .... فقيل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومَن أويس القرني؟ قال: ان غاب عنكم لم تفتقدوه وان ظهر لكم لم تكترثوا به يدخل الجنة في

هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) . فانما الأصل رؤية المعرفة الروحية .

هذان نبيّان يشمان ريح محبوب من مسافة بعيدة ، وقد يشمها بعض المؤمنين وليس بذلك الغريب من فضل الله لمن يتقي الله (١) .

« إذهبوا بقميصي هذا » إلى أبي « فألقوه على وجه أبي يرتد بصيراً » كما كان قبل أن يصير ضريراً « وأتوني بأهلكم أجمعين » بأبوينا وسائر أهليكم أزواجاً وبنين وبنات وأحفاداً لمكان « أجمعين » .

« ولما فصلت العير » وطبعاً من حضرة الصديق فإنه الفصل الاوّل للعير ، دون مَفارق الطرق في أرض كنعان فإن عبارته : « وصلت » دون : « فصلت » ولماذا نفصل نص الخارقة الإلهية عن نفسها ، وصلاً بظاهرة عادية، وما ذلك إلاّ تحويراً لا يبقي دلالة قائمة لنص أو ظاهر .

« ولما فصلت العير » وبينها وبين يعقوب ليال عشر « قال أبوهم » لمن تبقّى عنده من أبناءه ، مما يدل على أنهم ما ذهبوا ليتحسسوا عن يوسف إلاّ نفرٌ منهم «قال : « إني لأجد ريح يوسف لولا أن تُفنّدون » كما فندتموني من

شفاعته مثل ربيعة ومضر ، يؤمن بي ولا يراني ويقاتل بين يدي خليفتي امير المؤمنين علي بن ابي طالب، في صفين وفيه عن امير المؤمنين (عليه السلام) انه اخبره النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه يدرك رجلاً من امته يقال له اويس القرني يكون من حزب الله يموت على الشهادة يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر .
اقول : انه احد الزهاد الثمانية من اخص جواري امير المؤمنين (عليه السلام) .

(١) قال لي صديق تقي من اهل المعرفة ان فلاناً من اهل الله اتاني الى منزلي في المشهد المقدس الرضوي في بعض سفراتي فاستغربت ذلك وقلت له من دلّك على بيتي ولم ادل عليه احداً ؟ قال : دلتني ريحك اشتممت فشممت ريحك فاتيتك !

قبل : « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبته إن أبانا لفي ضلال مبين »(٨).

والتفنيد هو نسبة الإنسان إلى الفَنَد وهو ضعف الرأي ، وقد نسبوه إليه من ذي قبلُ وفيما ههنا مزيد : ﴿ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾(٩٥) .حيث زادوا على القديم «تالله» لأنه زاد في آيات الشغف من حبِّه ، «إني لأجد ريح يوسف » مما يدل على خارقة فيه إلهية ، رغم أن يوسف ـ بزعمهم ـ أدرج إدراج الرياح ، فأين يوسف حتى يوجد ريحه من بعيد أو قريب ، لا سيما وأن أبناءه الحضور ليس لهم علم ولا احتمال بحياة يوسف ، لذلك جن جنونهم بحقه ونسبوه إلى ضلال مبين في وجهه ، بدل أن يداروه ويماروه علّه يانس ـ في زعمهم ـ بظنه ، وتراهم كفروا مرة بعد أخرى بنسبة الضلال المبين إلى أبيهم النبي الكريم ؟ إنها إن كانت نسبة الضلالة في الدين كانت خروجاً إرتداداً عن الدين ، ولكنها ـ بمناسبة الحال ـ ليست إلّا ضلالاً في حب يوسف وأخيه ، إذ كانوا يرونهم أنفسهم ـوهم عُصبة ـأحق من يوسف وأخيه في ذلك الحب ، فظنوا ـ بجهلهم ـ أن أباهم ضال عن الحكمة الأبوية بين ولده تقديماً لمفضولهم على أفاضلهم أم ترجيحاً دون مرّجح ، دون علم بأن ذلك أيضاً كفرٌ بالوحي ، إذ لا يقول النبي ولا يفعل إلّا بوحي !

إلّا أن ذلك ايضاً خروج عن الإيمان بهذه الرسالة السامية كما يحق ، فأصبحوا ـ على حدّ تعبير الامام الصادق (عليه السلام)- « ولا بررة أتقياء »(١) بل هم فسقة أطغياء ، وكما يدل على ذلك استغفار يوسف وأبيه

---

(١) في تفسير العياشي عن نشيط بن صالح البجلي قال قلت لابي عبد الله (عليه السلام) أكان إخوة يوسف (عليه السلام) أنبياء ؟ قال : لا ولا بررة أتقياء ، كيف وهم يقولون لأبيهم يعقوب «تالله انك لفي ضلالك القديم » .

لهم ، والمرتد عن فطرة لا غفران له إلاّ قتلاً .

مضت أيام السفرة الراجعة ، ووقعت مفاجأة بعيدة فوق المفاجأة ، وليعلموا أن وعد الله حق وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، ولقد كان ذلك الريح الذي وجده من رَوح الله الذي أمرهم برجاءِه :

﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٩٦).

وعلّ البشير هو الكبير بينهم وله سابقة سابغة من بينهم حيث دلهم على « أن يجعلوه في غيابت الجب » دون أن يلقوه فيه أو يلغوه يذهب هباءً ، وأخيراً قال لهم « لن أبرح الأرض حتى ياذن لي أبي » فبطبيعة الحال ينتخبه الصديق لهذه البشارة السارة وكما في رواية .

وهنا نرى يعقوب يقول لهم بديلاً عن أي تنديد أو تثريب : « ألم اقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون » من حياة يوسف ، ووجدان ريحه ؟ تنبيها لهم بموقفه من الله فلا ضلال فيه أياً كان وأيان .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ(٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(٩٨).

« يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا» عيٌ في الإستغفار لعُظم الذنوب ، وأنها أضرت بحقه ومست من كرامته ، فليكن هو الذي يستغفر لهم بعدما استغفروا لأنفسهم ، ولأنه نبي مستجاب الدعوة وكما في نبينا : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً » (٤ : ٦٤) .

= وفيه عن سليمان بن عبد الله الطلحي قال لابي عبد الله (عليه السلام) ما حال بني يعقوب هل خرجوا من الايمان ؟ فقال : نعم قلت : فما تقول في آدم ؟ قال : دع آدم .

ومن آداب الإستغفار الإعتراف بالخطأ وقد اعترفوا ، وترى كيف يسوّف أبوهم الإستغفار لهم ؟ وخير البرّ ما كان عاجلَه ، وهو وعدَهم آجِله ! .

ولكن ليس عاجل الخير دوماً خيراً من آجله ، حيث الخير الأجل يفوق عاجله ، فالإستغفار في نفسه خير وعاجله خير على خير ، إلّا أنه خير منه في الآجل المستجاب ، وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) « أخرهم إلى السحر لان دعاء السحر مستجاب »[1] أو « حتى تاتي ليلة الجمعة »[2] او حتى نجتمع بيوسف لانه صاحب الحق الاصيل[3]، لا « لان

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٦ ـ اخرج ابو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لم أخر يعقوب بنيه في الاستغفار ؟ قال : أخرهم .. ورواه مثله في الكافي عن المفضل بن ابي قرة عن ابي عبد الله والفقيه عن محمد بن مسلم عنه (عليه السلام) والعياشي مرسلاً عنه (عليه السلام) وزاد : قال يا رب انما ذنبهم فيما بيني وبينهم فاوحى الله اني قد غفرت لهم .

(٢) اخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال جاء علي بن ابي طالب الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : بابي وامي تفلت هذا القرآن من صدري فما اجدني اقدر عليه فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يـا ابـا الحسن افـلا اعلمـك كلمـات ينفعـك الله بهن وينفـع الله بهن من علمـه ويثـبـت مـا تـعـلـمـتـه في صـدرك ؟ قـال: اجـل يـا رسـول الله (ص) فعلمني ـ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : اذا كانت ليلة الجمعة فان استطعت ان تقوم ثلث الليل الاخير فانه ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال اخي يعقوب لبنيه «سوف استغفر لكم ربي» يقول : حتى تأتي ليلة الجمعة ، فان لم تستطع فقم في وسطها فان لم تستطع فقم في اولها فصل اربع ركعات تقرء في الركعة الاولى بفاتحة الكتاب وسورة يّس وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وحم الدخان وفي الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب والم تنزيل السجدة وفي الركعة الرابعة بفـاتحة الكتـاب وتبارك المفصـل فاذا فرغت من التشهد فاحمد الله واحسن الثناء مع الله وصل علي وعلى سائر النبيين واستغفر للمؤمنين والمؤمنات ولاخوانك الذين سبقوك بالايمان ثم قل في آخر ذلك اللهم ارحمني =

قلب الشاب ارق من قلب الشيخ »[1]!

ام ليختبرهم هل استغفروا خالصاً وتابوا توبة نصوحاً حتى يستغفر لهم ، وكلٌ صالح لتاجيل الإستغفار والجمع أجمل .

وما أجمل تعبير يوسف حيث استغفر لهم : « يغفر الله لكم » دون « غفر الله » فإنه في وجه الإخبار يضرب إلى المستقبل حين لُقيا أبيه ، لأنه أيضاً صاحب حق ، وهو في وجه الإنشاء مشروط بشروطه ومنها أن يغفر الأب ويستغفر ، والصيغة العاجلة للإستغفار هي « غفر الله لكم » والشاملة لها وللآجلة هي : « يغفر الله لكم ».

= بترك المعاصي ابداً ما ابقيتني وارحمني ان اتكلف ما لا يعنيني وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عني اللهم بديع السماوات والارض ذا الجلال والاكرام والعزة التي لا ترام اسألك يا الله يا رحمٰن بجلالك ونور وجهك ان تلزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني وارزقني ان اتلوه على النحو الذي يرضيك عني اللهم بديع السموات والارض ذا الجلال والاكرام والعزة التي لا ترام اسألك يا رحمٰن بجلالك ونور وجهك ان تنور بكتابك بصري وان تطلق به لساني وان تفرج به عن قلبي وان تشرح به صدري وان تغسل به بدني فانه لا يعينني على الحق غيرك ولا يؤتيه الا انت ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم ، يا ابا الحسن تفعل ذلك ثلاث جُمع او خمساً او سبعاً بأذن الله تعالى والذي بعثني بالحق ما اخطأ مؤمناً قط ..

(١و٣)المصدر ٤٦٥ ج ١٩٦ في العلل باسناده الى اسماعيل بن الفضل الهاشمي قال قلت لجعفر بن محمد (عليه السلام) اخبرني عن يعقوب (عليه السلام) لما قال له بنوه : يا ابانا استغفر لنا ... » فاخر الاستغفار لهم ويوسف (عليه السلام) لما قالوا له : «تالله آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين » قال : لان قلب الشاب ارق من قلب الشيخ ، وكان جناية ولد يعقوب على يوسف وجنايتهم على يعقوب انما كانت بجنايتهم على يوسف فبادر يوسف الى العفو عن حقه وآخر يعقوب العفو لان عفوه انما كان عن حق غيره فاخرهم الى السحر ليلة الجمعة .

فـ « سوف أستغفر لكم ربي» تسوِّف إستغفاره لهم لتحقق الغفر تماماً ، وأما هو فقد غفرهم حالاً دون نظرة الإستقبال ، وهنالك يتم الإستغفار بشروطه وقتاً وحقاً وحقيقة .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ(٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾(١٠٠).

وتراهم « دخلوا على يوسف » في قصره ؟ فماذا يعني - إذاً - بقوله « ادخلوا مصر .. » وهم داخلون ، فان قصره في أدخل دواخل البلد وأفضله؟ «أدخلوا» لمحة لامعة أنه استقبلهم إلى خارج مصر و «دخلوا » توحي بانه أعد لهم خارجه بيتاً أم فسفاطاً يليق بنزولهم .

ويا له من مشهد لطيف عطيف في اللقيا الأولى بعد كروز الأعوام بامتحانات وإمتهانات ، وبعد الأشواق المضنية والأحزان الكامدة الهامدة ، واللهوف الظامئة ، حافل بخنقات وأنفعالات ، وفرحات ودموعات .

ذلك المشهد الختامي السامي ، الموصول بالمطلع الدامي ، مما يحير العقول ويذكر أولي الألباب .

هناك من يوسف خطوات أربع رائعات بين فعلة وقالة ، كلها تكريمات لهم ولا سيما أبويه ، وبينها فعلة منهم لديه: ١ « آوى إليه أبويه » ضمهما إليه يُطمئنهما بمأواهم لديه وعلى يمنيه ، حيث الإيواء ضم إلى مأوى وملجأ ومن الدليل عليه :

٢ - « وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » دخولاً إن شاء الله ؛

وآمنين إن شاء الله ، فان في سماح الدخول الى بلد الفراعنة-فضلاً عن الأمن فيه - ما فيه ، ولذلك يصدر أمره كملك للمملكة إزاحة لكل الحواجز وإراحة لخواطر الوافدين ليأمنوا كل الأمن منذ وفودهم ، وانه ليست زيارة مؤقتة بحاجة إلى تاشيرة خاصة ، فإنما هو الوفود الخلود مدى الحياة ما دام للملكه وجود .

٣ - « ورفع ابويه على العرش » فعلة ثالثة هي أرفع من الأولين حيث رفعهما إلى عرشه ما لم تسبق له سابقة في زمرة الملوك ، وما أدري هل ارتفع هو على عرشه لما رفعهما عليه أم بقي تحت العرش ؟ لا دلالة هنا ولا تلميحة نفياً وإثباتاً ، ثم العرش بطبيعة الحال هو عرش الملك الكائن مكان القصر دون خارج البلد حيث استقبلهم.

٤ - « وخروا له سجداً ».

« خروا » جمعا تعنيهما مع إخوته وكما رأى في المنام « احد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » وهنا يقول بعد خرور السجدة « يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل . . ».

أتراهم - بمن فيهم من أبيه وأمه - سجدوا له سجودهم لله ؟ وذلك من المحرمات القطعية الأولية في كافة الشرايع الإلهية !

أم سجدوا له كعادة عائدة إلى سنة الفراعنة حيث كانوا يسجدون لهم ؟ وليس يوسف فرعوناً يُسجد له كما لفرعون! وليس نبي الله يعقوب ممن يساير المشركين في الطقوس الشركية !

أم سجدوا له إحتراماً لديه دون عبوية وعبادة ؟ وسجدة الإحترام لغير الله إحترام لساحة الله وتسوية بالله : « تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين » ! ثم الوالد النبي كيف يحترم ولده لحد السجود ،

ولو جاز أن يسجد أحد لأحد لكان يوسف هو الذي يسجد لأبويه لعظم حرمة الوالدين!

أم كان يوسف قبلة لهم في ذلك السجودة دون عبودية ولا إحترام؟ وسجود القبلة سجود إليها، لا سجود لها، وهنا «خروا له سجداً»! ثم القبلة توقيفية وليست فوضى جزاف، ولكل شرعة قبلة يشرعها الله!

أم - وعلى حد المروي عن الإمام الرضا (عليه السلام) - «أما سجود يعقوب وولده فإنه لم يكن ليوسف وإنما كان من يعقوب وولده طاعة لله وتحية ليوسف كما كان السجود من الملائكة لآدم ولم يكن لآدم وإنما كان منهم ذلك طاعة لله وتحية لآدم، فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً لله لاجتماع شملهم ألم تر أنه يقول في شكر ذلك الوقت: «رب قد آتيتني من الملك..»؟[1].

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٦٨ ح ٢٠٩ - القمي حدثني محمد بن عيسى ان يحيى بن اكثم سأل موسى بن محمد بن علي عن مسائل فعرضها على ابي الحسن (عليه السلام) وكان احدها : اخبرني عن قول الله عز وجل «ورفع ابويه على العرش وخروا له سجداً» سجد يعقوب وولده ليوسف وهم انبياء؟ فأجاب ابو الحسن: اما سجود... اقول «وهم انبياء» يؤول الى يوسف ويعقوب دونهم ام يطرح كما يطرح ذيل الحديث: «فنزل عليه جبرئيل فقال له يا يوسف اخرج يدك فاخرجها فخرج بين اصابعه نور فقال يوسف ما هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذه النبوة اخرجها الله من صلبك لانك لم تقم الى ابيك فحط الله نوره ومحى النبوة من صلبه وجعلها في ولد لاوى اخي يوسف وذلك لانهم لما ارادوا قتل يوسف قال: لا تقتلوا يوسف والقوه في غيابت الجب» فشكره الله على ذلك لانهم لما ارادوا ان يرجعوا الى ابيهم من مصر وقد حبس يوسف اخاه قال: لن ابرح الارض حتى يأذن لي ابي..» فشكر الله له ذلك وكانوا انبياء بني اسرائيل من ولد لاوي بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم وكان موسى من ولده وهو موسى بن عمران بن يهصر بن واهث بن لاوي.

فكما ان آدم كان مسجوداً له شكراً لله ، لا مسجوداً له عبادة له واحتراماً كما لله ، كذلك يوسف كان مسجوداً له شكراً دون عبادة او احترام ،لا سيما إذ كان ساجداً معهم !

أترى ـ بعد ـ ان يوسف انتقص من حرمة أبويه أن « دخله عز الملك فلم ينزل إليه » حتى يجزي بانقطاع النبوة عن نسله ؟[1] وقد استقبلهما إلى خارج مصر وقال ما قال وفعل ما فعل بحرمتهم وكرامتهم !

أو تراه لم يترجل لأبيه حين لُقياه وقد ترجل له ابوه[2] ؟ أن « اخذته

ثم أقول وفقاً لصدر الحديث يروى القمي عن ابي الجارود عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : لما دخلوا عليه سجدوا شكراً لله وحده حين نظروا اليه وكان ذلك السجود لله وفي تفسير العياشي عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : كان سجودهم ذلك عبادة لله .

(١) نور الثقلين : ٢ : ٤٦٦ ح ٢٠١ في اصول الكافي عدة من اصحابنا عن احمد بن محمد عن مروك بن عبيد عمن حدثه عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ان يوسف لما قدم عليه الشيخ يعقوب (عليه السلام) دخله عز الملك فلم ينزل اليه فهبط جبرئيل (عليه السلام) فقال يا يوسف ابط راحتك فخرج منها نور ساطع فصار في جو السماء فقال يوسف يا جبريل ! ما هذا النور الذي خرج من راحتي ؟ فقال : نزعت النبوة من عقبك عقوبة لما لم تنزل الى الشيخ يعقوب فلا يكون من عقبك نبي .

(٢) المصدر ح ٢٠٣ في كتاب علل الشرايع باسناده الى يعقوب بن يزيد عن غير واحد رفعوه الى ابي عبد الله (عليه السلام)قال : لما تلقى يوسف يعقوب ترجل له يعقوب ولم يترجل له يوسف فلم ينفصلا من العناق حتى اتاه جبرئيل فقال له : يا يوسف ترجل لك الصديق ولم تترجل له ابسط يدك . . . وباسناده الى هشام بن سالم عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : لما اقبل يعقوب الى مصر خرج يوسف ليتقبله فلما رآه يوسف هم بان يترجل ليعقوب ثم نظر الى ما هو فيه من الملك فلم يفعل فلما سلم على يعقوب نزل عليه جبرئيل (عليه السلام) فقال له يا يوسف ان الله تبارك وتعالى يقول لك ، ما منعك ان تنزل الى عبدي الصالح ما انت فيه ؟ ابسط يدك . . . فقال ما هذا يا جبرئيل فقال : انه لا يخرج من صلبك نبي ابداً عقوبة لك بما صنعت بيعقوب إذ لم تنزل اليه .

العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد » (٣: ٢٠٦) و « آوى إليه أبويه » تركل وترجل ذلك الترجل المدسوس الذي يمس من كرامة النبوة !

ففي ذلك الايواء كل مراحل التكريم والتعظيم ، ومن ثم « رفع أبويه على العرش » تكملة له وتتميم ! فكيف « أخذته العزة بالاثم » ؟! ولم تزدده عزة الملك إلا تواضعاً وتواطئاً .

ولئن دخله عز الملك - لا سمح الله - فلم ينزل إليه ولم يترجل فهل يستحق بذلك انقطاع النبوة عن نسله ؟ « ولا تزر وازرة وزر أخرى » لو كان هناك وزر ! وهل كان وزره المفترى أوزر من وزر لاوي أخيه الأكبر وقد شاركهم في استلابه عن أبيه ، وأفجعه طيلة سنين حتى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم واحدودب ظهره فهو هضيم ؟ حيث يجعل الله النبوة في نسله شكراً لما نهاهم عن قتله ، ولأنه لم يبرح الأرض حتى يأذن له أبوه ! ولئن كان مشكوراً - وهو مشكور - كان ذلك على هامش الحفاظ على حياة يوسف ، واحترام أبيه بعد اخترامه ، فكيف - إذاً - يُشكر هو دون يوسف ، فتقطع النبوة من نسله وتوضع في نسل اللاوي وكيف يفترى على الصديق انه ترك الإحسان إلى أبويه أو أهانهما ، تركاً لأعم الواجبات وأهمها أمام الوالدين !

ثم انتسال النبوة من صلب دون صلب لا يفضّل الأول تنديداً بالآخر، فهل كان في انتسال الإمامة من صلب الحسين (عليه السلام) تفضيلاً له على أخيه الحسن ، وتنديداً بالحسن « والحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا » .

وبعد ذلك كله كيف تنتزع النبوة المقدرة في نسل عنه وهو تخطئة في التكوين والتشريع معاً ، فهلا علم الله ذلك من يوسف فقدّر النبوة في

نسله ، ثم لما حصل ما حصل فصلها عن نسله ؟ ثم النسل ليس إلا في الصلب فكيف سلبه جبرئيل من راحته ؟!

إن هذه إلا خرافات إسرائيلية اختلقت في احاديثنا بأيدي الجعل والتجديف ، فليعرض عرض الحائط لمخالفتها لكتاب الله وضرورات من دين الله .

« ... وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً .. » و « هذا » تعني كل ما حصل ما من إجتباء وإصطفاء ومنه « خروا له سجداً » ثم يذكر قسماً من فواضله : « وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن » وهذا دليل براءته عن فرية إنساء الشيطان إياه ذكر ربه ، فان خروجه من السجن كان من نتائج « اذكرني عند ربك .. » وليس إحسانه تعالى به مجرد إخراجه من السجن وإلا كان إدخاله فيه إساءة وهو الذي طلبه فاستجيب له : « رب السجن أحب إلي ... فاستجاب له ربه .. » وإنما هو إحسان إذ أخرجه إخراجاً حسناً تصحبه براءته مما أدخله السجن ، فلم يقل « أحسن بي أن أخرجني » بل « إذ أخرجني » إحساناً في كيفية الإخراج دون أصله ، وكما أحسن إليه إذ دخل السجن حيث صرف به عنه كيدهن .

« وجاء بكم من البدو » حيث كانوا يسكنون البدو فأسكنهم يوسف في مصر « من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » وذلك الذيل « العليم الحكيم » يعطف بالقصص إلى أوله إذ قاله يعقوب حين أوَّل رؤياه « إن ربك عليم حكيم » ختام المسك كبداية .

وما ألطفه تعبيراً عما حسده إخوته وأجرموا بحقه « من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين أخوتي » فالشيطان هو الشرير الأصيل في ذلك المسرح ،

والنزغ هو الدخول في أمر لإفساده ، فقد دخل الشيطان فيما حسدوا فدخل حتى عمّقه إذ حقّقهم « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » (٤١ : ٣٦) .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ (١٠٢) .

وهذه شيمة الصالحين الذين لا تأخذهم العزة بالإثم ، فلا ينسون في مُلكهم وعزتهم ربهم ، ولا تأخذهم زهوة الملك وزهرته، فكيف يفتري على الصديق أن دخله عز الملك فلم ينزل إلى أبيه ؟!

وصاحب المُلك المسلم ، المعترف برحمة ربه ، يطلب الزيادة في ملكه ، ولكن هذا المَلِك الصدّيق بعدما يعترف بالعطية الإلهية كنعمة دنيوية : « رب قد آتيتني من الملك » وبأخرى هي نعم العلم النبوة : « وعلمتني من تأويل الأحاديث» عطفاً بهما إلى عطفه ولطفه لأنه « فاطر السماوات والأرض » واعترافاً بولايته المطلقة عليه : « أنت وليي في الدنيا والآخرة» فأنت المدبر أمري فيهما ، ليس لي إلا ما دبرت وقدرت ، دون أن أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فأنت أنت الولي لا ولي سواك ، وأنا العبد المولّى لك لا أعبد سواك .

بعد ذلك كله لا يطلب منه إلا إسلاماً في الدنيا وصلاحاً في الآخرة : « توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » والتوفي هو الأخذ وافياً على أية حال ، في الدنيا وحين الموت وفي الآخرة حالكوني « مسلماً » كما طلبه أبي إبراهيم : «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك» وأنا من ذريته، وذلك الإسلام هو مرتبة بعد كمال الايمان ، دونما كان قبل الإيمان او معه ، فإنما

الإسلام الخالص الناصع بقمته العليا ، فخذني وافياً باسلام « وألحقني » هنا وفي الآخرة « بالصالحين » وهذا من غاية التواضع عند الله أن صالحاً كالصديق يطلب منه إلحاقه بالصالحين وهم ـ بطبيعة الحال ـ مَن هو أصلح منه في مثلث الزمان ، فلم يكن الصديق يطلب هنا موته كما يقال ، فان حياة الرسول نعمة له وللمرسل إليهم ، ولم يكن سؤاله في توفيه مسلماً إلا تثبيتاً له في إسلامه طول خط الحياة حتى الممات ، لا أني مسلم فتوفني موتاً ، ولا إجعلني مسلماً حين أموت ، ولا أن احداً من الأنبياء لم يسأل الموت إلا يوسف ! حيث يسأله كل الصالحين : « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » (٣: ١٩٣) « .. ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » (٣: ١٢٦) .. فحتى إذا كان ذلك سؤالاً للوفاة فليس إلاّ لأجله المسمى ، أن يكون حال الإسلام ، إستمرارية لحد الوفاة .

ولقد وردت روايات أن يوسف (عليه السلام) عاش بعد لُقياه ردحاً كثيراً من الزمن(١) وقد تشير له الآية : « ولقد جاءكم يوسف من قبل

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٧٣ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة ، باسناده الى محمد بن جعفر عن ابيه عن جده عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : عاش يعقوب بن اسحاق مائة واربعين سنة وعاش يوسف بن يعقوب (عليه السلام) مائة وعشرين سنة،اقول اكثر ما كان في بيت العزيز وفي السجن وفي ملكه قبل لقياه بابويه عشرون وكان قبله مراهقاً دون تكليف زهاء تسعة الى ثلاثة عشر فذلك دون الاربعين فيبقى ثمانون وكما في المجمع في كتاب النبوة بالاسناد الى محمد بن مسلم ـ الى قوله ـ وبالاسناد عن ابي خالد عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : دخل يوسف السجن وهو ابن اثني عشرة سنة ومكث فيه ثماني عشرة سنة وبقي بعد خروجه ثمانين سنة فذلك مائة سنة وعشرين سنين . .

أقول : ليس دخوله السجن إلا بعد بلوغه الحكم وبالامكان كونه الثاني عشر من عمره .

بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً » (٤٠: ٣٤) فليعش يوسف في بني اسرائيل فترة حتى يصدق « لقد جاء » وليس ذلك إلا منذ ذلك اللقيا لفترة طائلة تناسل فيها آل إسرائيل ، ام بعد وفاة يعقوب[1]!.

اتراه - بعد - يزهو بزهوة الدنيا وزهرتها لحد ينسى أبويه فلا يترجل لهما أن دخله عز الملك .

ومما يحيرالعقول نقل هذه الأحاديث الزور من المختلقات الإسرائيلية في جوامعنا الروائية والتفسيرية دون نقد ، ويكأنها هي الأصل وكتاب الله هو الفرع ، فإذا ورد حديث في شيء لا يُسأل عن آيته وإن كان ضعيفاً فضلاً عن صحته في سنده ، وإذا وردت آية يُسأل عن حديثها الذي يفسرها ، فان لم يرد حديث يبطل معنى الآية!

وإن ورد- ولا سيما بسند صحيح- فهو الذي يفسر الآية وإن كان خلاف ظاهرها أو نصها ، وهذا هو التعامي عن أصالة الكتاب إلى أصالة الحديث ، وذلك ترك للأصلين وهجرٌ للقرآن وفيه « وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » والآن كما كان وعلى طول الخط في التاريخ الإسلامي مما سبّب اختلاف المذاهب واختلاق البدع

---

(١) مجمع البيان في كتاب النبوة باسناده عن محمد بن مسلم عن ابي جعفر (عليه السلام) قال قلت له : كم عاش يعقوب مع يوسف بمصر؟ قال : عاش حولين قلت : فمن كان الحجة لله في الأرض يعقوب ام يوسف؟ قال : كان يعقوب وكان الملك ليوسف فلما مات يعقوب حمله يوسف في تابوت الى ارض الشام فدفن في بيت المقدس فكان يوسف بعد يعقوب الحجة قلت : فكان يوسف رسولاً نبياً؟ قال : نعم اما تسمع قوله عز وجل : « لقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات .. »؟..

الجارفة .

« ذلك » الذي قصصنا عليك هو « من أنباء الغيب » فالتوراة ينقله محرفاً منكوساً، والأحاديث ـ إلاّ ما وافق القرآن ـ تأتي به مندرساً مركوساً . واما انت يا رسول الهدى « وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم » الأمر في الصديق « وهم يمكرون » ماذا يفعلون ، وليكونوا من بعده قوماً صالحين .

هكذا يقص الله من أحسن القصص في يوسف وإخوته آيات للسائلين ، فما صار بعد العزيز وامرأته والمَلِك بعدما أصبح يوسف هو العزيز بل والملك ؟ لا ندري إلا ما تُدرينا أحاديث حول امرأة العزيز ومنها ما يروى عن باقر العلوم (عليه السلام) قال : لما أصابت إمرأة العزيز الحاجة قيل لها لو اتيت يوسف بن يعقوب (عليه السلام) فشاورت في ذلك فقيل لها : إنا نخافه عليك قالت : كلا إني لا أخاف من يخاف الله فلما دخلت عليه فرأته في ملكه قالت : الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته ، وجعل الملوك عبيداً بمعصيته فتزوجها فوجدها بكراً فقال : أليس هذا أحسن؟ أليس هذا أجمل ؟ فقالت : إني كنت بليت منك بأربع خصال : كنت أجمل أهل زماني، وكنتُ أجمل اهل زمانك وكنتُ بكراً وكان زوجي عِنّيناً[(١)] .

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٧٣ ج ٢١٩ في آمالي شيخ الطائفة باسناده الى ابي جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام) قال : . . .

اقول وفيه ٤٧١ : ٢١٧ في كتاب علل الشرايع باسناده الى عبد الله بن المغيرة عمن ذكره عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : استأذنت زليخا على يوسف فقيل لها : انا انكره ان نقدم بك عليه لما كان منك اليه قالت : اني لا اخاف من يخاف الله فلما دخلت قال لها : يا زليخا ما لي اراك قد تغير لونك ؟ قالت : الحمد لله الذي جعل الملوك بمعصية عبيداً وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً فقال لها : ما الذي دعاك الى ما كان =

وليس بذلك البعيد ان يتزوجها يوسف تركيزاً لركيزة الإيمان في قلبها ولأنها - على خيانتها - صدقته أمام نسوة في المدينة وأمام الملك : « الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه » ولا بد لها من يد بيدها ولا سيما حين اليأس والإ ياس ولات حين مناص ، فتجد عند من خانته الخلاص فتؤمن بالله بكل إخلاص !

= منك قالت : حسن وجهك يا يوسف فقال : كيف لو رأيت نبياً يقال له محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يكون في آخر الزمان أحسن مني وجهاً وأحسن مني خلقاً وأسمح مني كفاً ؟ قالت : صدقت قال : وكيف علمت اني صدقت ؟ قال : لأنك حين ذكرته وقع حبه في قلبي فاوحى الله عز وجل إلى يوسف إنها قد صدقت واني قد احببتها لحبها محمداً فامره الله تبارك وتعالى أن يتزوجها .

وفيه ج ٢١٨ في تفسير القمي حدثني محمد بن عيسى ان يحيى بن اكثم سأل موسى بن محمد بن علي بن موسى مسائل فعرضها على ابي الحسن وكان احدها اخبرني عن قول الله عز وجل «ورفع ابويه على العرش وخروا له سجداً» - وقد سبق صدر الحديث - قال (عليه السلام) ولما مات العزيز في السنين الجدبة افتقرت امرأة العزيز واحتاجت حتى سألت فقالوا لها : لو قعدت للعزيز - وكان يوسف سمي العزيز وكل ملك كان لهم سمي بهذا الاسم - فقالت استحي منه ، فلم يزالوا بها حتى قعدت له فاقبل يوسف في موكبه فقامت اليه فقالت : سبحان الذي جعل الملوك بالمعصية عبيداً و جعل العبيد بالطاعة ملوكاً فقال لها يوسف : انت تيك ؟ فقالت : نعم - وكان اسمها زليخا - فقال لها : هل لك فيّ؟ قالت : دعني بعد ما كبرت اتهزء بي؟ قال : لا - قالت : نعم فامر بها فحولت الى منزله وكانت هرمة فقال لها : الست فعلت بي كذا وكذا فقالت يا نبي الله لا تلمني فاني بليت ببلية لم يبل بها احد قال : وما هي ؟ قالت : بليت بحبك ولم يخلق الله لك في الدنيا نظيراً وبليت بانه لم يكن بمصر امرأة اجمل مني ولا اكثر مني مالا فزعاً مني وبليت بزوج عنين فقال لها يوسف : فما تريدين ؟ فقالت : تسأل الله ان يرد علي شبابي فسأل الله فرد عليها شبابها فتزوجها وهي بكر .

وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ
بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ
لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم
بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ
عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾
قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ
ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ
أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ
ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ
أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ
قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا

عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ
عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن
تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ(١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾(١٠٤).

هذه هي الشيمة الشنيعة لأكثر الناس لأنهم لا يجنون إلى ايمان ، حال أنك «وما تسألهم عليه من أجر» فكيف لو سألتهم من أجر على أعباء الرسالة الذكرى ، ولو كانوا يحبونها لكانوا يُقبلون إليها ويَقبلونها ولو بأجر مهما بلغ به الأمر.

وقد كان رسول الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) حريصاً على هداهم منذ البداية حتى أشار له الوحي الحبيب : «إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل» (١٦ : ٣٧) مع العلم أنه لا يُضل إلّا من يَضل على عمد : «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» فانحصر حرصه في المؤمنين وانحسر عن الكافرين الذين أضلهم الله بما ضلوا : «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عَنِتُّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» (٩ : ١٢٨).

وعلّ «لو» في آيتنا تشير إلى أنه لن يحرص بعد على هدى أكثر الناس رغم حبه هداهم ، فيسلّيه الوحي الحنون : «وما أكثر الناس ولو حرصت

بمؤمنين » مما يدل على أن قصص يوسف كان مما تساءلوه فيه فأجاب الله عن سؤالهم ولكن أكثرهم لم يعتبروا بها و «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» مما يدل على أن هناك فرية الإفتراء في هذا القصص كما في سواه ، تعنتاً عن الإيمان وتعنداً في الكفر بالإيمان «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله» !

ثم «إن هو إلّا ذكر للعالمين» حصر للقرآن ونبيه في كيان الذكر حيث يذكّر الفِطَر والعقول بما له فيها كل تصديق وقبول ، وتعميم لهذا الذكر المتعالي «للعالمين» ونحن نعرف منهم عالم الأنس والجن ، وليكن هناك عالم أو عوالم أخرى تشملهم هذا الذكر كتكليف عام لكي يصدق «للعالمين»: «قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكر للعالمين» (٦: ٩٠) «وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين» (٢١: ١٠٧) «تبارك الذي نزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً» (٢٥: ١).

هذا و «إن هو الا ذكر للعالمين» نجده في (٣٨: ٨٧) و «٨١: ٢٧) ثم في (٦٨: ٥٢) «وما هو إلا ذكر للعالمين» رسالة عالمية بكتاب عالمي في ذكرى عالمية ، لا ـ فقط ـ عالم الإنس ، بل «للعالمين» مجموعة عوالم التكليف ، من الجنة والناس أجمعين أمن هو من العالمين؟.

وهذه الأكثرية غير المؤمنة هي المعرضة عن الآيات الأفاقية كما الأنفسية فأنى لها الذكرى بعد هذه التعمية :

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ﴾(١٠٥).

وترى تلك هي آيات في الأرض يمرون عليها حيث هم ساكنوها وعائشوها، فما هي آيات في السماء يمرون عليها وهم بعيدون عنها ، وليست

رؤيتها من بعد بعيون مجردة أم ومسلحة مروراً عليها ، وإنما هي نظرة إليها ؟

علّ المرور هنا تعني فيما عنت مرورات على آيات السماء بأسفار فضائية، مروراً عليها بأبصار وبصائر، وتعرفاً إليها بآثارها وخواصها الرائعة، ولكنهم يبصرون إليها فتعميهم، دون أن يبصروا بها فتبصّرهم ، وذلك هو إعراضهم عنها كآيات تدل على بارعها .

فاعل « يمرون » هم الأكثرية الذين لا يؤمنون ، والآيات الأرضية أعم من الظاهرة لكل أحد ، والباطنة التي يستبطنها ويستنبطها أهلوها من علماء ومخترعين ومكتشفين في مثلث الزمان ، فتشمل المكتشفات الذرية وما فوق الذرية أماهيه مما هي مخبوئة في الأرض ظاهرها وباطنها وجوها الذي يخصها ، فكل هذه من آيات الأرض التي « يمرون عليها » كذ رائع لحيوَنة الحياة ورياحتها « وهم عنها » كآيات تدل على بارئها وبارعها « معرضون » والإعراض هنا لمحة لامعة أن هذه الآيات بطبيعة الحال لها دلالات بارعة ، ولكنهم يعرضون عن دِلالاتها إلى دَلالاتها والحاجيات الحيوانية التي يقصدونها منها .

ثم الآيات السماوية لهم عليها مرورات ثلاث في مثلث الزمان ، مروراً بالعيون المجردة كما كان زمن نزول القرآن وحتى ردح بعيد من الزمن ، ثم مروراً بالعيون المسلحة بالعدسيات القوية التي تُريهم أجراماً سماوية بفواصل هائلة في ملايين السنين الضوئية ، كما حصل منذ زمن غير بعيد .

ومن ثم مروراً بالاسفار الفضائية بالصواريخ والسفن الفضائية التي حلّقت على كرات كالقمر والزهرة أماهيه ، وكما صعدت جماعة كافرة فنزلت

على القمر فصعّدت نكرانها لوجود الله في قالة لبعضهم : لم نجد الله هناك فأين هو حين لا يرى في أرض ولا في سماء ؟.

وقد تعني آية النظر فيما تحتدى ما تعنيه آية المرور : « قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (١٠ : ١٠١) وأقرب النظر هو الأقرب في المنظر وليس إلا في غزو الفضاء كما غزوا ولكنهم « قوم لا يؤمنون » ثم المؤمنون لما يغزوا ليقضوا ما عليهم[١].

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾(١٠٦).

آية فريده منقطعة النظير في سائر القرآن تجمع بين الشرك والايمان ، زترى كيف يجتمع الشرك مع الايمان ولا يجتمع مع الإسلام الذي هو قبل الايمان ، ولا سيما الإسلام الذي يوافق ولا ينافق كما « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم » (٤٩ : ١٤) ؟

قد يجمع بينهما أن الايمان درجات كما الشرك دركات ، فالإيمان المطلق الذي لا يمازجه أي شرك هو القمة العليا بأعلى عليين ، وبَعده مطلق الإيمان حيث يمازجه أي شرك ، والشرك المطلق ام نكران وجود الله تعالى الذي لا يمازجه اي ايمان وهو بأسفل سافلين ، وبعده مطلق الشرك حيث يمازجه ايّ ايمان إلّا الإيمان المطلق ، فمطلق الايمان ومطلق الشرك هما بدرجات ودركات متوسطات بين الإيمان المطلق والشرك المطلق ، وقد

(١) راجع تفسير آية الشورى «ومن آياته خلق السماوات والارض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم اذا يشاء قدير » وآية الرحمن : وان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السماوات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان » .

تعني الآية من الإيمان مطلقه لا الايمان المطلق، ومن الشرك مطلقه لا الشرك المطلق ، وبذلك يجتمع الشرك والإيمان .

فالايمان بوجود الله يقابله الإلحاد به بنكرانه وهو الكفر المطلق، والإيقان بوجود الله فالإيمان به يجتمع مع كافة دركات الشرك ، في ذاته ، وصفاته ، وافعاله ، في خالقيته ، ومعبوديته ، وآثاره ، في عبوديته وبعبادته ، وفي طاعته ، في الإتجاه المطلق اليه علماً وعملاً وعقيدة ونية أما هيه .

فكل درجة من درجات التوحيد تقابلها دركة من دركات الشرك .

وعلّ «أكثرهم » في الآية هم من الأقلية المؤمنة ، حيث «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » ثم الأقلية المؤمنة بوجوده أو الموحدة له : «وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون» حيث يتدسس الشرك في صورة من صوره أم صورٍ منه إلى علومهم وحلومهم وعقولهم وأفكارهم وأعمالهم وألفاظهم أماذا من سرهم وعلانيتهم . فالإيمان المطلق الخالص في كافة مراتبه يحلّق على كيان الإنسان ككل ، دون فلتة ولا لفتة ، بعيدة عن كل خالجة داخلة أو خارجه تحيك بالإنسان .

فمن المؤمنين مَن يؤمن بوجوده تعالى ولكنه يشرك به !

ومنهم من يوحده في خالقيته ويشرك به في العبادة ان يعبد معه غيره ، ام يعبد غيره تاركاً لعبادته !

ومنهم من يوحّده في العبادة ولكنه يشرك في عبادته رئاء الناس !

ومنهم من يوحده في كل ذلك ولكنه يشرك به في طاعته وهذا يشمل كافة العصات !

ثم ومنهم من يوحّده في شخصه ولا يوحده في ذاته كالمجسمة ، او

يوحده في ذاته دون صفاته كالقائلين بتعدد تلكم الصفات في واقعها ، أم وحدتها وزيادتها على الذت .

ومنهم من يوحده في ذلك ولكنه يشرك به في أفعاله خلقاً أو تقديراً او توفيقاً وأضرابها من إختصاصات الألوهية !

ومنهم من يثنّيه او يثلّثه على وحدته بتأويلات لاهوتية هي ويلات فلسفية غير عقلية !

ومنهم من يرى وحدة حقيقته الوجود بين الله وخلقه أو الوحدة في الكثرة والكثرة في الوحدة !

وأمثال ذلك من الإشراك بالله التي يجمعها الإلحاد في اسماء الله ، وكما قال الله : «ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون» (٧ : ١٨٠) «فهم الذين يلحدون في أسمائه بغير علم فيضعونها غير مواضعها»(١).

والإلحاد هو الميل عن الحق ، وهو في أسماء الله بين أن يسمى الله بغير أسمائه الحسنى ، أو يسمى غير الله بأسمائه تعالى ، سواء أكان إلحاداً عقيدياً أو عملياً أم في نية أو قالة أما هيه ؟

---

(١) نور الثقلين ٢: ٤٧٥ ح ٢٢٩ في كتاب التوحيد باسنادة الى حنان بن سدير عن ابي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه : ولله الاسماء الحسنى التي لا يسمى لها غيره وهي التي وصفها في الكتاب فقال «فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في اسمائه» جهلاً بغير علم فالذي يلحد في اسمائه بغير علم يشرك وهو لا يعلم ويكفر به وهو يظن انه يحسن فلذلك قال «وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون» فهم الذين يلحدون . . .

فمن يشرك بعبادة ربه رغم توحيده في عبادته يلحد في ألوهية العبادة بالنية : «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً» (١٨ : ١١٠) فـ «بعبادة ربه» دون «بربه» دليل أنه يعبد ربه وحده ولكنه يرائي غيره فيما يعبده وهو من الشرك الخفي .

ومن يعصي الله يُلحد في طاعته «والمعاصي التي يرتكبون فهي شرك طاعة أطاعوا فيها الشيطان فاشركوا بالله في الطاعة لغيره وليس باشراك عبادة أن يعبدوا غير الله»[1] «يطيع الشيطان من حيث لا يعلم فيشرك»[2] «شرك طاعة وليس شرك عبادة»[3] : «ألم اعهد اليكم يا بني آدم ألاّ تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين» .

إذاً فكل العصاة والمرائين-إلاّ المشركين والكافرين - يؤمنون بالله وهم مشركون،ومَن يحترم غير الله كما يحترم الله دون عبادة ولا طاعة فقد أشرك بالله في حرمته كمن يسجد لغير الله أم يركع أماذا من اختصاصات لساحة الربوبية ، أو يذكر اسم الله ردف أوليائه ، ام يذكر فعلاً من أفعال الله ردف فاعلٍ سواه !

---

(١) المصدر ج ٢٢٨ ـ القمي باسناده عن الفضيل عن ابي جعفر (عليه السلام) في قوله تبارك وتعالى « وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون » قال : شرك طاعة وليس شرك عبادة والمعاصي . . .

(٢) المصدر ج ٢٣٠ اصول الكافي باسناده عن ابي بصير واسحاق بن عمار عن ابي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل : «وما يؤمن اكثرهم بالله ولا وهم مشركون » قال : يطيع الشيطان . . .

(٣) المصدر صدر الحديث رقم ٢ الذي نقلناه والحديث ٢٣١ الكافي باسناده عن خريس عنه (عليه السلام) في الآية قال : شرك طاعة . . .

كما ومن يحلف بغير الله «لا وحياتك»[1] فقد أشرك ، إذ لا حلف إلّا بالله ، حيث لا يُحلَف إلا بأقدس الكائنات ، اللهم إلّا ما يَحلِف به الله ، وليس حلفاً ، إلا توجيهاً الى برهان : «والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين» .

او من يردف بمشيئة الله مشيئة من سواه حتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كمن قال : لو شاء الله وشاء محمد فندد به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وبدله بالقول «لو شاء الله فشاء محمد»[2] ام «لولا الله وانت ما فعل بي كذا وكذا ولولا الله وانت ما صرف عني كذا وكذا وأشباه ذلك»[3] سواء أكان «انت» رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أمن دونه .

او من يرى في الكون مؤثراً غير الله او مع الله فـ «يقول : لولا فلان لهلكت ولولا فلان لأصبت كذا وكذا ولولا فلان لضاع عيالي ، الا ترى انه قد جعل لله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه»[4] .

---

(١) المصدر ج ٣٣٢ في تفسير العياشي عن زرارة قال سألت ابا جعفر (عليه السلام) عن الآية قال : من ذلك قول الرجل «لا وحياتك» .

(٢) الدر المنثور ان جماعة من اليهود جاءوا الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا محمد ان دينك خير دين لولا ان امتك مشركون فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) كيف ؟ قالوا : انهم يقولون : لو شاء الله وشاء محمد ، فنادى الصلاة جماعة وقال لا تقولوا هكذا قولوا لو شاء الله فشاء محمد .

(٣) المصدر ج ٣٣٤ ابو بصير عن ابي اسحاق في الآية قال : هو قول الرجل . . . أقول والظاهر نقله عن المعصوم (عليه السلام) .

(٤) المصدر ج ٢٣٥ في تفسير العياشي عن مالك بن عطية عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : هو الرجل يقول : لولا فلان . . . ـ الى ان قال ـ : قلت : فيقول : لولا ان من الله علي بفلان لهلكت ؟ قال : نعم لا باس بهذا .

والشرك في لفظة القول هكذا ، ام في نية الرئاء ام في المعصية، إنها «شرك لا يبلغ به الكفر»[1].

ولكنها الشرك في العبادة ، أن يعبد معه سواه ، أو يعبد بديله سواه ، هو الكفر في الشرك وهو أنحس دركات الشرك ، ومن ثم الإشراك به في سائر شئون الألوهية،فلأنه تعالى : « له الملك » لا سواه إلاّ من ملّكه إياه فمن ملك او ترأس شأنا من شئون العباد دونما صلاحية وانطباقه لشرعة الله فقد أشرك بالله في ملكه !

ولأنــه «له الحكم» في شــرعــة وتـقـنـين وقـضـاء ، فـالـشـارع شِـرعــةً مـن دون الله ، والمقـنـن قـانـونـاً دون حـكـم الله ، والـقـاضـي بحكم ليس من حكم الله ، كل أولاء مشركون فيما يختص بالله : «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» (٥ : ٤٤) -

ولأن الرسالة والإمامة بعد الرسول من المناصب الخاصة بانتصاب الله ، فدعوى الرسالة او الإمامة أو انتخاب الإمام بشورى وسواها، كل ذلك إشراك بالله مالم ينـزل بـه سلطانـاً، كـذلـك - ومن بعـد ذلـك احـتلال منصب الفـتـوى لمن ليس من أهلها أم في العلماء من هو أعلم منه أو أحرى ، وكذلك الدعاية له ، إنه شرك على علم إن كان على علم ، أم شرك على جهالة قاصرة او مقصرة .

وعلى أية حال فكل فكرة أو نية او عقيدة أو عملية أو حركة أو سكون أماهيه ليس بأمر الله أو سماحه أو مرضاته ، كل هذه إشراك بالله سواه ، سواء أكان هو نفسك أم سواك ! : «ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل

---

(١) المصدر ج ٣٣٢ في تفسير العياشي عن زرارة عن ابي جعفر (عليه السلام) عن قول الله«وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون » قال شرك لا يبلغ به الكفر .

الله » « وقال الله لا تتخذوا إلَهين اثنين»أن تؤلّه نفسك كما تؤله ربك فتعبد الله على حرف ، فان وافق رضى الله هواك ترضاه ، وان خالفها فلا ترضاه ، وان عملت بمرضاة ربك على سخطٍ من هواك فقد عبدته على حرف وخَرْف إذ قدمت هواك على هواه !

ثم هناك شرك ليس عصياناً ولا كفراً وإنما هو نقصان في الايمان ، أن يَذكر غير الله ناسياً ذكر الله دون رئاءٍ ولا عصيان ، بل نسيان هو لزام الإنسان أياً كان إلاّ المعصومين في القمة ، «وهم مشركون » في الآية علّها تشملهم كلهم ، شرك الكفر والعصيان والنسيان ، فبقي الموحدون المخلِصون والمخَلصون وقليل ما هم ، اللهم ألحقنا بهم وأدخلنا في زمرتهم .

فهنالك إشراك في الله ، وإشراك بالله ، وإشراك مع الله يجمعها «وهم مشركون » لفقد هذه الأذات الثلاث ، فلتشمل كل هذه الثلاث ، [1]إيماناً بوجود الله وإشراكاً فيه ذاتاً وصفاتٍ وافعالاً [2] أيماناً بوحدته في هذه الثلاث واشراكاً به غيره في عبودية إماهيه من إختصاصات الألوهية ، [3]إيماناً بوحدته هنا وهناك وإشراكاً معه في لفظة قول أم حلف أماهيه؟ . .

والتوحيد المطلق يجعل الموحد منقطعاً عمن سوى الله إلى الله على أية حال ، في كل حال وترحال ، ليس في قلبه إلاّ حب الله ، ولا يعيش إلاّ مع الله ومرضات الله ، ولا يحب إلاّ الله وفي الله ، ولا يعمل إلاّ لله وفي الله ، فهو على طول الخط إلى الله وفي الله كما هو من الله ، ولا يصل الى هذه القمة العالية إلاّ من أخلص دينه لله فأخلصه الله ، فلا يحجب بينه وبين ربه إلاّ حجاب ذات الله ، فلا هناك حجب الظلمة ولا حجب النور حتى نفسه ، متدنياً إلى الله متدلياً بالله كما كان رسول الله (صلى الله عليه

وآله وسلم) : «ثم دنى فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى» .

فيا ايها الناظر البصير هل تجد أجمل من وجه ربك الكريم حتى تنظر إليه؟ أو تجد أحب من الله امّن يساميه حتى تحبه دونه أم تحبه معه؟ امّن تجده أكمل منه وأرحم أو يساويه حتى تخضع لديه ؟ فكيف تشرك به خلقه وهو الضلال المبين : «تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين» .

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(١٠٧) .

لمسة قوية لمشاعرهم لو كانوا يشعرون ، تستجيش شعورهم الكامن ، «أفأمنوا» كما تدل عليه أعمالهم الهاتكة لساحة الربوبية ، الفاتكة سماحة الألوهية «أفأمنوا» حيث «رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها» «أن تأتيهم غاشية» عقوبة تغشاهم ، تلفُّهم وتعشاهم «من عذاب الله» غاشية بحرية : «فغشيهم من اليم ما غشيهم» (٢٠ : ٧٨) أماهيه من برية وجوية تغشى أبدانهم ، فهنالك موتهم عن أبدانهم ، أم غاشية تغشى أرواحهم وبصائرهم : «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة» (٢ : ٧) «وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون» (٣٦ : ٩) هذه التي تستحل لهم غشاوة العذاب في الدنيا والآخرة: «أو تأتيهم الساعة» موتاً كقيامة صغرى ، أم قيامة كبرى «بغتة» ، حيث الغيب موتاً وقيامة موّصَد الأبواب ، لا تمتد إليه عين ولا أذن فما تدري نفس متى تموت أو تقوم القيامة ، «تاتيهم .. وهم لا يشعرون» إتيانَا فإنها مباغِتة «وهم لا يشعرون» ماذا يتوجب عليهم وليأخذوا حذرهم ، فيا ويلاه أن تأتيهم غاشية العذاب أم ساعة الموت او القيامة وهم غافلون ، عائشين غفلة وغفوة حتى الغاشية

والساعة ، وهذه الغفلة الّلا شعورية غاشية فوق الغاشية : «كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب . . » (٢٤ : ٤٠) .

هنا غاشية من عذاب الله ، وهناك غاشية : «هل أتاك حديث الغاشية . وجوه يومئذٍ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية . تسقى من عين آنية . ليس لهم طعام إلاّ من ضريع . لا يسمن ولا يغني من جوع» (٨٨ : ١ ـ ٧) وأين غاشية من غاشية ، وهما من مخلفات غاشية الغفلة المعمدة !

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١٠٨) .

هنا يؤمر رسول الهدى أن يعرّف بسبيله للعالمين وبكيفية دعوته بشرطها الأصيل له ولمن اتبعه إعلاناً صارماً صارخاً على أسماع العالمين وليكونوا على بصيرة من أمره .

فالسبيل هي الطريقة المنحدرة المعبّدة الهادفة إلى الغاية المقصودة ، ومنها الصراط المستقيم وهو واحد والسبل عدة : «وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله» (٦ : ١٥٣) وسبيله الوحيدة الوطيدة هي صراطه المستقيم .

فـ «هذه» إشارة إلى سبيله الخاصة به وهي صراط الله المستقيم ، إشارة إلى القمة التوحيدية العالية التي لا تُساوى ولا تُسامى بأية درجة في مدارج العالمين ، وهي مقام قاب قوسين أو أدنى ، التي لا يخالطها أية دركة من دركات الشرك وحتى المرجوحة غير المحرمة ، فـ «ما أنا من المشركين» لا تنفي ـ فقط ـ إشراك العبادة وأضرابه ، بل وكل إشراك نُدّد به في الآية السالفة: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون» فهو ـ إذاً ـ التوحيد الخالص ، في القمة الخاصة بأوّل العابدين والموحدين . و «قل» خطاباً

للرسول إلى العالمين، إعلام عام في إعلان بإذاعة قرآنية عالمية دائبة، يعرّف فيه بمبدءه أنه على صراط من ربه مستقيم وليس «من المشركين» لا قبل الإيمان ولا بعده.

وقد حصر سبيله في العمق بأنها «لا إله إلاّ الله» وإنما قدم الإيجاب: «هذه سبيلي..» وهو «إلاّ الله» على السلب: «وما أنا من المشركين» وهو «لا إله» خلاف المتعوَّد المعمول في الإهتداء، لأنه اجتاز السلب العام إلى إيجابه، لأنه أوّل العابدين، ثم وفي ذلك الإعلان يعرف بمحتده في سبيله أنها صراط الله المستقيم، توحيد خالص خاص لا شرك فيه.

ولأن «هذه سبيلي.. وما أنا من المشركين» فأنا «أدعوا إلى الله على بصيرة» دون عمى ولا تعمية ولا تخبط او تخبيط، فإنه اليقين البصير المستنير «وسبحان الله» أن أتخذ سبيلاً غيرها أو أن أشرك به غيره، أم أدعوا على غير بصيرة، أم يرسل الله داعية على غير صراطه المستقيم وعلى غير بصيرة!

فسبحانه سبحانه في كل سلب وايجاب في ابتعاث الداعية الاخيرة بتلك الدعوة الأخيرة، أن تخالجها أية ضلة أو زلة.

«أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني..» دعوة واحدة على بصيرة واحدة لمكان «أدعوا.. أنا» دون «ندعوا» حتى يشمل «من اتبعني» فـ «ومن اتبعني» يدعوا كما أنا أدعوا، وإلا فليكن «ندعوا..» فـ «أدعو.. ومن اتبعني» تجعل دعوة من اتبعه دعوته، فليكن في سبيله وعلى بصيرته، يحذو حذاه وينحو منحاه، فليس «من اتبعني» إلاّ من رباه كما رباه الله، دون أي فارق إلاّ أنه مبدء الدعوة وهم منتهاه، يأخذ منه كل ما أخذه بالوحي ثم يعطي الأخرين كما اعطاه، دون اختلاف عنه ولا قيد شعرة، فليكن «ومن اتبعني» هم المعصومون من عترته الطاهرين سلام الله عليهم

اجمعين ، فهم كنفسه في سبيله ودعوته ببصيرته ، رفاقاً معه دون فراق إلّا في الأبد ان ، فهم كما يقول صادقهم (عليهم السلام) وكلهم صادقون : «اوّلنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) آخرنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أوسطنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وكلنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)» .

فلأنه لا بد لهذه الدعوة الأخيرة استمراريتها إلى الأيام الأخيرة ، فلا بد لها بعد صادعها الاوّل من حَمَلةٍ معصومين على طول خط الرسالة ، وكما نعتقده في الائمة الإثنى عشر من أمير المؤمنين علي (عليه السلام) إلى القائم المهدي عجل الله تعالى فرجه ، فـ«ذاك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمير المؤمنين (عليه السلام) والأوصياء من بعدهم»[1] .

فهم أولاء الأكارم ، الذين عناهم الله في آية الدعوة الرسالية المعصومة، فإنهم «اوّل من اتبعه على الإيمان به والتصديق له وبما جاء به من عند الله عز وجل»[2] ، دون سواهم وإن كانوا من العلماء الربانيين ، فان

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٧٦ ح٢٣٨ في اصول الكافي باسناده عن سلام بن المستنير عن ابي جعفر (عليه السلام) في قوله : قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني » قال : ذاك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . . .
وفي روضة الواعظين للمفيد قال الباقر (عليه السلام) في الآية : علي اتبعه .
(٢) في الكافي علي بن ابراهيم عن ابيه عن بكر بن صالح عن القاسم بن يزيد عن ابي عمر والزبيري عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال قلت له اخبرني عن الدعاء الى الله والجهاد في سبيله اهو لقوم لا يحل الا لهم ولا يقوم به الا من كان منهم ؟ ام هو مباح لكل من وحد الله عز وجل وآمن برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن كان كذا وكذا فله ان يدعوا الى الله عز وجل والى طاعته وان يجاهد في سبيله ؟ فقال : ذلك لقوم لا يحل الا لهم ولا يقوم بذلك الا من كان منهم ، قلت : من اولئك؟ قال: من =

بصيرتهم تخالطها وتخالجها غير بصيرة مهما كانوا في أخطاءهم غير العامدة معذورين، وأنهم - أياً كانوا - ليسوا على صراطه المستقيم، ولا خارجين عن الشرك كله إلى الإيمان كله.

صحيح «إن الانسان على نفسه بصيرة» ببصارة الفطرة والعقل ثم الشرعة التقنيدية، ولكنها ليست بصيرة معصومة، والداعية إلى الله يجب أن يكون على بصيرة بالوحي معصومة، إضافة إلى بصارة العقل والفطرة وأين بصيرة من بصيرة؟!

هنا نعرف بيقين أن الخلافة الرسالية الإسلامية لزامها العصمة الرسالية تستمر دعوة الداعية الصادعة بعيدة عن الأخطاء، فـ«من اتبعني» تخص الإتّباع المطلق لا مطلق الإتّباع، حتى الذي فيه أخطاء عامدة أم ساهيه قاصرة، بل هو اتباع دون أي تخلف وشذوذ، وكما اتبع الرسول وحي الله

= قلم بشرائط الله عز وجل ومن لم يكن قائماً بشرائط الله في الجهاد على المجاهدين فليس بمأذون له في الجهاد ولا الدعاء الى الله حتى يحكم في نفسه ما اخذ الله عليه من شرائط الجهاد، قلت: فبين لي يرحمك الله ان الله تبارك وتعالى اخبر في كتابه الدعاء اليه ووصف الدعاة اليه - الى/ ان قال -: ثم اخبر عن هذه الامة وممن هي وانها من ذرية ابراهيم ومن ذرية اسماعيل من سكان الحرم ممن لم يعبد واغير الله قط الذين وجبت لهم الدعوة دعوة ابراهيم واسماعيل من اهل المسجد الذين اخبر عنهم في كتابه انه اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، الذين وصفناهم قبل هذا في صفة امة ابراهيم (عليه السلام) الذين عناهم الله تبارك وتعالى في قوله: «ادعوا الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني» يعني اوّل من اتبعه على الايمان به والتصديق له وبما جاء به من عند الله عز وجل من الامة التي بعث فيها ومنها واليها قبل الخلق ممن لم يشرك بالله قط ولم يلبس ايمانه بظلم وهو الشرك ...» وفي التهذيب في الدعاء بعد صلاة يوم الغدير المسند الى الصادق (عليه السلام): ربنا آمنا واتبعنا مولانا ولينا وهادينا وداعينا وداعي الأنام وصراطك المستقيم السوي وحجتك وسبيلك الداعي اليك على بصيرة هو ومن اتبعه وسبحان الله عما يشركون بولايته وبما يلحدون وباتخاذ الولايج دونه.

تعلماً واعتقاداً ونشراً وتطبيقاً.

هذه هي الدعوة الاولى كحجر الأساس لها من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وخلفاءه المعصومين (عليهم السلام) ومن ثم العلماء الأتقياء، الأفضل منهم فالأفضل بشروطاتها الأساسية المسرودة في آيات الدعوة والأمر والنهي كـ «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون»

دعوة مستمرة على بصيرة ممن هو على صراط مستقيم أو سبيل قويم، وهو أحق أن يتّبع ممن سواه: «أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع امن لا يَهِدِّي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون».

أجل وإن أصحاب الدعوة إلى الله لا بد لهم من ذلك التميُّز البارع، إعلاناً - منذ البداية - لما هم عليه دون تزعزع ولا مماراة، ولما يدعون إليه دون مجارات وأنصاف حلول، صراطاً مستقيماً لا حِوَل عنه!

وتلك هي السنة السنية الرسالية في كل خطوطها بكافة بنودها بمن يحملونها في خيوطها طول الزمان وعرض المكان:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(١٠٩).

«وما أرسلنا.. إلاّ» حصر للرسالة الأصيلة الإلهية في رجال من جنس الإنس، دون نساءٍ منهم مهما بلغن الذروة من الكمال، ولا من الجن وسواهم رجالاً ولا نساءً، مما يدل على حصر الرسالة في بعدي الرجولة والإنسانية، فلا تنافي الآيات الصريحة او اللامحة في رسالة الجن فانها على هامش رسالة الإنس، ولا الرسالة فيمن سوى الجن والانس حيث المجانسة شرط في الرسالة بين الرسول والمرسل إليهم، إذاً فأصل

الرسالات الإلٓهية للعالمين ومحورها الأصيل رجالٌ من الإنس، مهما حملها رجالٌ من الجن وسائر العالمين كخلفاء لرسل الإنس، ثم يحملها في دعوة عليمة سليمة كل من تحملها علماً وعملاً صالحاً رجالاً ونساءً وكما في واجب الدعوة والأمر والنهي فـ «المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر..»(٩: ٧١).

«وما أرسلنا من قبلك» منذ بداية الرسالات «إلّا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى» لا ملائكة كما كانوا يزعمون ويقترحون، ولا سواهم «إلّا رجالاً.. من أهل القرى» بشراً مثلك وأمثالهم من أهل المجتمعات البشرية، حيث القرية هي المجتمع أياً كان، في مدينة أو ضاحية أما هيه.

فلستَ أنت بدعاً من الرسل، فإنك رسول كسائر الرسل، رجلٌ من أم القرى كما هم من أهل القرى، مهما بان البون بينك وبين سائر الرسل كما البون بين أم القرى وسائر القرى.

«أفلم يسيروا في الأرض» حاضرها وغابرها، تاريخاً جغرافياً وجغرافياً تاريخياً عن شئون الرسالات الإلٓهية، أفلم يسيروا فيها لينظروا رجالات الرسالات أنهم كما أنت من أهل القرى «نوحي إليهم» ثم «فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم» من الذين أرسل إليهم «حيث» رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها «فأنكروا رسالات ربهم» «ولدار الآخرة خير للذين اتقوا»: الدنيا وهم فيها، تقوى عن طغوى النكران «أفلا تعقلون» في أنفسكم، وفيما تنظرون من الذين من قبلكم؟

ولعمر الله إنها هزّة فظّة تهز القلوب حتى المقلوبة المتجبرة، الجاسية القاسية المتكبرة، فلحظات الإسترجاعات الخيالية لحركات الطاغين وسكناتهم وخلجاتهم، فإذا هم على حين غفلة وغفوة لا حس لهم ولا حسيس ولا حركة، قصورهم خاوية، ودورهم خالية، طواهم الموت طياً

ولا فوتَ ، فتلك مصارعهم بين آونة وأخرى ولات حين مناص .

إنها تهز هزة وتفز فزة فظه ، مهما يكن القلب خاوياً ، وجاسياً قاسياً ، فكيف لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ؟!

«أفلا تعقلون» عقل دراية ، فتعتبروا بعاقبة المكذِّبين قبلكم ، وما قاساه رسل الله منهم :

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾(١١٠).

أترى من هم الذين «ظنوا أنهم كُذِبوا» ؟ أهم الرسل لقرب المرجع ؟ فمن كَذَبهم ؟ أهم المرسل إليهم ؟ وقد علموا أنهم كذَّبوهم طول التاريخ الرسالي أشد تكذيب دون ان يَكذِبوهم! ويظنوا ! وإنما يكذبهم المنافقون فيما يدعون من الإيمان ، و«حتى إذا» غاية الأمر لكل الناكرين دون خصوص المنافقين ! *

ثم وكلٌ مِن كِذبهم نفاقاً ، وتكذيبهم كفراً ، معلوم لدى الرسل ملموس ، والنص «ظنوا»! ولقد ظن ناس «أنهم كذَّبوا»[١] ونحن نكذب قولتهم بروايتهم حيث النص «كُذبوا» وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)[٢] كما وتكذب الرواية القائلة أن الرسل ظنوا أنهم كذبوا في

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٤١ - اخرج ابن مردويه من طريق عروة عن عائشة ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قرء «وظنوا انهم قد كذّبوا» بالتشديد .

(٢) المصدر اخرج ابن مرودية من طريق عمرة عن عائشة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قرء «وظنوا انهم كذبوا» مخففة واخرج ابن مردويه من طريق ابي الاحوص عن ابن مسعود قال حفظت عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في سورة يوسف «وظنوا انهم قد كذبوا» مخففة .

* الجمع بين اضافي ظن الرسل والمرسل اليهم (جمع وأجل كما بيناه على ضوء الآية ٢١٤ - البقرة فراجع .

وعد الله والعياذ بالله من هذه المقحمات الزور[١] وكيف ييأس الرسل من نصر الله لحد ظنوا أنهم كذبوا في وعد الله و«لا ييأس من رَوح الله إلّا القوم الكافرون» فضلاً عن ظنهم !.

إذاً ففاعل الظن والكذب هم المرسلين إليهم المدلول عليهم ـ على بُعدهم ـ بـ «حتى إذا» حيث تتحدث عن الغاية التي انتهوا اليه امام رسلهم «.. كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .. حتى اذا استيأس الرسل ..» ومم استياس الرسل ، أمن نصر الله ورَوحه ؟ و«لا ييأس من رَوح الله إلّا القوم الكافرون»[٨٧] !

أم استيأسوا من إيمان هؤلاء النسناس إذ كذّبوهم لحد «ظنّوا أنهم كُذِبوا» في وعد النصر ، فكذلك الأمر وكما في روايات[٢] والآية: «أم حسبتم أن

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٧٨ ح ٢٤٨ القمي في الآية حدثني ابي عن محمد بن ابي عمير عن ابي بصير عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : وكلهم الى انفسهم فظنوا ان الشياطين قد تمثلت لهم في صورة الملائكة ،وفي تفسير العياشي عن ابن شعيب عنه (عليه السلام) قال : وكلهم إلى انفسهم أقل من طرفة عين،أقول وتكذبها الروايات التالية .

(٢) المصدر في تفسير العياشي عن زرارة قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) كيف لم يخف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما يأتيه من قبل الله ان يكون ذلك مما ينزع به الشيطان ؟ قال : فقال ان الله اذا اتخذ عبداً رسولاً انزل عليه السكينة والوقار وكان يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه وح ٢٥١ في عيون الاخبار في باب مجلس الرضا (عليه السلام) عند المأمون في عصمة الأنبياء (عليهم السلام) باسناده عن علي بن محمد بن الجهم قال حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا (عليه السلام) فقال له المأمون يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اليس من قولك ان الانبياء معصومون ؟ قال : بلى قال فما معنى قول الله عز وجل ـ الى ان قال ـ فاخبرني عن قول الله تعالى : «حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا» قال الرضا (عليه السلام) يقول الله تعالى : «حتى إذا استيأس الرسل من قومهم فظن قومهم ان =

تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » (٢ : ٢١٤).

وإنها ساعات حرجة محرجة للذين آمنوا أن يظن الكافرون أن الرسل كُذِبوا في وعد النصر ، فالباطل - إذاً - يتنفش ويغدر ويبطش ، والرسل ينتظرون نصر الله كما وعدوا ، وهنالك زلزال المؤمنين إذ تهجس في خواطرهم الهواجس .

في تلكم اللحظات التي يستحكم فيها الكرب ويأخذ فيها الضيق بمخانق المؤمنين ، ولا تبقى ذرة مثقال من الطاقة المدخرة لهم «جاءهم نصرنا » فيرتاح له المؤمنون ويرتاع به الكافرون ، ويحظوا به المرسلون «فنجي من نشاء » من الرسل من زلزال المؤمنين حيث هالهم ، والمؤمنون من مخالفتهم بالبأساء والضراء ، ثم «ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » البأس الذي فيه دمارهم وبوارهم :

تلك هي سنة الله في الدعوة والداعية ، ان عليهم تكريس كافة طاقاتهم في الدعوة الى الله ، والتصبر في كافة المضايق على أذى الناكرين ولَظاهم ، انتظاراً للإنتصار من الله بعدَ تقطع الأسباب وتقلب القلوب ، وتحير الألباب .

أجل وليس النصر رخيصاً على الأبواب ، إلّا بعد استئصال الاسباب

= الرسل قد كذبوا جاء الرسل نصرنا ، فقال المأمون : لله درك يا ابا الحسن (عليه السلام) .

باستعمالها في كل باب ، ومن ثم «جاءهم نصرنا» ـ «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون . وان جندنا لهم الغالبون» (٣٧ : ١٧٣) ولكنها الشدائد في هذه السبيل الشاقة الطويلة الملتوية المليئة بالأشلاء والدماء ، إنها لا يصمد لها إلاّ الواثقون بوعد الله ، الصادقون في إيمانهم بالله ، فهم ـ إذاً ـ لا يتخلون عن الدعوة إلى الله مهما بلغت بهم الشدائد وحتى إن ظن الكافرون أنهم كذبوا ، وزلزل المؤمنون إنتظاراً للإنتصار .

وكيف يستعجل الداعية أجل النصرة وهو يواجه طواغيت يملكون المال والقوة واستخفاف الجماهير واستحمارهم، ويملكون تأنيبهم بتأليب الجماهير الجاهلة ضدهم .

درسنا في قصص الصديق ألواناً من الشدائد ، في الجب وبيت العزيز وأمام نسوة في المدينة وفي السجن، فصبر واصطبر دونما زعزعة لعرش رجاءه بنصر الله حتى جاءه نصر الله ، لا على إخوته فحسب ، بل وعلى العزيز والعزيزة ورجال الحاشية وفرعون نفسه ، فيا له من قصص بارع فيه عبرة لأولي الالباب :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١١١).

«قصصهم» علة ـ فقط ـ قصص يوسف وإخوته : «لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين» وقد يعنيهم وقصص الرسل ككل، فـ «ما كان حديثاً يفترى» ـ إذاً ـ يعم قصص القرآن ككلّ : «كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً» (٢٠ : ٩٩) «وكلاًّ نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فوآدك» (١١ : ١٢٠).

والعبرة هيئة خاصة من العبور ، فهي - إذاً - انتقالة من حالة إلى أخرى أحسن منها: من غفلة إلى ذكرى، وذلك طبيعة الحال في أولي الألباب، وهي لباب العقول ، فحين يستعمل العقل سليماً تتحول عن القشور الحاجبة ، فتصل إلى الأوامر الواجبة .

«ما كان» قصص يوسف وإخوته ، ولا كل القصص القرآنية «حديثاً يفترى» أن يفتريها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على الله دونما وحي ، فلو كان القرآن مفترى والتورات والإنجيل وحياً لكان كلام البشر أفضل وأتم من كلام الله : «وماكان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين»(١٠ : ٣٨).

فـ «ما كان» دون «ليس» نفي بات مؤكد عن كينونة القرآن أن يفترى من دون الله ، بطبيعة الحال في القرآن نفسه حين يتدبر في آياته وتقاس بسائر الوحي السابق عليه ، حيث الرجاحة في القمة باهرة فيه دون ريب يعتريه .

وهنا للقصص القرآن او القرآن ككل مواصفات عدة مستفادات من القرآن نفسه دون ادعاآت خاوية عن البرهان :

(١) «عبرة لأولي الالباب» حيث ينقلهم من حالاتهم الرديئة جهلاً وجهالة وغفوة وغفلة إلى حالات حسنة بديعة علماً وذكرى ونبهة وحظوة .

(٢) «ما كان حديثاً يفترى» كما يُعرف من تدبُّره وقياسه إلى سائر الوحي .

(٣) «ولكن تصديق الذي بين يديه» من وحي ناصع واصب ، ومن حديث الفرية ما كان من أهل الكتاب ،إذ يرون خلافات بين هذا القرآن

وكتبهم ، في حين يرون أنها هي الأصل فيقاس عليها القرآن ، فما وافقها منه فمأخوذ من كتبهم، وما خالفها فمفترى على الله !، فالنفي «ما كان . . »نفي للفرية «ولكن » إثبات لوحيه إذ يصدق الذي بين يديه ، وليس هو الكتب الرائجة بينهم فإنها بين أيديهم لا بين يديه ، ولا يعني «بين يديه » هنا وفي ساير القرآن إلّا ما نزل على أنبياء الله من قبل ، دون المحرف المفترى ! كما عرفنا الفوارق بين قصص يوسف وإخوته هنا وفي التورات .

(٤) «وتفصيل كل شيء » يحتاجه العالمون إلى يوم الدين ، وهو زيادة على «ما بين يديه » - «وكل شيء فصلناه تفصيلاً » (١٧ : ١٢) .

وهذه كليّة شاملة لا تشذ شيئاً يحتاجه العالمون ، دون سائر الوحي ، كما التورات : «وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء . . » (٧ : ١٤٥) فـ «من » لمحة لامعة إلى تبعيض موعظة وتفصيلاً ، فـ «كل شيء» كما «موعظة » هما المحتاج إليه في الشرعة الإسرائيلية في دورها المحدود ، إضافة إلى الفرق بين «تفصيل كل شيء » «وتفصيلاً لكل شيء » حيث التنوين التنكير يشير إلى التبعيض المستفاد من «من » .

فالقرآن هو تفصيل مطلق للكتاب المكنون عند الله : «ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » (١٠ : ٣٧) «وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً » (٦ : ١١٤) .

وسائر كتابات الوحي هي مطلق تفصيل للكتاب دون شمول يعم كل زمن التكليف .

(٥) «وهدى» زائدة على الهدى السابقة عليه في سائر كتابات الوحي .

(٦) «ورحمة لقوم يؤمنون» ليست هي لناكريه مهما كان أهل كتاب من عهد قديم أم جديد، وحيث البون بين «هدى ورحمة» هنا وهناك شاسع واسع، بوناً بين المحدود بزمن والشامل لكل الزمن، مع العلم أن الهدى المحدودة محرفة عن جهات أشراعها فلا تصلح حتى لزمنها المحدود.

فالقرآن بمنظار الإيمان «هدى ورحمة» وبمنظار تفتيش الواقع «ما كان حديثاً يفترى ولكن..» وبمنظار الألباب «عبرة» فهو في ذلك المثلث الرائع تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»!

وهكذا يتوافق المطلع والختام في قصص يوسف وإخوته، وقد يختلف عن سائر قصص القرآن فإنها مقصوصة مبثوثة في مختلف المناسبات، ولكن قصة يوسف مسرودة مترتبة في سورة واحدة لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من العرض، حيث الحلقات الأصيلة المذكورة منها متلاحقة، وهي تشكّل قصة واحدة لو قُصَّت وبُثَّت في مختلف المجالات لم تكن عبرة كما هي في مواصلتها، دون سائر القصص حيث تقتص منها حلقات بقلة او كثرة دون تمام في مختلف المناسبات إذ تكفي عبرة ونُبهة كقصص نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومَن دونهم من رسل جاءت قصصهم في مختلف القرآن.

(١٣) سورة الرعد مدنية
وآياتها ثلاث وأربعون

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ
مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ
عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ
مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ
رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ
ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ

مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ
وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ
قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ
بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ
ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾
ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ
وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن
جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾

لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

سورة الرعد صورة عن جملة من بوارع الكون وقوارعه ترعَد وتُرعد وتطوف بالقلب بجولات في مجالات شاسعة واسعة ، وتحلّق العقول فيها فتعلّقها بحقائق جمة من كتابي التدوين والتكوين ، اتصالاً بعُظم الخلق فوصولاً إلى معدن العظمة : الخالق العظيم .

« آلمر » هي كسائر الحروف المقطعة من مفاتيح كنوز القرآن ، لا نعرف من معانيها شيئاً إلاّ ما يعرّفنا من خوطب بوحي القرآن ، بما يُروى عنهم قاطعة قاصعة لا تقبل أية ريبة ولا شائبة ، دون روايات آحاد متناحرة تخرص ولا يُحرس كالتي تقول « . . ويقوم قائمنا عند انقضائها بآلمر »[1] أمّا

(١) تفسير العياشي عن ابي لبيد عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : يا لبيد ان لي في حروف القرآن المقطعة لعلماً جماً ان الله تبارك وتعالى أنزل : « آلم ذلك الكتاب » فقام محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى ظهر نوره وثبتت كلمته وولد يوم ولد وقد مضى من الالف السابع مائة سنة وثلاث سنين ثم قال : وتبيانه في كتاب الله في الحرووف المقطعة اذا عددتها من غير تكرار ليس من حروف مقطعة حرف تنقضي ايامه الا وقائم من بني هاشم عند انقضائه ثم قال : الالف واحد واللام ثلاثون والميم اربعون ، والصاد تسعون فذلك مائة وواحد وستون ثم كان بدو خروج الحسين بن علي (عليه السلام) « الم » فلما بلغت مدته قام قائم ولد العباس عند « المص » ويقوم قائمنا عند انقضائها بآلمر فافهم ذلك وعد واكتمه ».

يضاحيها من تخرصات بالغيب في تخيلات لا تاوي إلى ركن وثيق .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(1)

أترى الآيات المشار إليها هنا هي آيات التكوين إذ تشمل السورة شطراً منها ، ومن ثم آيات التدوين هي « والذي أنزل إليك من ربك الحق » ؟ ولا تحمل الرعد كل آيات التكوين ، و « آيات الكتاب » هي كلُّها لمكان إضافة الجمع الموحية باستغراق ، وآياتٌ من الرعد حين تحمل تعبيرات عن آيات التكوين لا تعتبر هي نفسها آيات من التكوين ، بل هي من التدوين الحاكي عن التكوين !

أم هي كل آيات التكوين ومن ضمنها ما تحملها الرعد ، فـ « تلك » ـ إذاً ـ إشارة إلى التي تحكي عنها في الرعد كنموذج بارع منها ؟ ولكنها بعدُ آيات من التدوين !

أم إن « الكتاب » هو « أم الكتاب لدى الله علي حكيم » وآياته المفصلات المدونات في الذكر الحكيم ؟ « والذي أنزل إليك » هي هيه ! والعطف موحٍ بمغايرة !

أم إنها آيات كتاب الوحي كلها ، فإنها تفصيلات لأم الكتاب ، ولكنها منسوخة ومحرفة ، خارجة عن حقها ، أم منسوخة على حقها « والذي أنزل إليك من ربك الحق » فمهما كانت آيات الكتاب في كل كتابات الوحي حقاً ، ولكنها مطلق الحق حيث تقبل بطلاناً بتحريف وتجديف ، ام بطلان الزوال بنسخ ، ولكنما « الذي أنزل اليك من ربك » هو « الحق » المطلق ،

= اقول : ليس العلم بحروف الاعداد عليا جماً فانه يخلمه كثير من الجهال والكفار ، ثم وهذه الرواية سكة لمن يدعون بالمهدوية لعلي محمد الشيرازي الذي ادعى البابية للامام المهدي ثم المهدوية تطبيقاً لـ « آلمر » بحساب الاعداد على زمن الباب .

لا يقبل ايّ بطلان وزوال ، من بطلان باطل كالتحريف ، ام بطلان حق كالنسخ ، فـ « الحق » معرفاً دون « حق » حصر للقرآن بحقه ، دون أن يساويه او يساميه سائر الحق : « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ».

أم إن « تلك » إشارة إلى كل آيات التكوين والتدوين في كتابيه ، على طول الخط في كل تكوين وتدوين ، « والذي أنزل اليك .. » نموذج شامل كامل عنها ، حيث يشمل ما شملته كتابات السماء وفيه مزيد ، فهو « الحق » الثابت الذي لا حِوَل عنه « ولن تجد من دونه ملتحداً »!

فهذا القرآن العظيم أكمل نسخة عما دوِّن وكوِّن كما يحتاجه العالمون حتى آخر زمن التكليف ، وكما يروى عن باقر العلوم : القرآن يجري كجري الشمس .

هذا هو « الحق » الناصع البارع ، كل الحق الذي أراد الله إنزاله على العالمين « ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين » مهما كان في حروفه المقطعة إختصاصات غيبية لمن خوطب بالقرآن .

ذلك « ولكن اكثر الناس لا يؤمنون » أنه أُنزل إليك من ربك ، وقد يؤمنون بإنزاله اليك ولكنهم لا يؤمنون أنه « الحق » الثابت الذي لا حول عنه ، تحريفاً من الناس أم نسخاً من خالق الناس .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾(٢).

« ربّك » الذي رباك بالحق الذي أُنزله اليك ، ورفعه في سماوات الوحي لأعلى قمة شاملة تحلّق على كتابي التكوين والتدوين « ربك » هذا هو « الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها .. ».

هنا تبدء الآيات بالمعجزة الكونية ، الدالة على المكون الواحد العليم الحكيم القدير ، برسم مشاهد كونية بارعة ضخمة ، لمسة في السماوات وأخرى في الأرض ، ثم لمسات تلو أخرى في مشاهد أخرى « لعلكم بلقاء ربك توقنون »!

فاللمسة الأولى تبدء بالسماوات المرفوعة ، المعروضة على الأنظار ليل نهار ، حيث نرى سماوات مرفوعة « بغير عمد ترونها » فمن هذاالذي رفعها ؟ ومن هذا الذي دعمها ؟ إلاّ الله الواحد القهار ؟!

« السماوات » جمعاً هي السبع الطباق ، فحين نراها دون وثاق ، والمرفوع في الجو بلا وثاق يدعمه مستحيل في العقول ، فليكن لها « عمدٌ لا ترونها » فثَـمَّ عمد ولكن لا ترونها »[1] فان «ترونها» تصف العَمَد وهي جمع العماد ، ولولا عمدٌ تدعمها لكانت « ترونها » زائدة بائدة ، فهي إذاً توصيفة إحترازية عن عمد غير مرئية ، إذاً فهي « موطدات بلا عمد ، قائمات بلا سند »[2] مرئية : « سقفاً محفوظاً وسمكا مرفوعاً بغير عمد تدعمها ولا دسار ينظمها »[3] ولا رَفْعَ إلاّ برافع ، ولا حفظ ولا سَمْك إلاّ بحافظ وسامكٍ ممسكٍ ! .

تاتي « السماوات » في ساير القرآن (١٩٠) مرة ، ولا رفع لها إلاّ هنا

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٨٠ ح ٥ القمي حدثني ابي عن الحسين بن خالد عن ابي الحسن الرضا (عليه السلام) قال قلت له : اخبرني عن قوله تعالى « والسماء ذات الحبك » فقال : هي محبوكة الى الارض وشبك بين اصابعه فقلت كيف يكون محبوكة الى الارض والله يقول « رفع السماوات بغير عمد ترونها » فقال : سبحان الله اليس يقول « بغير عمد ترونها » فقلت : بلى قال : فثم عمد ولكن لا ترونها. . .

(٢) في نهج البلاغة قال (عليه السلام) : فمن شواهد خلقه خلق السماوات موطدات . .

(٣) النهج في كلام له يذكر فيه خلق السماوات « جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً وعليا هن سقفاً محفوظاً . .

وفي الرحمن «والسماء رفعها ووضع الميزان» (٧) وفي النازعات بإفرادها «أم السماء بناها رفع سمكها فسواها» (٢٨) وفي الطور «والسقف المرفوع» (٤).

ولان رفع الشيء ليس إلّا بعد كونه بانخفاض، فلتكن السماوات مرفوعة بعد خلقها غير مرفوعه كما فصلتها الآيات في فُصّلت وفصلناها على ضوئها وفق ما فصلَت.

فالسماوات المرفوعة بأجرامها الضخمة الثقيلة-فإنها «سبع شداد»-إنها تدلنا على رافع رفعها، ثم بقاءها مرفوعة محفوظة عن التساقط دليل على داعم يدعمها، ولان الرافع الداعم لا يُرى فلنؤمن بمَن لا يُرى بما يُرى، فان ما يُرى دليل على ما لا يُرى.

وعلّ الجمع في «عمد ترونها» يوحي بعمدٍ لا تُرى، فليست هي القوة الجاذبية فحسب إذ ليست جمعاً، وليست ـ كذلك ـ الله، إذ لا اله إلّا الله، إذاً فهي كل ما لا يرى مما يدعمها كما رفعها بعدما خلقها وهو الله تعالى، ومما يدعمها مرتفعة كالجاذبية العامة، فالله تعالى هو العماد الأصيل في كل كثير وقليل، ثم الجاذبية أمّاهيه من المدبرات امراً من قبل الله، حيث أبى الله ان يجري الأمور إلّا باسبابها، وهو السبب الاوّل، وهو مع كل الأسباب ومسبب للأسباب، فهو العماد الاوّل المسنود إليه إمساكها في آية الحج: «ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلّا باذنه» (٦٥).

فقصارى ما يرفعه الناس في هذه الكرة الصغيرة الهزيلة، لا تتعدى بناية او برجاً ام وطائره، وكل ذلك بحاجة إلى دعامة بحسَبها، فكيف بالإمكان ان تحفظ هذه السماوات المبنية العظيمة بهذه الأجرام الهائلة، تحفظ مرفوعة بلا عمد ولا دسار ينظمها، فإذ لا تُرى عَمَدها فلتكن هناك عَمَد ولكن لاترونها!

ولماذا يبتدء في ذلك العرض العريض بالسماوات البعيدة عنا دون

الأرض القريبة منا وهي كما السماوات مرفوعة في جوها بغير عمد ترونها ؟

لأن رفع السماء وبقاءها في جو الفضاء بغير عمد ترونها معلومٌ لكل ناظر إليها ، ولكنها الأرض - على كونها معلقة في جو الفضاء كما السماء - لم تكن ظاهرة التعلق والعلقة ، إذ كانوا يزعمونها ولحد الآن مستقرة على دعامة ، مهما دلت على كونها معلقة آيات عدة وروايات مسرودة في محالها ، مؤيِّدة للعلم. ومتأيدة به لغير ذوي العلم ، ومن آياتها هي الجامعة بينهما كآية الإمساك : « ان الله يمسك السماوات والأرض ان تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحدٍ من بعده إنه كان حليماً غفوراً » (٣٥ : ٤١) وإمساكهما بعد زوالها دون خلقهما مرة أخرى يدلنا أن زوالها هو تساقطهما عن محالها ، دون انعدامهما ، فكما السماوات بحاجة إلى امساك عن السقوط كذلك الأرض .

ولأن دخان السماء رُفعَ قبل تسبيعها : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال .. فسواهن سبع سماوات . » (٤١ : ١٢) إذاً فرفع السماوات رفع ثان لذلك الدخان اقتساماً له إلى سبع وجَعْله طباقاً فوق بعض ، وفي ذلك الرفع الرفيع خلق الأنجم لأنه تكملة لبناء السبع الطباق وبعده استواء الله على عرش الملك والتدبير .

« .. ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر » مما يؤكد خلقهما في ذلك الرفع ، وهما من أنجم المجرة الأدنى إلى أرضنا « كل يجري لأجل مسمىً » وهو أجل قيامتهما ضمن القيامة العامة الطامة « يدبر الأمر » في السماوات والأرض وما بينهما « يفصل الآيات » تكويناً وتدويناً وكل ذلك « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » لقاء المعرفة في الأولى والأخرى. ولقاء الجزاء يوم الجزاء .

لقد فصلنا القول حول العرش في طيات آياتها الأنسب وأنه كناية عن السلطة

الربوبية المطلقة على كل شيء، ولأن السلطة الفعلية ليست إلّا بعد مُلكٍ بالفعل، فلا عرش لله قبل خلقه إذ «كان الله ولم يكن معه شيء» ثم خَلَق المادة الأولية التي خلق منها كل شيء فـ« كان عرشه على الماء » قبل أن يخلق منه الأرض والسماء: «الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء » (١١ : ٧) ومن ثم كان عرشه على السماوات والأرض : « الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش الرحمن فاسئل به خبيراً » (٢٥ : ٥٩) .

فاستواء الرحمٰن على العرش ليس إلّا لبسط الرحمة بباسط يديه ، حيث الرحمن رحمة عاملة شاملة كل شيء .

وهنا تسخير الشمس والقمر نموذج من تسخير الأنجم ، وتدبير الأمر يعم أمرها وكل خلق تكويناً وتشريعاً ، وتفصيل الآيات يعم آيات التكوين كعامة الكون ، وخاصة الرسل فإنهم آياته العظمى، وآيات التشريع كعامة ، وخاصة الشرعة القرآنية ، فكما له الخلق وحده، كذلك له الأمر وحده ، لا خالق ولا آمر معه : « إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (٧ : ٥٤) فالخلق هو خلق الكون كله المعبر عنه بالسماوات والأرض ، والأمر هو عرش ملكه في ربوبيته المطلقة علماً وتدبيراً ، وتفصيلاً وتقديراً أماهيه ؟ :

وترى ما هي الصلة بين لقاء الرب وما قبله من خلق وتدبير؟ إن في رفع السماوات بغير عمد ترونها واستوائه على العرش وتسخيره ما تحت العرش وتدبير الأمر وتفصيل الآيات ، إن في ذلك كله آية لوجود الله ووحدته وعلمه وقدرته وعدله وحكمته ، وهي كلها ذريعة لمعرفته وهي

أفضل لقاءه ، ومن ثم لقاء الجزاء يوم الجزاء، فذلك الرفع الرفيع، والتسخير المنيع. والتدبير والتفصيل لكتاب التدوين والتكوين الوسيع ، كلها توحي بعودة للخلق إلى الخالق فانه من كمال التقدير الحكيم ، ولولاها لكان تطويلاً بلا طائل ، وتفصيلاً دون حاصل ! « فنظرت العين إلى خلق متصل بعضه ببعض ودلها القلب على أن لذلك خالقاً وذلك أنه فكر حيث دلته العين على أن ما عاينت من عظم السماء وارتفاعها في الهواء بغير عمد ولا دعامة تمسكها ، وانها لا تتاخر فتنكشط ولا تتقدم فتزول ، ولا تهبط مرة فتدنو ولا ترتفع فلا ترى[1] والقادر على هذا الخلق العظيم الحكيم إبداعاً أقدر على اعادته مرة أخرى » افعنينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ! .

ثم من السماء البعيدة المدى ، القريبة لهذه الذكرى، إلى الأرض التي نعيشها ونمشي على مناكبها ، هبوطاً للخط التصويري الهائل من السماء إلى الأرض ، عرضاً للوحتها العريضة الأولى حين أكملها وبناها كما السماء بناها :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٣].

وهنا يرسم مدّ الأرض بعد خلقها كلمسة أولى لهذه اللوحة الفسيحة لساكنيها ، ومن ثم خط الرواسي وخدُود الأنهار بخطوطها ، ثم الثمرات الناتجة عن ازدواجية الخطين ، وامتزاجها تلو بعض وزوجية الثمرات وإغشاء الليل النهار في سباقهما على مدّ الآفاق « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٨١ عن كتاب الاهليلجة قال الصادق (عليه السلام) . . .

وللارض مدان اثنان ، مدٌ اوّل لإحياءها كما هنا وفي أضرابها : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » (١٥ : ١٩) « .. وانبتنا فيها من كل زوج بهيج » (٥٠ : ٧٠) .

ومدٌ ثان لإماتتها : « وإذا الأرض مدت . وألقت ما فيها وتخلت » (٨٤ : ٣) واين مدٌ من مدٌ تعميراً وتدميراً ؟

ولأن المدّ ليس إلّا عن انقباض فلتكن الأرض قبل مدّها منقبضة لا تحنُّ لجعل جبال ورواسي أو إلقاءها عليها ، فضلاً عن جعل الأنهار والثمرات ، فبمدها قرّت فغرّت لقرارة الحياة عليها : « الله الذي جعل الأرض قراراً (٤٠ : ٦٤) وذلك هو ذِلُّها بعد شماسها : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » (٦٧ : ١٥) وفي ذلك كفاتها : « ألم نجعل الأرض كفاتاً . أحياءً وامواتاً . وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فراتاً » (٧٧ : ٢٧).

ولأن الارض كروية فمدها هو بسطها في حجمها،وعلّه على أثر حركاتها الدورانية حين ذوبانها ، وقانون الفرار عن المركز يحكم بذلك الإنبساط في جوانبها،فانجماد سطحها،وانبثاق أقسام منه هي اثقل من فوقها،وهي جبالها الراسية في متن أديمها واعماقها « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » !

ومن خلفيات جعل الرواسي جعل الأنهار حيث يدخر فيها من ثلج السماء وبَرَدها وماءها خلالها ، فتنشق من أطرافها وأكنافها أنهارٌ يجري ماءها فيها ، أم تنبع نبعات في أكنافها فتجري أنهاراً صغاراً وكباراً .

فجعل الجبال يتبنى مد الأرض كما مُدَّت ، وجعل الأنهار يتبنى جعل الجبال ، وجعل الثمرات يتبنى جعل الأنهار لأرض مستعدة للإثمار « ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » !

« ومن كل الثمرات » تستغرق كل ما بالإمكان الراجح من مختلف

الأثمار ، فكل الثمرات الممكنة الكينونة ، الراجحة في إمكانيتها،مجعولة في هذه الأرض ، وعلّ « من » قبلَ «كل الثمرات » تشير إلى هذه المباغضة الراجحة وكما في أضرابها : « فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » (٧ : ٥٧) « وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم » (١٤ :٣٢) « ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » (١٦ : ١١) : ذلك وكما الجنة أيضاً كذلك : « ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم » (٤٧ : ١٥) فما كل ثمرة بالإمكان خلقها تصلح لخلقها في الأولى أو الأخرى ، إلّا ما فيها رحمة راجحة .

وترى ما هما « زوجين اثنين » والزوجان هما اثنان دون زيادة ولا نقصان ؟

الزوج هو الفرد الذي له قرين ، فكلٌ زوج للآخر كما الآخر ، وهو القرينان معا ، فلكي يدل على المعنى الأوّل : القرينين ـ قيدهما باثنين لكيلا يعنيا الأربع في المعنى الآخر ، فمن الأوّل « وخلق منها زوجها »(٤ : ١) « وانه خلق الزوجين الذكر والانثى » (٥٣ : ٤٥) .

ولأن الثمرات أزواج وأقران لا ـ فقط ـ زوجين ، فقد يعنيان الذكر والأنثى ، ولا تعني الثمرات ـ فقط ـ الناضجات حتى يقال : ان زوجية الذكورة والأنوثة إنما هي في زهراتها دون نفس الثمرات المخلّفة منها ، حيث الثمرات هي ناتجات نابتات عن الأرض بأنهارها ، منذ زهراتها إلى ناضجاتها .

فكل النابتات تحمل في ذواتها زوجين اثنين ، فتضم أعضاء الذكورة وأعضاء الأنوثة مجتمعة في زهرة واحدة ، او متفرقة في العود ، فهي لا يتولد ثمارها وحَبّها إلّا بين زوجين اثنين ، كما والبعض منها ـ كذلك ـ زوجان اثنان .

عضو الذكر قد يكون عشيراً لعضو الأنثى في شجرة واحدة كالأغلبية الساحقة من الأشجار، وأخرى يقتسم العضوان بين شجرة وأخرى كما النخل وفي الواحدة إيضاً قد يجتمعان في زهرة واحدة كشجرة القطن، أم في زهرتين كالقرع، وذلك مما كشف العلم عنه النقاب بعد قرون عدة من نزول القرآن «إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»!

ومن «زوجين اثنين» في الثمرات: الحلو والحامض، الرطب واليابس، الحار والبارد، الصيفي والشتوي أماذا من زوجيات، وقد تجد في شجرة واحدة ثمرة ذات زوجين أم أزواج من ألوان وطعوم و «إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»!

ثم «يغشي الليل النهار» لمحة لامعة إلى كروية الارض ودورانها، فذلك الإغشاء دليل كونهما مع بعض، فليست الأرض - إذاً - مسطحة ذات أفق واحد ليلٌ كلها ثم نهارٌ كلها، بل هي ذات آفاقٍ في إشراقة الشمس عليها من مشرقها إلى مغربها، ففي كل انتقالة للأرض حول نفسها يغشي سرادق الليل وجهَ النهار: «يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً» (٧: ٤٥): سريعاً جسيساً، فغَشْي الليل النهارَ في طلبه السريع دليل على سرعة الحركة الارضية وتبادل آفاقها في إشراقة الشمس عليها، فقبل أفق الشمس ليلٌ وبعده، والليل الخلفي لها يغشي نهارَها الذي تنتقل عنه، كما والليل الآتي يغشاه النهار الذي ياتيهوآيته: «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» (٣٩ : ٥) كما فصلناها تفصيلاً.

فلولا كروية الارض لم يكن ليل ونهار مع بعض، ولولا حراكها حول نفسها لم يطلب الليلُ النهارَ حثيثاً، ومهما لم تكن كروية الأرض ودورانها معروفاً حين نزول القرآن وحتى ردح بعيد بعده، بل كان خلاف الحس والرأي العام، ولكنما التفكر في حالات الأرض يدلنا على ما يخفى منها

ـ «ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» .

إن في مدّ الأرض وجعل الرواسي والأنهار فيها ، وجعل الزوجين من كل الثمرات فيها ، وأغشاء الليل النهارَ ، إن في ذلك المربع الربيع «لآيات» عدة «لقوم يتفكرون» في آيات العلم والقدرة والحكمة والرحمة الواسعة ! .

فعلى مدّ الزمن وتمديد الأفكار زمناً بعد زمن تظهر آياتٌ تلو آيات من هذا الكون البارع البديع لقوم يتفكرون ، فيزدادوا على ضوءها معرفة برب العالمين،حيث العلم في توسُّعه الدائب هو من خدام الإيمان لو لم يخلد إلى الارض اتباعاً للأهواء .

ولنقف هنا وقفة متأملة متعملة أمام تلك التقابلات الفنية في ذلك المشهد الرائع البديع ، بين مدّ الأرض والرواسي والأنهار والزوجين من كل الثمرات وتلاحق الليل والنهار في إغشاء بطلب حثيث ،ومن ثم إلى قِطَع الارض :

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٤)

أرض واحدة هي «قطع متجاورات» على كونها قطعة ورقعة واحدة فما هو رمز الكثرة المتجاورة ؟

لأنها حسب الحالات والأثرات ليست واحدة ، فمنها السبخة النكدة ، ومنها الجدبة المقفرة ، ومنها صخرة صلدة ، ومنها رخوة لينة ، ومن ثم هي بين عامرة وغامرة ،ريانة وعطشانة ، حية مزروعة ومهملة ميتة أمّاهيه ، وكلها أرض واحدة ، تقابلات فنية في لوحة واحدة بقطع

متجاورات ، فليكن وراءها تصميمة قاصدة واحدة.حيث الإختلاف بذلك النسق المنضد المنظم دليل الإرادة الوحيدة ، غير الكثيرة ولا الوهيدة .

هذه إجمالة جميلة عن هذه الأرض وإلى تفصيلات هي من خلفيات مختلف القِطَع بطباعها المختلفة : «وجنات من أعناب وزرع ونخيل» فالأعناب والنخيل يمثّلان كل الأشجار المثمرة لانها أهمها نفعاً ، والزرع يشمل كل ما يُزرع، وهذه الثلاث بين «صنوان وغير صنوان» مع أن الكل «يسقى بماءٍ واحد» ثم «ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون» حيث استعمال العقل في مختلف هذه المظاهر على وحدة الأرض والماء دليل التصميم الهادف الوحيد، لولا ذلك فلماذا الإختلاف وهو لا يأتي إلّا عن مختلف ، والماء واحد والأرض واحدة ، والبذر الواحد يأتي بمختلف الأثمار لوناً وطعماً وحجماً ! .

و «صنوان» مثنى وجمع، واحده «صنو» وهو المماثل ، وهو الغصن الخارج عن أصل الشجرة ، فالصنوان هي الأمثال النابتة على أصل مشترك ، وغير صنوان خلافها وهي من أصول عدة ، فمن الصنوان مختلف الأعضاء ، بين خضراء وحمراء وصفراء من شجرة واحدة ، فترى ثمرات مختلفة حجماً وطعماً ولوناً في نخلة واحدة ، وعِنبات حلوة وحامضة ، بين خضراء وحمراء وصفراء من شجرة واحدة وأرض واحدة وماءٍ واحد ، كما نرى متماثلات ومختلفات من أصول عدّة ، فمن هذا الذي يجعلها مختلفة صنوان ، ام متوحدة وغير صنوان إلّا الرحمٰن ، فباي آلاء ربكما تكذبان » ؟

وهكذا تكون الثمرات في أنسال الإنسان «صنوان وغير صنوان» وكما يروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: «يا علي الناس من شجرتين وأنا وأنت يا علي من شجرة واحدة ثم قرء الآية »[1] وقوله (ص)

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٤٤ ـ اخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي وابن مردوية عن

« إن عم الرجل صنو أبيه »(١).

« ونفضل بعضها على بعض في الأكُل » صنواناً وغير صنوان ، فقد نرى تفاحات من شجرة واحدة مختلفة الطعوم مفضلة بعضها على بعض في الأكُل حلاوة وحموضة أمّاهيه « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون» أرض واحدة وماء واحد وشجرة واحدة والثمرة مختلفة ، أترى هذه صدفة عمياء ام تصميمة قاصدة لئلاء .

لسنا نقول أن ليست هناك علل طبيعية تؤثر هذه التأثيرات ، ولكنها معلَّلة بإرادة الله الواحد القهار، لو كانت هي الطبيعة وحدها كانت أثراتها على نسق واحد دونما اختلاف ، ولا سيما في الصنوان، فسبحان العزيز المنان ! .

﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ءَإِذا كنا تراباً ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(٥)

« وإن تعجب » يا رسول الهدى أنت ومن تبعك بإحسان وكل من ألقى السمع وهو شهيد « إن تعجب » من أمر يُعجب ويُحير العقول من حمقه في عمقه « فعجبٌ قولهم ءإذا كنا تراباً ءإنا لفي خلق جديد » وقد كانوا تراباً ثم نطفة : « يا ايها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير

= جابر (رضي الله عنه) سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : يا علي .. ورواه ابن شهر آشوب عن الخركوشي في شرف المصطفى والثعلبي في الكشف والبيان والفضل بن شاذان في الامالي واللفظ له باسنادهم عن جابر بن عبد الله ورواه النظنري في الخصائص عن سلمان عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(١) المصدر اخرج عبد الرزاق وابن جرير عن مجاهد ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لا تؤذوني في العباس فانه بقية آبائي وان عم الرجل صنو ابيه :

مخلقة » (٢٢ : ٥) .

والخلق الجديد أهون من الخلق القديم : « وهو الذي يبدءُ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (٣٠ : ٢٧) فكيف وهم معترفون بالخلق الأول ، عارفون أن الثاني هو أهون ، يستنكرون خلقهم الجديد وهو أحرى وأحق من الأول ، حيث الأول قضية رحمة الله الراجحة، والثاني قضية رحمته الواجبة وعدله، ضرورةَ الجزاء يوم الجزاء ، فـ « اولئك الذين كفروا بربهم » كأن لا سواهم « وأولئك الأغلال في أعناقهم » أغلال الحيوَنة والشهوة ، أغلال الجهل والجهالة ، أغلال العناد والمتاهة ، وأغلال الإخلاد إلى أرض المادة .

وليست « على أعناقهم » حتى يمكن وضعها عنها ، وإنما « في أعناقهم » فهي مغلولة في أصل ذواتها وأعماقها بما كسبت أيديهم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد ، ولأنهم في ذواتهم نيران مسعَّرة فـ « اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

فلو كان الخلق الجديد مستحيلاً لأنه من التراب، فأحرى بالخلق القديم إحالة ! ولو كانت الإستحالة في الخلق الجديد لتمزق تراب البدن وتفرقه في سائر الأبدان أم ايِّ مكان ، فكذلك النطفة الجرثومية هي مأخوذة من ذراتٍ في سائر البدن والأبدان : « وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحيها الذي أنشأها أول مرة . وهو بكل خلق عليم » « وقـالـوا أإذا ضللنـا في الأرض ءإنا لفي خلق جـديـد بـل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » (٣٢ : ١٠) .

إن اصحاب الأغلال هنا، هم أصحاب الأغلال هناك ، والخالدون في نيران الشهوات والضلالات هنا، هم خالدون في النار هناك ولا يظلمون نقيراً ، فإنما طَبَق عن طَبَق، فأغلال عن أغلال، وخلود عن خلود .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(٦).

هؤلاء الحماقى الطغاة ليسوا ليتذكروا بأية ذكرى «ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة» استعجالاً بالعذاب: «ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب...ويستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» (٢٩ : ٥٣ - ٥٤):

ولِمَ يستعجلونك بالسيئة وهناك الحسنة أحرى أن يُستعجل بها؟ إنما «يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق..» (٤٢ : ١٨) فما استعجالهم إلاّ تحدياً وإبطالاً لدعوة الحق استغلالاً له فاستقلالاً ثم استغفالاً للمستضعفين.

والسيئة المستعجل بها قبل الحسنة هي العقوبة التي تهدّدوا بها يوم الدنيا والأخرى وهم ناكروها، فالأخرى لكفرهم بها، والأولى لنكراهم الوحي وتوحيد الربوبية.

إنهم هكذا يستعجلون «وقد خلت من قبلهم المثلات» والمَثُلة نقمة تنزل بالإنسان فتُجعل مثالاً يرتدع به غيره فهي كالنكال، والمثلات التي خلت هي أمثال لما تهددهم من عقوبات الدنيا والآخرة، حيث الأولى تشهد للأخرى، كما تشهد لنظيرتها في الأولى لأنها كلها تشهد لصدق الوعد والوعد الصدق.

ألا «واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المَثُلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال فتذكروا في الخير والشر أحوالهم واحذروا أن تكونوا أمثالهم»(١).

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٢٨٢ ح ١٢ في كتاب التوحيد باسناده عن ابو ذكوان قال سمعت ابراهيم العباسي يقول: كنا في مجلس الرضا (عليه السلام) فتذاكروا الكبائر وقول =

ألا « فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته ووقايعه ومَثُلاته واتعظوا بمثاوي خدودهم ومصارع جنوبهم ».

أوَ لا تكفي هذه المَثُلات التي خلت عبرةً لصدق الرسالات، وليصدقوا أنباءها لعقوبات هنا،وفي الآخرة أشد وأنكى « وما الله يريد ظلماً للعباد ».

ألا فلينظروا إلى مصارع الغابرين حيث استعجلوا العذاب المهين فأصابهم حيناً بعد حين وتركهم مَثُلَةً يعتبر بها وأمثولة للكافرين، ثم لينظروا إلى رحمة الله الواسعة كيف يَعد عباده على ظلمهم: « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » فالناس دون « المؤمنين » و « على ظلمهم » دون « التائبين » يدلاننا على سعة الرحمة المغفرة كأصل بين العباد، اللهم إلّا للمعاندين المتعنتين، السائرين في ظلمهم وعُتوِّهم بكل عناد وعتاد « وإن ربك لشديد العقاب »!

فمن يصر في الظلم ويلجّ ولا يبتغي باب الرحمة ليلجَ، مستغنياً عن رحمة الله، مستعجلاً بعذاب الله فـ « إن ربك لشديد العقاب » والباقون هم في رحمة الله بشروط ودون شروط،ما دامت لا تمس من كرامة عدله.

ثم « ربك » في الرحمة والعذاب، تلميحةٌ أنهم كانوا مشركين،لهم ارباب متفرقون، وأن هذه الرحمة غير محدودة تستقصي كل ما بالإمكان من رحمة رحيمية، وكما أنزل كل رحماته على هذا الرسول العظيم.

كما وأن عذابه في موقفه العدل لا يُحدُّ ولا يُمنع: « فيومئذٍ لا يعذب عذابه أحد . ولا يوثق وثاقه أحد » (٨٩ : ٢٦).

= المعتزلة فيها انها لا تغفر فقال الرضا (عليه السلام) قال ابو عبد الله (عليه السلام) قد نزل القرآن بخلاف قول المعتزلة قال الله جل جلاله « وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ... ».

ثم « لذو مغفرة » تعم النشأتين، والأولى هي المعلومة المتيقنة هنا، حيث المشرك لا يُغفر في الأخرى، فعلّه قد يغفر عن مَثُلات العذاب هنا لعلهم يرجعون، ام يزيدهم عذابهم في الأخرى، كما وأن عذابهم في الأولى لعلهم يرجعون : « وبلوناهم بالحسنات والسيئآت لعلهم يرجعون » (٧ : ١٦٨) « ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » (٣٠ : ٤١) ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون » (٣٢ : ٢١) .

إذاً فليس غَفْر المشركين يوم الدنيا سماحاً عنهم فيما يظلمون، وإنما تأجيلاً عنهم لعلهم يرجعون، أم يزيد في عذابهم إن كانوا على الحنث العظيم يصرون : « ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون . انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ..» (١٤ : ٤٢)

أجل وان باب التوبة والمغفرة مفتوحة بمصراعيها على كافة الناس في هذه النشأة على شروطها المسرودة في القرآن، ثم من المعاصي ما تُغفر دون توبة في النشأتين كصغائر السيئآت لمن يجتنب كبائر ما ينهى عنه، وصغائر الواجبات لمن يأتي بكبائر الحسنات، ثم لا مغفرة بعد الموت لمن مات مشركاً فضلاً عن الملحد : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (٤ : ٤٨) .

و « لذو مغفرة للناس على ظلمهم » دون غافر أو غفور، للإشارة إلى عدم فعلية الغفران لمن هو في حالة الظلم والطغيان، ولا سيما الظلم بعباد الله حيث لا يُغفر إلاّ ان يغفروا هم ظالميهم، فقد تدل « ذو » على شأنية الغفران للظالمين على ظلمهم إن تركوا ظلمهم وجبروا ظلامتهم، فليس هو تعالى ليغضب على الظالم لحد يسد عنه باب الغفران، ولأن الظلم يعم كل صغيرة وكبيرة فهذه الآية مما تشهد لغفران الكبائر كما الصغائر ـ وطبعاً ـ

بشروطه . فليعش الظالمون بين الخوف والرجاء فـ « لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ لأحد العيش ولولا وعيده وعقابه لا تّكل كل أحد »[(١)].

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾(٧):

لقد طعنوا في نبوته بنكران الحشر أولاً ، وباستعجال عذاب الإستئصال ثانياً ، وهنا يستأصلونها - في زعمهم - أن ليست لنبوته آية ثالثاً - وبذلك الثالوث المنحوس يظنونهم غالبين ! ولم يأتوا فيها بشيء مبين إلاّ شبهات واهية وادعاآت خاوية !

« لولا أنزل عليه آية » هي مقالة الناكرين لهذه الرسالة السامية ، وليست هي من آيات الشرعة التدوينية فهنالك القرآن أفضل آية ! إذاً فهي آية تكوينية لرسالته كما أوتي رسل الله من قبل : « وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته .. » (٦ : ١٢٤) فقد كانت له آيات تكوينية عابرة على ضوء آية القرآن القمة الأصيلة ، ولكنهم كانوا يتطلّبون منه آية كما أوتي رسل الله ، تعذيبية مدمرة ، أم إرشادية مقترَحة كما يشتهون ، وهذه الآية كأضرابها إجابة قاطعة عما كانوا يقترحون ، فعن آيات مستأصلة : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلاّ تخويفاً » (١٧ : ٥٩)[(٢)] وعن سائر الآيات الحسية العابرة « ولكل قوم هاد » فتلك الآيات الغابرة كانت تهدي من له شرعة

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٤٥ - اخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لولا ..

(٢) راجع تفسيرها في الاسراء .

عابرة ، ولكنها الشرعة الدائبة القرآنية فآيتها دائبة كما هيه ، فلا تكون ـ إذاً ـ كما أرسل الاولون .

وعن مطلق الآيات المقترحة أياً كانت: « إنما انت منذر » دونما أصالة في الإتيان بآية ، أم وكالة عن الله في أيَّة آية : «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » (٦ : ١٠٩).

طبيعة آيات الرسالات أن تدل على صادق الوحي تدوينية كانت أم تكوينية ، تخويفية أمّاهيه ، فإنما الغاية المقصودة منها هي الحجة البالغة الإلهية ، فليست ـ إذاً ـ في كمياتها وكيفياتها ، في أمكنتها وأزمنتها ، في الرسل الذين يؤتونها ، ليست في ذلك كله إلاّ كما يراه الله ويرضاه صالحة للتدليل على رسالة الوحي ، فـ « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (٦ : ١٢٤): رسالة الوحي ، ورسالة الآية الدالة على الوحي أمّاهيه من كمية وكيفية في ايّ زمان أو مكان من رسالته .

فـ « لولا أنزل عليه آية من ربه » نكرانٌ لربوبيته له وإن كان رباً ، إذ ما خوّله استنزال آيات كما يريدون ، ومنها السيئة التي بها يستعجلون ، وكساير الآيات التي أرسل بها النبيون ، والجواب كلمة قاطعة قاصعة : « الله اعلم حيث يجعل رسالته » و « إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً .. (٢٩ : ٥٢) « ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا .. » (١٠ : ٢٠) مما يخص العلم بالآيات المعجزات والقدرة عليها واستصلاحها بالله تعالى شانه العزيز .

وهنا نجد في الإجابة عن سؤال: « لولا أنزل عليه آية من ربه » تعريفاً بكيان الرسول ككل « إنما انت منذر » إنذاراً بالوحي : « إنما أنذركم

بالوحي » (٢١ : ٤٥) وأما الوحي وآية الوحي فلست منها في شيء ، فإنها ـ فقط ـ من الله دون سواه ! ثم « ولكل قوم هاد » من رسول كما أنا ، ومن وحي كما القرآن ، ومن آية للوحي كالقرآن وما قبله من آيات معجزات ، ومن ساير ما يدل على رسالة الوحي .

ليس « ولكل قوم هاد » عطفا على « منذر » إذ لم يكن الرسول بشخصه ولا برسالته هادياً لكل قوم ، حيث الأقوام قبله وقبل أقوامه كانت لهم هدات سواه ، ثم الصيغة الصحيحة عن مغزى العطف « إنما أنت منذر وهاد لكل قوم » حتى لا يلتبس المعني بينه وبين سواه ،حيث القرآن بيان في قمته ، ثم لا رباط في هداه « لكل قوم هاد » كما لا رباط بخصوص الهدات إليه ، فلتعم كل هدى لكل قوم ،أصلية وفرعية ، رسالة أم آية لها معجزة تدل عليه .

فإنما « إنما أنت منذر » تسلب عنه سائر المسؤوليات والمسئلات إلاّ الإنذار ، فليس آية الوحي بيده كما الوحي ، فإنها من عند الله ، ثم الله لا يهدي كل الأقوام بنسق واحد وآية واحدة ، بل « ولكل قوم هادٍ » إلى رسالة الوحي ، « هادٍ » رسولي ككافة الآيات المعجزة وفقاً لمناسبات الزمن وأهله والحاجيات التي يعيشونها ، ووفقا لصبغة الرسالة وصيغتها وصنيعتها ، فالرسالة القرآنية في أجواء الفصاحة والبلاغة تتطلب آية خالدة تمشي مع الزمن هادية في كل الزمن حتى آخر الزمن ، وهي بمتناول الأيدي في كل مكان وزمان ، زمن الرسول وبعده حتى آخر زمن التكليف ، إذاً فلا هادي إلى رسالة الوحي الأخير إلاّ نفس الوحي الأخير في صيغة التعبير ، وما يحويه من كل صغير وكبير: «أو لم يكفهم أنا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم»؟! ، مهما كان نفس الرسول قرآناً كما القرآن وأفضل ، حيث يزيد بياناً وتفسيراً وتعبيراً علمياً وتطبيقاً « إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين » (٣٦ : ٦٩) فهو والقرآن يهديان إلى رسالة وحيه أصالة ، ولكنما الهداية المنفصلة عنه إلى

وحيه وشرعته تتمثل في الهداة معه وبعده ، و « لكل قوم » يشملهم ومَن قبلهم من رجالات السماء وخلفائهم ، والقرآن آية خالدة تمشي مع الزمن بردح يوازي ردح الرسالة لرسول الزمن محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

فلا تنوب مناب هذه الآية الخالدة أيّة آية مضت في الرسالات الخالية غير الخالدة، إذ ليست لتهدي الى هذه الرسالة السامية حجة لها بالغة ، إلّا عابرة غابرة تخص زمن الرسول .

ومن ثم هناك هادٍ رسالي كمن رباه الرسول وصنعه على عينه من هارون لموسى والحواريين للمسيح ، ومن علي امير المؤمنين للرسول الأقدس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فانه هادٍ لرسالة وحيه وشاهد منه : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهدٌ منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة اولئك يؤمنون به فمن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده . . » (١١ : ١٧) وقد تلاه شاهدٌ لرسالته منفصل عنه متصل به لأنه منه.

فعلي (عليه السلام) أصدق مصاديق من « لكل قوم هاد» وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما تواتر عنه أنه وضع (صلى الله عليه وآله وسلم) يده على صدره فقال : أنا المنذر وأومأ بيده إلى منكب علي (عليه السلام) فقال : أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي »[1] إهتداءً إلى هذه الرسالة السامية دون أية نقيصة أو زيادة .

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٤٥ ـ اخرج ابن جرير وابن مردوية وابو نعيم في المعرفة والديلمي وابن عساكر وابن النجار قال لما نزلت : انما انت منذر ولكل قوم هاد ـ وضع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يده. . . واخرج مثله ابن مردويه عن ابي برزه الاسلمي سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : انما انت منذر ووضع يده على صدره نفسه ثم وضعها على صدر علي ويقول : لكل قوم هادٍ،واخرج عبد الله بن احمد في زوائد المسند وابن ابي حاتم والطبراني في الاوسط والحاكم وصححه وابن مردوية وابن =

ليس لعلي (عليه السلام) دور الهداية مستقلة عن هدي الوحي ، فإنما هو ـ وعلى حدّ تعبيره ـ « فرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المنذر وأنا الهادي إلى ما جاءَ به »[١] ـ « فالهادي بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هادٍ لأمته على ما كان من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)[٢] كما وان « كل أمام هادي كل قوم في زمانه »[٣] .

= عساكر عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) في الآية قال : رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المنذر وانا الهادي .

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٨٢ ح ١٥ امالي الصدوق باسناده الى عباد بن عبد الله قال قال علي (عليه السلام) ما نزلت من القرآن آية الا وقد علمت اين نزلت وفيمن نزلت وفي اي شيء نزلت وفي سهل نزلت او في جبل نزلت قيل فما نزل فيك ؟ قال : لولا انكم سألتموني ما اخبرتكم نزلت في هذه الآية « انما انت منذر ولكل قوم هاد» فرسول الله .. و ح ١٧ روى الحاكم ابو القاسم الحسكاني في كتاب شواهد التنزيل بالاسناد عن ابي بردة الاسلمي قال : دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالطهور وعنده علي بن ابي طالب فاخذ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بيد علي بعدما تطهر فالزقها بصدره ثم قال : انما انت منذر ثم ردها الى صدر علي ثم قال : ولكل قوم هاد ثم قال : انك منارة الانام وغاية الهدى وامير القرى اشهد على ذلك انك كذلك .

(٢) المصدر ح ١٨ كشف المحجة عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل وفيه قال الله لنبيه « انما انت منذر ولكل قوم هاد » فالهادي بعد النبي هاد لامته على ما كان من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فمن عسى ان يكون الهادي الا الذي دعاكم الى الحق وقادكم الى الهدى .

(٣) المصدر ح ١٩ وفي كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى محمد بن مسلم قال قلت لابي جعفر في هذه الآية فقال . . . ومثله ٢٠ في اصول الكافي باسناده عن الفضيل قال سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل « ولكل قوم هاد » فقال : كل امام هاد للقرن الذي هو فيهم، ومثله ح ٢١ القمي باسناده عن بريد العجلي عن ابي جعفر (عليه السلام) في الآية قال : رسول الله المنذر ولكل زمان منا هاد يهديهم الى ما جاء به نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم الهداة من بعده علي والاوصياء واحداً بعد واحد، وفيه ٢٣ الكافي باسناده عن ابي بصير قال قلت لابي عبد الله =

فـ « لا تخلو الارض من قائم بحجة الله إما ظاهر مشهور وإما خائف مغمور لئلا تبطل حجج الله وبيناته »[1].

ولئن سألنا : مَن هو الهادي بعد دور الرسول والائمة الحضور زمن الغائب المغمور ، القائم الموتور ؟

فهل انه العالم العليم الأتقى الأعلم في كل دور وكور ، وليست هدايته خالصة كما الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من آل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فهذه الهدى غير المعصومة ولا العاصمة ليست بالتي تصلح خليفة من خلفاء الرسول في « إنما أنت منذر » ؟ !

قلنا ان الهادي المعصوم على مرّ الزمن منذ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى القيامة الكبرى هو القرآن العظيم ، فكما الرسول كان ينذر بالقرآن كذلك خلفاؤه المعصومون الهادون إلى ما كان عليه ، وليكن العلماء الربانيون هداة بالقرآن كما يحق ويتمكنون ، ثم الأخطاء حينئذ قلة مغفورة ، او مردودة إلى كتاب الله وسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و ان « القرآن لم يمت وانه يجري كما يجري الليل والنهار وكما يجري

=(عليه السلام) « انما انت منذر ولكل قوم هاد » فقال : رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المنذر وعلي الهادي يا ابا محمد هل من هاد اليوم ؟ قلت : بلى جعلت فداك ما زال منكم هاد من بعد هاد حتى دفعت اليك فقال : رحمك الله يا ابا محمد لو كانت اذا نزلت آية على رجل ثم مات ذلك الرجل ماتت الآية مات الكتاب ولكنه حي يجري فيمن بقي كما جرى فيمن مضى :

(١) المصدر ح ٢٤ القمي عن حماد عن ابي بصير عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : المنذر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والهادي امير المؤمنين وبعده الائمة (عليهم السلام) وهو قوله « ولكل قوم هاد » في كل زمان هاد مبين وهو رد على من ينكر ان في كل اوان وزمان اماماً وانه لا تخلو الأرض . .

الشمس والقمر »[١] فانه «حي لا يموت »[٢] مهما وقف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة عن الجري، او ماتوا وغاب آخرهم، فالقرآن لا يموت ولا يغيب عن المسرح إلّا اذا غيّبته حملته، وخانته أمنته، اللهم غيّب الحملة الخونة وأظهر الأمنة.

﴿ أللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَتَزْدَادُ وَكُلُّ شيءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾(٨).

تعريفة واسعة في هذه الآية وما بعدها بالسعة العلمية الإلٓهية وإعمال القدرة بمقدارها الصالح والأصلح، تربطها بما قبلها لكيلا يظن حماقى الكفر والطغيان أنه تعالى يعجز او يَضِن بإنزال آية كما يقترحون.

فالعلم المطلق بما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وتزداد، هو من اختصاصات الربوبية، فلا يطارد مطلق العلم في بعض الأحوال بالبعض مما في بعض الأرحام، ما كشف عنه علم الجنين او سيكشف، وما قد يعلمه أولوا العلم المعصومون وسواهم.

و «تحمل كل أنثى» هنا تحمل كل أنثى من شأنها أن تحمل، دون إبقاء، حيث الكل في لسان خالق الكل ليس ليختص بالبعض من الأناثى التي نعرفها.

---

(١) المصدر ح ٢٧ العياشي عن عبد الرحيم قال ابو عبد الله (عليه السلام) ان القرآن لم يمت وانه يجري..

(٢) المصدر ح ٣٦ العياشي عن عبد الرحيم القصير قال كنت يوماً من الايام عند ابي جعفر (عليه السلام) فقال يا عبد الرحيم قلت لبيك قال قول الله «انما انت منذر ولكل قوم هاد» اذ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انا المنذر وعلي الهادي ومن الهادي اليوم؟ قال: فمكث طويلاً ثم رفعت رأسي فقلت جعلت فداك هي فيكم تُوارثوها رجل فرجل حتى انتهيت اليك فانت جعلت فداك الهادي قال: صدقت يا عبد الرحيم ان القرآن حي لا يموت والآية حية لا تموت.

فكل أنثى من إنس وجان ام اي نبات او جماد او حيوان ام ايّاً كان في فسيح الكون ،.معنيَّة بـ « كل أنثى » من ذوات الأرحام وسواها ، مما تغيض وتزداد وسواها ، فناصية الآية تعمها كلها مهما اختصت الباقية بذوات الأرحام .

ثم « ما تحمل كل أنثى » تعم حملها حينما تكون « ما » مصدرية ، وما تحمله موصولة ، كما فيما تغيض الأرحام وتزداد .

وفيما يخص ذوات الأرحام من مطلق الحيوان إنساناً وغير إنسان ليس « ما تحمل » الجنين فقط ، او النطفة الجرثومية فقط ، بل هو كل « ما تحمل كل أنثى » من ماء الذكر في كمه وكيفه بعديد الملايين من دوداته العلقية المنوية ، أم من أصلاب عُقم في ارحام عقم ، ام دون عقم في ارحام ولودة ، وفي الولودة حين تنضج او تعقم لحالات طارئة ام معمَّدة ، وفي الناضجة حين تجهض ام تلد سليمة ام ناقصة ، أم اية حال على أية حال .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ثم الغيض هو النقص بابتلاع كما « وغيض الماء » أبتلع ، والغيضة هي المكان الذي يقف فيه الماء فيبتلعه ، ولأن حقيقة الغيض إنما يوصف بها الماء فـ « ما تغيض الأرحام » هو الما ء ، وهنا بطبيعة الحال مطلق السائل حيث الأرحام لا تبتلع الماء القراح ، فغيضها يعم مياه المني والنُطَف ، ومياه الحيض .

ولأن « ما تغيض الأرحام » هنا مطلق فقد يعمها، وأين غيض من غيض و « ما تزداد » في كلٍّ بحسبه .

فمما « تغيض الأرحام » وتبتلع، النطف التي تجذبها إلى أعماقها في قراراتها ، وتشتمل على نفاياتها ، فيكون ما غاضته من ذلك الماء سبباً لزيادة فيها وسعة لها حيث تصبح علقة ثم مضغة ثم عظاماً ثم كسوة لها لحماً ثم

إنشاءً لخلق آخر فإنساناً ، والعطف هنا « وما تزداد » في ذلك الردف يجمع بينهما في ولودة الأرحام .

ومنها ما تبتلع غيض الإنتقاص الإمتصاص بأن تفسده او تجهضه ، إذاً فـ « وما تزداد » قد تعني زيادة الإبتلاع الأوّل فزيادة في الأجنّة ذكراً وأنثى[1] أما زاد، وبينهما عوان أن تغيض جنيناً واحداً فتغيض هكذا ولا تزداد ومما « تغيض الأرحام » النقص في مدة الحمل وازديادها بين أقلها : الستة وما دونها ، وأقصاها : التسعة أو ما زاد[2] والمستفاد من آية العامين : « وفصاله في عامين (٣١ : ١٤) وآية الحمل « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » أن اقل الحمل ستة ، ثم لا يزيد على تسعة إلّا اياماً قلائل ، فأغرِب بالأئمة الثلاثة كيف مدوها الى سنتين واربع وخمس[3]؟ .

ومما « تغيض الأرحام وتزداد » دم الحيض ، تغيضه الأرحام إبتلاعاً ،

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٨٥ ح ٣٣ العياشي محمد بن مسلم وحمران وزرارة عنهما (عليهما السلام) قالا : « ما تحمل كل انثى » انثى او ذكر « وما تغيض الارحام » التي تحمل « وما تزداد » من انثى او ذكر،وعن محمد بن مسلم قال : سالت ابا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله : « ما تحمل كل انثى وما تغيض الارحام » قال : ما لم يكن حملاً « وما تزداد » قال : الذكر والأنثى جميعاً .

(٣) في تفسير الفخر الرازي ١٩ : ١٥ ، مدة ولادته قدتكون تسعة اشهر وازيد عليها الى سنتين عند ابي حنيفة والى اربعة عند الشافعي والى خمس عند مالك وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وهرم بن حيان وبقي في بطن امه اربع سنين ولذلك سمى هرماً .

(٢) نور الثقلين ٢ : ٤٨٥ ح ٣٢ العياشي عن احدهما (عليه السلام) في « ما تحمل كل انثى » يعني الذكر والانثى « وما تغيض الارحام » قال : الغيض ما كان اقل من الحمل « وما تزداد » ما زاد من الحمل ، فهو كلما زاد من الدم في حملها و ح ٣٥ زرارة عن ابي جعفر (عليه السلام) في قول الله « يعلم ما تحمل كل انثى » قال : الذكر والانثى « وما تغيض الارحام » قال : ما كان من دون التسعة وهو غيض « وما تزداد » قال : ما رأت الدم في حال حملها ازداد به على التسعة اشهر .

طعاماً وشراباً للجنين ، وما تزداد الأرحام منه دفعاً عنها وقت الحمل أحياناً ، وقبله وبعد الإجهاض او الولادة دوماً .

ومن الأرحام ما لا تغيض ولا تزداد حملاً او دماً كمن قبل سن الحيض وبعد اليأس ، والتي لا تحيض أو هي في سن من تحيض وهي عقيمة ، فهذه الأرحام قد تحمل المنى ولكنها لا تغيض ولا تزداد .

« وكلُ شيء » من حمل وسواه ، وغيض وازدياد في حمل وسواه « عنده بمقدار » دون تفلُت ، ولا تلفُت وصدفة عمياء « وان من شيء إلاّ عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » (١٥ : ٢١) فـ « ان الله بالغ امره قد جعل الله لكل شيء قدراً » (٦٥ : ٣) .

﴿ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالُ ﴾(٩):

الغيب عن بصر او بصيرة ، والشهادة لبصر او بصيرة ، هما أمران نسبيان بالنسبة للعلم المحدود ، فالغيب المطلق لا يعلمه إلاّ الله ، والشهادة المطلقة يعلمها كل شاهد ، والعوان بينهما من مطلق الغيب والشهادة يختلف بمختلف الحدود في العلوم ، وكل هذه الثلاث شهادة مطلقة للكبير المتعال « لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض » (٣٤ : ٣) لانه رب الجميع « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء » (١٠ : ٦١) « ربك » حيث الجمعية التامة لربوبيتي فيك طامة ، فكما لا تعزب أنت عن علم ربك وأنت خلاصة الكون ومجمله ، كذلك لا يعزب عنه اي كائن بتفصيله .

ذلك العلم المطلق منحصر فيه ، منحسر عن سواه ، لأنه الكبير لا كبير سواه ، كبر اللاّ محدودية ذاتية وصفاتية وأفعالية ، علمية وفي القدرة أمّاهيه ، فكيف لا يحيط علماً بما سواه وهو الذي خلقه ، ثم ولا أكبر منه

ولا يتصور حتى يغيب عنه كما يغيب هو عما سواه ، فانه « المتعال » عن أن يحيط به شيء او يدانيه او يساميه ، تعالياً في كافة ميِّزات الربوبية ، فلا كبير إلّا هو ولا متعالي إلّا هو ، فلا يعلم الغيب والشهادة على سواء إلّا هو ، وكل شيء سواه جاهل بجنبه ، صغير متدان ، خاذل مُهان .

فحين يقال عنه «الكبير» فهو الكبر في ذاته وذاتياته وقياساً إلى مخلوقاته « وان الله هو العلي الكبير» (٢٢ : ٦٢) وحين يقال عنه « اكبر » فلا يعني إلّا انه أكبر من ان يوصف او يحاط به علماً او قدرة او يساوى ويسامى في كبريائه،لا أنه اكبر من كل شيء ، إذ لا كبير أمام كبريائِه حتى يكون هو الأكبر منه،مشاركاً له في أصل كبره ، ولذلك لم يأت في القرآن عنه الأكبر ، إلّا الكبير المتعال والعلي الكبير،ليكون حصر الكِبَر في الله وحسره عن غير الله،واضحاً لا يريبه شكٌ ، إذاً فلأنه الكبير المطلق فهو المتعال الأكبر عن أن يحاط به .

﴿ سَواءٌ مِنكُمْ مَنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ ﴾(١٠).

إن مجاهيل السرائر والأسرار ، ومجاهير السوارب والآثار ، وكل شاردة وواردة آناء الليل وأطراف النهار ، كل هذه جاهرة ظاهرة أمام « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ».

ومن ذلك غيب القول ممن أسر به وشهادته ممن جهر به.فإنهما بالنسبة له جهار ، كمن هو مستخفٍ بالليل في بعدي غيب الليل بظلامه وتغيّبه واستخفائه في غيبه ، ومن هو سارب : ذاهب في صدور وانحدار«بالنهار» شهادة في بعدي ضوء النهار وانجلاءه،ذاهباً أمام الناظرين .

فسواءٌ أكان الإنسان مستخفاً في الظلمات أم ظاهراً في الطرقات فالله يعلمه على سواء ، كما وأن قدرته بكل شيء على سواء ، ودنوه من خلقه

فيهما على سواء !

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾[١١] .

آية عديمة النظير في صيغة التعبير ، اللهم إلّا في الأخير : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم » (٨ : ٥٣) وقد تختلفان في مختلف التغيير ، فهنا « حتى يغيروا ما بأنفسهم » قد يعم الخير والشر ، وفي الأنفال يختص بالشر .

ثم « معقبات » جمع « معقبة » مبالغة « معقب » كما العلّامة للعالم فتائها للمبالغة دون التأنيث لمكان « يحفظونه » مذكراً ، وان الملائكة ليسوا أناثاً .

وهنا « معقبات » وليست « عاقبات » حتى تختص بـ « من خلفه » ويختلق « لـ « من بين يديه » رقيب » ، فالمختلق لفظ الآية « له معقبات من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بأمر الله من أمر الله »[١] حيث ينسبها إلى الصادقين من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) زوراً وغروراً ، إنه

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٨٢ ج ٢٩ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب حمران قال قال لي ابو جعفر (عليه السلام) وقد قرأت « له معقبات من بين يديه ومن خلفه » قال : وانتم عرب يكون المعقبات بين يديه ؟ قلت : كيف نقرأها ؟ قال : له معقبات من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بامر الله ، [من امر الله] اقول فمختلق هذه الرواية لا يعرف لغة العرب فلم يميز معقبات عن عاقبات ، ثم كيف يحفظونه بامر الله من امر الله ، فهل الله يعارض امره الاصل بامره الفصل ؟ ومثله عن القمي بعد نقل الآية فقال ابو عبد الله (عليه السلام) كيف يحفظ الشيء من امر الله وكيف يكون المعقب من بين يديه ؟ فقيل له : وكيف ذلك يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : انما انزلت : له معقبات من خلفه ورقيب من بين يديه يحفظونه بامر الله .

كذاب أشر لا يعرف اللغة فيهرف بما يحرف تحريفاً للآية وقد روي خلافها[١].

والمعقب من التعقيب هو ان ياتي بشيء بعد آخر، وهو الرقابة وكالة من شخص على آخر أم على نفسه ليراقبه، والمعقبة هو الحفيظ الذي يتعقب كل إنسان، يحفظ عنه كل شاردة وواردة، وكل خاطرة وخالجة او خارجة يحفظ عليه كل حسنة وسيئة حفاظاً مزدوجاً له وعليه، وحفاظاً متراوحاً.

فملائكة الليل والنهار معقبات اذ يأتي كلٌ تلو الآخر، وقد يتواردان كما في قرآن الفجر «إن قرآن الفجر كان مشهوداً» (١٧ : ٧٨) لملائكة الليل والنهار[٢].

---

(١) المصدر ح ٣٨ تفسير العياشي عن فضيل بن عثمان عن ابي عبد الله في هذه الآية «له معقبات من بين يديه..» قال: هو المقدمات المؤخرات المعقبات الباقيات الصالحات».
اقول تراه ترك الآية على حالها وفسرها بما فسر، وفي الدر المنثور بسند بمتنه اوردناه تحت العدد (٢) مثله عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في نقل: الآية كما هي في القرآن.

(٢) لقد تظافرت الرواية عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأئمة اهل بيته في تفسير الآية «ان قرآن الفجر كان مشهوداً» انه مشهود لملائكة الليل والنهار حيث يتعاقبون فيها ويتوافقون في شهود قرآن الفجر طائفة ذاهبة وطائفة جائية، وفي الدر المنثور ٤ : ٤٧ - اخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم عن ابن عباس في الآية قال: هم الملائكة تعقب بالليل والنهار تكتب على بني آدم، وفيه اخرج ابن جرير عن كنانة العدوي قال دخل عثمان بن عفان على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا رسول الله (ص)! اخبرني عن العبد كم معه من ملك فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): ملك عن يمينك على حسناتك وهو امين على الذي على الشمال اذا عملت حسنة كتبت عشراً فاذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين اكتب قال: لا لعله يستغفر الله ويتوب فاذا قال ثلاثاً قال نعم اكتبه اراحنا الله منه فبئس القرين ما اقل مراقبته لله واقل استحياءه منه يقول الله: ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد، وملكان من بين يديك ومن خلفك/=

وكلٌ منهم يحفظون علينا اعمالناويكتبون «وان عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون » (٨٢ : ١٠) .

كما كل منهم « يحفظونه »نفسه ،كما يحفظون أعماله « من أمر الله » وان كان « الله حفيظ عليهم » (٤٢ : ٦) كما « وربك على كل شيء حفيظ » (٣٤ : ٢١) ولكنه « وهو القاهر على عباده ويرسل عليكم حفظة » (٦ : ٦١) حفاظاً على أنفسنا وأعمالنا ، وكل ذلك بأمر الله ومن أمر الله ، و « انهم ملائكة يحفظونه من المهالك حتى ينتهوا به إلى المقادير فيخلون بينه وبين المقادير »[1] التي تقدرت عليه بما غيّر من نفسه .

وترى إذ لم يكن محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو اوّل العابدين حفيظاً « فما أرسلناك عليهم حفيظاً » (٤ : ٨٠) فكيف يكون الملائكة وهم دونه حفظة؟ ! ان الحفظ المنفي هو الحفاظ على هداهم، إذ ليست إلاّ

= يقول الله : له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله ، وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لله رفعك واذا تجبرت على الله قصمك وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك الا الصلاة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وملك قائم على فيك لا يدع ان تدخل الحية في فيك وملكان على يمينك فهؤلاء عشرة املاك على كل بني آدم ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار لان ملائكة الليل سوى ملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكاً على كل آدمي وابليس بالنهار وولده بالليل .

(١) المجمع رواه عن علي (عليه السلام) في الدر المنثور ٤ : ٤٨ ـ اخرج ابو داود في القدر وابن ابي الدنيا وابن عساكر،واخرج ابن ابي الدنيا في مكايد الشيطان والطبراني والصابوني في المائتين عن ابي امامة (رضي الله عنه) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : وكل بالمؤمن ثلاثمائة وستون ملكا يدفعون عنه ما لم يقدر عليه من ذلك للنصر سبعة املاك يذبون عنه كما يذب عن قصعة العسل من الذباب في اليوم الصائف وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كلهم باسط يديه فاغرفاه وما لو وكل العبد فيه الى نفسه طرفة عين لاختطفته الشياطين .

لله دونها وكالة ، وأما الحفاظ على أعمال للشهادة يوم يقوم الأشهاد ، فقد يعم بعض المؤمنين فضلاً عن الرسول وسائر المرسلين ومعهم الملائكة الكـرام الكاتبون .

وكذلك الحفاظ على كل شارد ووارد ، له أهل خصوص وليس من شأن الرسل الدعاة إلى الله ، مهما خُوِّلوا في ذلك بقليل او كثير .

هؤلاء هم المعقبات ، وهذه شؤونهم المحولة إليهم في خلق الله ليلَ نهار ، اجتلاباً لخيراتهم ، وإبعاداً عنهم سيآتهم ما لم يغيروا ما بانفسهم ، وحفاظاً على أعمالهم التي يعملون ، ولكي يشهدوا لهم أو عليهم فيمن يشهدون .

أتـرى الى مَ يرجـع الضمير في « له » ؟ إلى الله ؟ وهو أبعـد مرجعـاً ! و « من أمـر الله » دون « من أمره » يبعـده راجعـاً،حيث يـرجـع المعنى « لله معقبـات » «يحفظونه من امر الله » ثم ووحـدة السياق في الضمـائر توحـدهـا مرجعاً وهي أوفق بأدب اللفظ وأدب المعنى .

أم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ ولم يسبق له ذكر ! ولا تخصه المعقبات « ويرسل عليكم حفظة » !

أم إلى « من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار »؟ فنعماهيه، حفاظاً على وحدة الضمائر الأربعة «له - يديه - خلفه - يحفظونه » وتقريباً للمرجع ، وأحبِبْ به حين يعني « له » مرسل المعقبات والمرسَل إليهم ، فهم لله حيث يرسلهم الله : « ويرسل عليكم حفظة » وهم لعباد الله حيث « يحفظونهم من أمر الله » فـ « إن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين » .

ثم ترى ماذا تعني « من امر الله » ؟ أحفظاً من الله عن بأسه ببؤسهم

« وإذا اراد الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دون الله من وال » ! ثم وكيف يرسل الله من يعارض أمره !

أم حفظاً لعباد الله بأمر الله ؟ وهنا « يحفظونه من أمر الله » دون « بأمر الله » !

بل حفظاً صادراً من أمر الله، كما الحفظة هم أنفسهم من أمر الله، حيث المناحرة لأمر الله هي حفظ عن أمر الله لا « من أمر الله » ثم و « بأمر الله » تختص بحفظهم دون أنفسهم، ولكن « من أمر الله » تتعلق بالكائن المقدر كما بـ « يحفظونه » فالمعقبات هم له تعالى، وهم من أمره تعالى[1]، ويحفظون عباده صادرين في حفظهم من أمره تعالى فهم في مثلث الرباطات بالله لا يملكون لأنفسهم أمراً إلّا بالله.

فكما الروح من أمره يحمل أمره: « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا » (٤٢ : ٥٢) « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » (٤٠ : ١٥) كذلك الحفظة المرسلون من عنده هم في أنفسهم من أمره، يحملون أمره ليحققوا أمره، فلا أجمل - إذاً - ولا أجمع هنا من « من أمر الله » !

فهؤلاء المعقبات - وهم من أمر الله وفعله وارادته ومشيئته - هم لله صادرين، وهم للناس واردين « من بين يديه ومن خلفه » تعبيراً عن جميع جوانبه بروحه وجسمه، حيطة شاملة كاملة لا تبقي منهم شيئاً ولا تذر إلّا تحت الرقابة والنظر « يحفظونه » بحفظ الله وفي رعاية الله ورقابته: « وكان الله على كل شيء رقيباً » (٣٣ : ٥٢) يحفظونه عن الطوارىء المتواترة المتواردة عليه، الغائبة والشاهدة لديه، التي لا يقدرون عليها، وكما « يحفظونه » في أعماله وأقواله وكل أحواله، حفظاً صادراً « من أمر

(١) الدر المنثور ٤ : ٤٧ اخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى : له معقبات قال : الملائكة من أمر الله.

الله » دون أمرهم ، إذ لا أمر لهم إلّا من الله ، كما وهم أنفسهم من أمر الله .

فالناس - إذاً - في حفظ الله ورعايته ورقابته الدائبة ، ولكنها شريطة أن يحافظوهم - ايضاً - على أنفسهم كما يُحافظَون ، فإذا غيّروا ما بأنفسهم غير الله بهم وأغار عليهم ، غياراً من ذوات أنفسهم: « ان الله لا يغير ما بقوم » من الحفاظ عليهم « حتى يغيروا ما بأنفسهم » من حفاظهم على أنفسهم « وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى ».

وهذا الغيار مرحلة أولى للذين غيّروا ما بأنفسهم حيث يكلهم إلى أنفسهم « ونذرهم في طغيانهم يعمهون » (٦ : ١١) فإنهم « ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجّوا في طغيانهم يعمهون » (٢٣ : ٧٥) .

ثم مرحلة ثانية « الله يستهزء به ويمدهم في طغيانهم يعمهون » (٢ : ١٥) فـ « لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون » (١٥ : ٧٢) « وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مرد له وما لهم من دون الله من وال » !

إذاً فبين الحالات الأنفسية والآفاقية هالة مترابطة ، والأصل فيهما كما جعل الله خيرٌ وإلى خير ، فأعمق الحالات الأنفسية هي لفطرة الله التي فطر الناس عليها ، وذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ثم العقل على ضوئها إذا تبناها ، ثم الآفاقية فإنها آيات منفصلة تتجاوب مع الآيات الأنفسية ، ثم الله يرسل عليكم معقبات حفظة يحفظونكم من أمر الله .

هذه أصول ما بالإنسان من خيرات أنفسية وآفاقية . لا يغيرها الله إلى شرور حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فإذا غيروا غيَّر الله جزاءً وفاقاً ولا تظلمون نقيراً ، فـ « ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير » (٤٢ : ٣٠) و « ما أصاب من مصيبة إلّا باذن الله » (٨٤ : ١١) .

ثم غيار بالأنفس تختلف في الخير والشر ، ففي الشر «يعفو عن

كثير» في النشأتين ولا سيما في الأولى لأنها ليست بدار جزاء ، وفي الخير مزيد من فضل الله ولا أقل من عشرة: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها» (٦ : ١٦٠) .

ومهما اختصت آية الأنفال بغيار الأنفس إلى الشر . «ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (٥٣) فآيتنا هذه تعمه وغيارها إلى خير مهما تذيلت بتهديد الشر .

فإذا كان ما بأنفس قوم شراً فغيروا إلى خير غير الله شرهم إلى خير ، وهذه قضية رحمته اللازمة اللازبة حيث «كتب على نفسه الرحمة» وتتبناه أبواب الشفاعة والغفران وتكفير سيآت .

وإذا كان ما بأنفس قوم خيراً ـ كما هو خيرٌ بما جعل الله ـ أما زادوا بما وفق الله ـ ثم غيروه إلى شر، غيَّر الله خيرهم إلى شر واقل منه شراً حيث «يعفو عن كثير» ثم «لا مرد له وما لهم من دونه من وال» ! وليست إرادة السوء من الله لأي قوم إلاّ بعدما يغيروا ما بأنفسهم من خير : «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار» (١٤ : ٢٨)[1].

هذه ضابطة سارية المفعول بالنسبة لكل قوم، وترى الأفراد تشملهم كأفراد ، أم ـ فقط ـ ضمن الأقوام ؟ إنها سارية في الأفراد في الناحية الروحية دونما استثناء ، وأما المادية ففي ضمن الأقوام: «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون» (٧ : ٩٦) .

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٨٧ ح ٢٥ في كتاب معاني الاخبار باسناده الى ابي خالد الكابلي قال : سمعت زين العابدين (عليه السلام) يقول : الذنوب التي تغير النعم البغي على الناس والزوال عن العادة في الخير واصطناع المعروف ، وكفران النعم وترك الشكر .

فالجو الجماعي إذا ساده الصلاح والإصلاح فالبركات السماوية : الروحية ، والأرضية : المادية، تفتح عليهم ، وإذا ساده الفساد والإفساد فدركات من هذه وتلك إلّا على من اتقى الله فله بركاته الروحية مهما ضاقت عليه الأرض بحياته الأرضية ، حيث التقوى ليس نتاجها اللزام أن لها بركات أرضية، إلّا في الآخرة: «ثم يجزاه الجزاء الأوفى» ! وإلّا ضمن جماعة[1].

كما الطغوى لا تلازمها دركات ارضية، إلّا في الآخرة ، إلّا ضمن جماعة ام اذا طالت وتطاولت فيما طغت وبغت .

وفي حديث قدسي يرويه الرسول الاقدس (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الله : «يقول الله وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي ما من اهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهته من معصيتي ثم تحولوا عنها الى ما احببت من طاعتي إلّا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي ، وما من اهل بيت ولا قرية ولا رجل ببادية كانوا على ما احببت من طاعتي ثم تحولوا عنها إلى ما كرهت من معصيتي إلا تحولت لهم عما يحبون من رحمتي الى ما يكرهون من غضبي»[2].

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٨٧ ح ٤٦ اصول الكافي باسناده عن سدير قال: سأل رجل أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل «قالوا ربنا باعد بين اسفارنا وظلموا انفسهم : :» فقال : هؤلاء قوم كانت لهم قرى متصلة ينظر بعضهم الى بعض وانهار جارية واموال ظاهرة فكفروا بانعم الله عز وجل وغيروا مابانفسهم فارسل عليهم سيل العرم فغرق قراهم وخرب ديارهم ، واذهب باموالهم وابدلهم مكان جناتهم «جنتين ذواتي اكل خمط واثل وشيء من سدر قليل» ثم قال «ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور».

(٢) الدر المنثور ٤ : ٤٨ - اخرج ابن ابي شيبة في كتاب العرش وابو الشيخ وابن مردوية عن علي (عليه السلام) عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول الله وعزتي . . .

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)
لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ
لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ
بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤)
وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) ۩ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ
لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي
الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ
أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ
قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِىءُ السَّحابَ الثِّقالَ ﴾(١٢).

البرق ظاهرة كونية باهرة مبشرة أحياناً وقاهرة أخرى ، قد تخافونها لأنها بنفسها ورعدها تهز الأعصاب وترعد الأسماع ، فقد يتحول إلى صاعقة العذاب الهون ، أم تنذر بسيل مدمِّر أم طوفان مُزمجر ، وأخرى مبشرة بهاطل المدرار المجري للأنهار ، أم تجمع بين التبشير والإنذار حيث تبشر جماعة يحتاجون المطر، وينذر من يتضررون بالمطر، فأنتم تعيشونها خوفاً وطمعاً ، كما « وينشىء السحاب الثقال » محَمَّلة حِمل الماء ليُرسل عليكم مدراراً وغير مدرار .

والسحاب تاتي جمعاً كما هنا وفي الأعراف : « حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً . . » (٥٧) وواحدها سَحابة ، أم مفرداً إسمَ جنس كما في سائر القرآن[1] .

ثم « يريكم » يلمح بوجود البرق قبل إراءته في كمون الكائنات ومنها السحاب المسخرة في جو السماء ، فتعم البرق المصطنع المخترع ، فالبرق كامن في كل كائن ، قد يريه الله إيانا دون وسيطنا كما في سائر البرق ، وأخرى بوسيطنا كما في الكهارب المخترعة ، فهنا إراءة بما نسعى ، وهناك نراه ولا نسعى ، وتجمعهما إراءة الله ، كما وهو من خلق الله .

فليس البرق ـ أياً كان ـ ليُخلق باصطكاك وسواه ، وإنما يَظهر بعد

---

(١) « السحاب المسخر بين السماء والأرض » (٢ : ١٦٤) و« سحاب مركوم » (٥٢ : ٤٤) « يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه » (٢٤ : ٤٣) « تثير سحاباً فيبسطه في السماء » (٣٠ : ٤٨) « فتثير سحاباً فسقناه الى بلد ميت » (٣٥ : ٩) .

خفاءِه بما يظهره إلَهياً بأسبابه غير الشاعرة ، كالسحاب وسواه ، أم بأسباب شاعرة كالإنسان وسواه ، فكله من إراءة الله كما الكل من خلق الله .

وكذلك السحاب ثقالاً وغير ثقال كلها مما أنشأها الله ، بما يسحبه هو من أبخرة أرضية ولذلك يسمى السحاب ،أم يسحبه إنسانه أم سواه فيصطنع سحاباً موضعية لحاجة شخصية أماهيه .

فمن السحاب ثقال هي ركام مؤلفة من خفافها المزجاة من الأبخرة: « ألم تر أن الله يُزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » (٢٤ : ٤٣) .

ومنها خفاف لا تحمل ماءً حاضراً إلاّ بعدما تؤلّف فتصبح ركاماً ، وعلى أية حال فإنشاء السحاب الثقال هو من فعل الله ،سواءً دون وسيط عاقل محسوس كما في سائر السحاب ، أم بوسيط الإنسان وسواه كما حصل أخيراً بتعملات علمية جاهزة .

ومن غريب التكوين اللاّمح إلى قريب المكون الحكيم ، إراءة البرق باصطكاك السحاب خفافاً وثقالاً ، فإنها أبخرة الماء ، والماء يناحر النار فكيف تطلع منه نارٌ ، سبحان الواحد القهار ، أفلا يدل ذلك الصنع العُجاب على تقصّد وإرادة حكيمة وراء الكائنات كلها ؟ ! .

إنه يريكم البرق من أبخرة الماء ، كما النار من الشجر الأخضر «الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » (٣٦ : ٨٠) .

وقد تلمح « وينشيء السحاب الثقال » بعد « يريكم البرق » أن إنشاء السحاب الثقال من موارد إراءة البرق، ففي تاليف خفاف السحاب إصطكاك بينها تلاحقاً وتجمعاً ركاماً ، كما في اصطكاكها ركاماً برق وبرق ،

واين برق من برق ؟ فكلما اشتد الإصطكاك بشدة الوقع وثقل السحاب اشتد البرق ولحد الصاعقة .

قد يحصل البرق من تقارب سحابتين مختلفتي الكهربائية حتى يصير ميل الكهربائية الواحدة للإقتراب من كهربائية الأخرى أشد من قوة الهواء على فصلهما ، فتهجم كلٌ على الأخرى بنور زاهر قاهر وصوت قوي ، فالنور هو البرق والصوت هو الرعد .

فقد تصدق الرواية القائلة : « البرق مخاريق من نار بأيدي ملائكة السحاب يزجرون به السحاب »[1] والقائلة : « أن مَلكاً موكل بالسحاب يلم القاصية ويلحِّم الدانية في يده مخراق فإذا رفع برقت وإذا زجر رعدت وإذا ضرب صعقت »[2].

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾(١٣).

التسبيح بالحمد هو سلب بالإيجاب ، وهو الصحيح الفصيح في حمده سبحانه أن يسبِّح في حمده بصفاته العليا وأسماءه الحسنى ، يسبِّح تنزيهاً عما لا يليق به من صفات المخلوين،مهما تشابهت صفات بصفات في ألفاظها ،

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٤٩ ـ اخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ والخرائطي في مكارم الاخلاق والبيهقي في سننه من طرق عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) قال : البرق مخاريق . .

(٢) المصدر اخرج ابن مردوية عن جابر بن عبد الله ان خزيمة بن ثابت سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن منشأ السحاب فقال : ان ملكاً..,

فحمده بأنه عليم حي قديرٌ، يُفصحه تسبيحه عن علم مَن سواه وحياته وقدرته : «وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم . . »

فكما الملائكة يسبحونه بحمده من خيفته ، كذلك الرعد وسائر الكائنات والحادثات الكونية حيث تثبت له صفات الربوبية ، تنزيهاً عن سائر الكائنات المربوبين ، وهذا من تسبيحها بحمد الله .

ولا نجد رعد القرآن إلّا هنا في الرعد مسبحاً بحمده ، وفي البقرة بصيِّبه : «أو كصِّيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق» (١٩) فالبرق هو النور البارق ، والرعد هو الصوت الخارق ، وهما من حصائل الإصطكاكات السحابية والتفريغات الكهربائية :

وفيما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هو «ملك من ملائكة الله موكل بالسحاب بيديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله . . »(١) والتعبير عن القوات الكونية وحادثاتها بالمَلَك، علّه للإشارة إلى أنها مقصودة مدبّرة دون فوضى جزاف .

ولماذا يتقدم تسبيح الرعد بحمده على تسبيح الملائكة من خيفته واين تسبيح من تسبيح ؟ علّه للتأشير إلى أن الكون كله يسبح الرب بحمده ، دون عقل وإدراك كما يزعمون ، ام بعقل فائق كما الملائكة الكرام يعقلون ،

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٥٠ ـ اخرج احمد والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ في العظمة وابن مردويه وابو نعيم في الدلائل والضياء في المختارة عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال : اقبلت يهود الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا يا ابا القاسم انا نسألك عن خمسة اشياء فان انبأتنا بهن عرفنا انك نبي واتبعناك فاخذ عليهم ما اخذ اسرائيل على نبيه اذ قال : «والله على ما نقول وكيل» قال : هاتوا قالوا اخبرنا ـ الى ان قالوا ـ : اخبرنا ما هذا الرعد ، قال : ملك . .

فالكل له يسبحون ويسجدون طوعاً او كرهاً ، والرعد من الطائعين مهما كان الكافر من المكرَهين ، فانه يسجد بحمده بكونه ، مهما تخلف عنه في كيانه، ولأن الرعد - كما البرق والصاعقة - هو من صكاك أجرام السحاب اللطيفة الطفيفة ، إذاً فأصواته الصريخة تقوى بها الدلالة على عظيم قدرة الله المقدرة وبُعده عن شبه الخليقة المقدَّرة ، وصفات البرية المدبَّرة ، حيث الرعد إنما تغلظ أصواته ، وتعظم هزّاته، باصطكاك السحاب الخفيفة - على كونها ثقالاً بالمياه - معلقة بالهواء الرقيق ، فاين الرعد المرعد من خفيف وخفيف ، سبحان القدير اللطيف ! فلولا دعائم القدرة وسماكها ، وعلائق الجبرية ومساكها لما حمل عشر معشارها ولا استقلَّ ببعض اجزاءها .

ثم نرى انه على تثاقل أردافه وتعاظل التفافه ينفشُّ انفشاشَ المتداعي ، والغثاء المتلاشي ، إن في ذلك لعبرة لأولى النهى ، حيث الرعد يسبح - هكذا - بحمده، ويحمل المرتعدين أن يسبحوه بحمده ، حيث يضطرهم إلى تسبيحه عند سماعه ، مهما تغافلوا عنه قبل سماعه !

ثم الصاعقة وهي البرق الراعد الذي يصعق من يصيبه ، هي اشتداد البرق والرعد لحد يتجاوز جو السماء إلى ساكن الأرض ، كما الأحجار السماوية ، فإنها شهب قوية ونيازك نارية تقوى فتصيب شياطين الأرض ، كما تهدف شياطين السماء ، وكذلك الصاعقة : «فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون» (٤١ : ١٧) «يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين» (٢ : ١٩) .

وهكذا نرى في ساير القرآن أن الصواعق لا تصيب إلّا الظالمين (٤ : ١٥٢) المعرضين عن الله وآياته (٤١ : ١٣)والعاتين (٥١ : ٤٤) والمتعنتين في الإيمان (٢ : ٥٥) دون سواهم ، فلا يعنى «من يشاء» هنا إلّا هؤلاء دون سواهم ، فقد «يموت المؤمن بكل ميتة إلّا الصاعقة ، وهو

يذكر الله عز وجل »[١].

ان مثلث البرق الرعد الصاعقة هي حصيلة مختلف الحركات في الهواء والسحاب ، فالسحاب قد تبسم بالبرق ، ثم تتكلم بالرعد، ثم تحرق بالصاعقة ، والكل بين الماء والهواء ، سبحان العزيز الجبار .

ومن تسبيح الرعد بحمده انه يخوِّف حيناً يُطمع ، فيحمده الطامعون ربهم ، وليسبحوه عما يخافون أنه ظلمٌ منه وسبحانه ! فكل شيء صادر من الله فيه نفع وضر يتطلب تسبيحاً بالحمد ، نحمده بنفعه ونسبّحه في ضره ، أنه ليس مقصوداً بذاته ، أم يُقصد عقاباً لمن يستحقه .

ومن أعجب العُجاب أنه في أهوال نور البرق وصوت الرعد ونار الصواعق ، وفي تجاوب بارع لتسبيح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وزجرة العواصف عن غضبه ، في هذه الهولة المزمجرة والتسبيحة الشاملة ، هؤلاء الحماقى الطغاة يرعدون ويبرقون ويصعقون بنعرات وغوغائيات الجدال في الله وهو يريهم نفسه بقدرته البارعة وحكمته في خلقه : « وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال » : المماكرة ، فإنهم يماكرونه وهو ماكِرهم وهو أشد مكراً إن كانوا يشعرون .

فمهما أبرقوا وأرعدوا تضيع أصواتهم الجهنمية المزيلة الرذيلة في خِضَمِّ الرعد المسبِّح بحمده ، والصاعقة الناطقة بوجود الله .

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٩٠ ح ٦٣ في اصول الكافي باسناده عن ابي الصباح الكنابي عن ابي عبد الله (ع) قال : . . . وفيه باسناده عن بريد قال قال ابو عبد الله (ع) ان الصواعق لا تصيب ذاكراً قال قلت : وما الذاكر ؟ قال : من قرء مائة آية، وفيه عن ابي بصير قال سألت ابا عبد الله (ع) عن ميتة المؤمن قال : يموت المؤمن بكل ميتة غرقاً ويموت بالهدم ويبتلى بالسبع ويموت بالصاعقة ولا تصيب ذاكراً لله،أقول موته بالصاعقة ليس الا عند إعراضه عن الله .

إن الصاعقة وهي من حصائل الصدامات السحابية واصطكاكاتها ، هي أقوى نار تُعرف ، رغم أنها من ولائِد الأبخرة السحابية المضادة للحرارة ، ولربما تغوص في البحر وتحرق حيوانه في لجته ، سبحان القدير المتعال .

تؤمض في الجو بروق ، وتعقبها رعود ، وتذهب بذلك من القوة الكهربائية ما قد تكفي لإنارة عشرات من المدن ، اتراها تذهب ضياعاً وان الله يسرف او يبذر في هذه الومضات البارقة المرعدة ؟ ! وهي قد تجتاح الكرة الأرضية على نطاق واسع ، وتحدث أضرار بليغة وكما نرى ـ مثلاً ـ في الولايات الأمريكية أراضي كثيرة كانت بالأمس مكسوة بالغابات والأحراش وآبار البترول وكثير أمثالها ، وهي اليوم بَلْقَع قفر على أثر الصواعق التي اجتاحت كل ما فيها .

وقد تصحبها أعاصير تُحدث من الأضرار ما لا تقل عن أضرارها نفسها ولا سيما في البحار ، وفي الجو حيث تنتاب الطائرات فتصعقها .

وقد تعترض أمواج الكهربائية اللاّسلكية فتعطّلها أو توقفها عن أعمالها ، وقد يظلم الجو بسببها فتضطر الآلات المولدة للنور الكهربائي إلى مضاعفة جهدها .

وقد قدَّر العلماء الأضرار النسبية السنوية الناجمة عن عواصف الرعود والبروق فإذا هي لا تقل عن مأتي مليون دولار.

ولكنها بجنب أضرارها تحوي منافع كبيرة وكثيرة جداً ، حيث تسبب هطل الأمطار الغزيرة ، وتساعد على نترجة الهواء إشباعاً لها بالنتروجين فيصبح سماداً للتربة ، وقد قدر السماد النتروجيني الناشئة عن عواصف البروق والرعود في بلاد الهند الصينية وحدها بزهاء مليون دولار، فكيف بالعالم كله .

فاذ قد يتضرر العالم بهذه العواصف فالنفع أكثر ، بل وإصابة الكفار هو النفع الأكثر ثم ساير النفع ، إذاً «ويسبح الرعد بحمده» حمداً في نفعه ، وتسبيحاً عن ضره، أن يكون ظلماً أو إسرافاً، سبحان العزيز الجبار!

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾(١٤):

«له» دون سواه «دعوة الحق» علّها حق الدعوة والدعوة الحقة، فمن يدعوه كان حقاً في دعوته وهو المدعو، حقٌّ في إجابته، ثم لسواه باطل الدعوة والدعوة الباطلة، فإنك «إن تدعوهم لا يسمعوا دعائكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير» (٣٥ : ١٤) «لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة» (٤٠ : ٤٣).

فالدعوة داعيةً ومدعوةً لا حق فيها إلّا له، وهي هي الباطلة لسواه، فليس لمن سوى الله دعوة حقة هدياً إلى صراط مستقيم أم إجابة لمن دعاه لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولله لا سواه هديٌ إلى صراط مستقيم، واستجابة لمن دعاه على شروط الدعاء الحقة المقررة المسرودة في الذكر الحكيم.

وأما «الذين يدعون من دونه» فـ «إن تدعوهم لا يسمعوا دعائكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم» فهم «لا يستجيبون لهم بشيء» على أية حال إلا كاستجابة «باسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه» فبلوغ الماء إلى فيه بحاجة إلى سبب مستقيم، وهو استقامة الدعاء والمدعو إليه، فمهما استقام الدعاء ببسط الكفين إلى الماء فليس بمجرد بسطه ليبلغ فاه، حيث ضل المدعو في وصوله إليه مهما توسط ببسط يديه إليه.

الداعي أياً كان يطلب في دعاءه ماء الحياة وحاجياته المتطلّبة لبقائها ونضارتها وتكاملها، فهو يجد في طلبه قدر الحاجة، ورغم أن الطالب مُجِدّ، والمطلوب ضرورة للحياة، ولكنه ليس ليبلغ فاه إذ لم يطلبه من مَبْلَغه ومُبَلِّغه والطالب هو الطالب والماء هو الماء ولكنها النبعة غير النبعة، نبعة فوارة من رحمة الله الواسعة، وأخرى غائرة «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب» (٢٤ : ٣٩) «وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال» وقد «ضعف الطالب والمطلوب».

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾(١٥).

«أو لم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سُجّداً لله وهم داخرون. ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون. يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون» (١٦ : ٥٠) «ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً» (٢٥ : ٤٥).

«مَن» في آية الرعد تلمح إلى ذوي العقول السجود، من ملائكة أمّن هم في السماء، ومن إنس وجان في الأرض، ثم «ما» في آية النحل تُعمِّم السجود إلى كل دابة: أنهم سُجّدٌ لله لا يستكبرون، ومدّ الظل في آية الفرقان يمده منهم ومن كل دابة إلى الكائنات كلها، فكل حراكٍ في ضوء الشمس او سكون، يتبعه ظلٌ لأي كائن دونما استثناء، فقد تعني «من في السماوات والأرض» في الرعد ما تعنيه «ما» في تاليتيها، ولا سيما وان «كَرهاً» تعم سجود التكوين وخضوع كل كائن أمام ارادة الله.

والسجود ـ ككل ـ هو غاية الخضوع والذل والإنكسار دون أي

استكبار ، باختيار كسجود المؤمنين ، أم باضطرار كالكفار ، وسائر السُّجَّد الذين ليس لهم ذلك الإختيار ، حيث الكرْه ما يحمل على المكرَه من خارج نفسه ، والكُره من داخله ، ويقابلهما الطوع ، فهنا الكرَة في السجود هو التكويني من خارج نفسه ، وهو إرادة الله تعالى المسيّرة لكل سائر إلى ما خلق لأجله ، المذللة المُخضعة له أمام ربه ، ومنه الهدى التكوينية .

وسجدة الظلال ليست إلا كَرهاً كما لغير المؤمنين ، وما أحسنها ذكرى للغافلين ، أن الظل - الذي هو في سجود الشخص وهو غير قائم بنفسه - إذا هو تابع له خاضع لديه بما مدّ الله على ضوء الشمس ، فبأن يكون الإنسان ظلاً لربه ، وهو تعالى قائم بنفسه وعلى كل نفس ، ذلك أحق وأحرى ! وقد تعني « ظلا لهم » - فيما تعنيه ، الأعمال الظلية غير الإختيارية ، فكما الأظلال لا خيرة لها في السجدة المختارة وغيرها ، كذلك هذه الأعمال كالنمو[1] وحركات القلب والنبض والدم وانهضام الغذاء في المعدة ، وسائر الحركات والسكنات غير الإختيارية ، فإنها خاضعة لإرادة الله ، وهي سجدتها لله ، والتخصيص بالغدو والآصال قد يعني شمول السجدة لأخص حالاتها الظلية المختارة .

فالظِّلال: منفصلة كسائر الظلال ، ام متصلة وهي غير الإختيارية من الأفعال ، إنها ساجدة لله كَرهاً ، كما السُجَّد المؤمنون يسجدون لله طوعاً !

وقد يعني خصوص « الغدو والآصال » أظهر مظاهر الظلال ، فقد تنعدم الأظلال أم تنقص في الظهيرة وسواها من أوقات النهار ، فهي كالساكنة دون حراك ملحوظ ، ولكنما الظلال في الغدو والآصال لها حراك ظاهرة يظهر معنى السجدة فيهـا في بُعدي الظهور ، مهما كانت الظلال

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٦١ ح ٧٠ القمي في الآية قال : بالعشي - قال : ظل المؤمن يسجد طوعاً وظل الكافر يسجد كرها هو نموهم وحركتهم وزيادتهم ونقصانهم :

بين شروق الشمس وغروبها دائبة للساجدين وسواهم من ذوي الأظلال .

وما أحسنه ازدواجية السجود ضماً لشخوص الظلال إلى شخوص الأشخاص ، وهما بالغدو والآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال ، فكما الظلال تبعٌ للشخوص في الأشخاص ، فليكن الإنسان وأضرابه ظلالاً لإرادة الله ،في جُثُوّ وخشوع وخضوع سجَّداً لله خاضعين ، كما وظلالهم المتصلة من فعالهم اللاّ اختيارية ساجدة مطاوعة لإرادة الله .

« فتبارك الذي يسجد له من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً ويُعفّر له خداً ووجهاً ويلقي بالطاعة إليه سلماً وضعفاً ويعطي له القياد رهبة وخوفاً »(١) .

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾(١٦) .

« قل » يا رسول الهدى لهؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أنداداً « مَن رب السماوات والأرض » ؟ وهم يقتسمون الربوبية بين الخالقية الخاصة بالله : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » (٣٩ : ٣٨) وبين تدبير أمر الخلق حيث يختلقون له آلهة ، لذلك فحقُّ الجواب إنما هو منك دونهم : « قل لله » فإن الخالق للكون أحرى أن يكون بيده أمر الكون ، فله ـ إذاً ـ ربوبية الخلق والأمر : « ألا له الخلق والأمر تباركَ الله رب العالمين » (٧ : ٥٤) مهما أجاب حماقى الإشراك بالله أن لغير الله ربوبية في السماوات والأرض باستقلال ام تفويض ! وفيه تعريض لساحة الربوبية وتفويض لسماحته .

---

(١) نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام) :

فبناءً على ربوبيته في الخلق كما هم معترفون ، وربوبيته في أمر الخلق كما عليهم أن يعترفوا « قل أفاتخذتم من دونه أولياء » يَلُون أمركم أو أمر الخلق كلاً أو بعضاً ، من أصنام وأوثان لا تشعر ، أم طواغيت « لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً» فضلاً عن سواهم الذين يعبدونهم أم لا يعبدون ، ففاقد الشيء ليس ليعطيه ، ففي تولّيهم ـ إذاً ـ خسار بائر وضلال مبين ، والبون بين حق الربوبية في الله وباطلها في غير الله كما البون بين الأعمى والبصير والظلمات والنور ، فالأعمى مصيره الظلمات والبصير مصيره النور ، ومن يتولى غير الله فهو أعمى يتابع أعمى مثله ، وهما في الظلمات ، ومن يتولى الله هو البصير يتابع البصير،فهو في نور والى نور ، فـ « هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون » (١١ : ٢٤) ؟

فلأن مَن له الخلق هو الذي له الأمر، فليكن شركائهم خلقوا كخلقه حتى يأمروا كأمره « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم» فمِن خلقٍ لله فله أمره ، ومِن خلقٍ لغير الله فله أمره ، فهو ولي في خلقه وأمره كما الله ، ولأن الخلق تشابه عليهم يحتاطون بجمع الأمر لغير الله،ولا يفصلون نصيباً في الأمر لله ! ولكنهم يصدقون أن الخلق كله لله « قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » .

وهكذا تحاط قضية الشركاء في المطلع بسجود مَن في السماوات والأرض له سبحانه طوعاً وكرهاً وضلالهم بالغدو والآصال ، وفي الختام بالقهر الذي يُخضع كل شيء ، وبينهما اختصاص الخلق والأمر بالله ، فاختصاص الولاية المطلقة ـ وهي من مخلفات الربوبية المطلقة ـ بالله .

ولنقف وقفة التأمل الباهر عند وحدانية الخالق « قل الله خالق كل شيء » لنرى هل هنالك بعدُ خالق إلاّ الله ، وإن كان باذن الله ، مهما كان

رسولَ الله ام أياًّ كان ؟ أن يفوض الله إياهم خلقاً منه ؟[١] كلا ، بل « الله خالق كل شيء » سواءٌ أكان شيء الآية الرسالية كإحياء الموتى، فإنه المحيي حيث يأذن، وليس من المسيح وسواه إلّا ظاهر من الأمر تدليلاً على اختصاصه بالله : « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً باذني » (٥ : ١١٠) فالخالق لها - إذاً - هو الله، وما المسيح إلّا نافخاً فيها صنعه من الطين بإذن الله ، وهكذا سائر الآيات الرسالية لفظيه وعملية فإنها كلها من خلق الله دون سواه ، وما الرسل إلّا وسطاء في إبداءها ليظهر اختصاصهم بالله، فيصدِّقوا فيما يحملون من وحي الله .

فـ « هل من خالق غير الله » (٣٥ : ٣) ؟ كلا ! بل « الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل » (٣٩ : ٦٢)[٢] « ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا اله الا هو فانى تؤفكون » (٤٠ : ٦٢)[٣] « بلى وهو الخلاق العليم» (٣٦ : ٨١)

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٩٢ ح ٧٤ في اعتقادات الامامية للصدوق روي عن زرارة انه قال قلت للصادق (عليه السلام) ان رجلاً من ولد عبد الله بن سنان يقول بالتفويض قال : وما التفويض ؟ قلت يقول : ان الله عز وجل خلق محمداً وعلياً ثم فوض اليهما فخلقا ورزقا واحييا واماتا فقال (عليه السلام) : كذب عدو الله اذا رجعت اليه فاقرأ عليه الآية التي في سورة الرعد « ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » فانصرفت الى الرجل فاخبرته وكأنما ألقمته حجراً او قال فكأنما خزي .

(٢) راجع تفسير هذه الآية من الزمر تجد فيه تفصيل البحث من خالقيته تعالى كل شيء حتى شيء الافعال الاختيارية .

(٣) راجع تفسير هذه الآية من الغافر تجد فيه واجهة اخرى من البحث في خالقيته كل شيء .

و « كل شيء » يعم الشيء المخلوق أياً كان ، دون الشيء الخالق حيث الخالق ليس مخلوقاً، ومن المستحيل أن يخلق شيء نفسه - أياً كان .

ولا تخص ولاية مَن سوى الله بالإشراك بالله، حيث ينتهر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أبا بكر القائل باختصاصه بذلك « وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله او ما دعي مع الله ؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : ثكلتك أمك الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل ألا أخبرك بقول يذهب صغاره وكباره أو قال : لصغيره وكبيره؟ قال : بلى - قال : تقول كل يوم ثلاث مرات : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم والشرك أن تقول : أعطاني الله وفلان ، والند أن يقول الإنسان : لولا فلان قتلني فلان »[1].

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٥٤ - اخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم عن ابن جريج في الآية قال : فاخبرني ليث بن ابي سليم عن ابن محمد عن حذيفة بن اليمان عن ابي بكر إما حضر ذلك حذيفة من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع ابي بكر وإما حدثه اياه ابو بكر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : الشرك فيكم اخفى من دبيب النمل قال ابو بكر يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهل الشرك ..

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا
رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ
مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟
لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم
مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾
۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ
أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ
بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ
مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ

ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ
يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم
بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ
عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن
يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ
سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ
وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ
إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ
مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ
مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾

هنا يضرب الله مثلاً للحق والباطل كأمثله وأشمله ، للدعوة الباقية الصالحة والزبدة الماكثة في أراضي القلوب ، والدعوة البالية الطالحة الذاهبة إدراج الرياح كالزبد الجفاء ، الذاهبة عن القلوب :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾(١٧).

ثلاثة أمثال تضرب للحق والباطل في مثل واحد ، فكما يضمحل الزبد فيصير جفاءً لا يُنتفع به ولا ترجى بركته كذلك الباطل يضمحل عن أهله مهما أرعد وأبرق ، وكما يمكث الماء في الأرض فأمرعت وربت وانبتت من كل زوج بهيج ،كذلك الحق يبقى لأهله ، ولكنما الحق يُبتلى بمزيج الباطل وعراقيله كما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع حيث يخرج زبداً مثله .

زبدان متماثلان ، زبد الماء وزبد النار ، وهما ذاهبان جفاءً ثم لا يبقى إلّا ما ينفع الناس ، وهكذا يكون دوماً . مُصطرَع الحق والباطل ، فالحق -بالمآل- يَصرع ويَهرع ،والباطل يُهرع ويُصرع ، وإن للحق دولة وللباطل جولة !

« كذلك يضرب الله الحق والباطل » ضربَ كلٍّ بالآخر خلطاً ظاهراً في الكون وتميزاً في الكيان ، وبالنتيجة ضرب الباطل بالحق : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » (٢١ : ١٨) فـ « إن الباطل

كان زهوقاً » (١٧ : ٨١) « ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » (١٠ : ٨٢) .

فذلك الضرب هو حقه وواقعه ثم « كذلك يضرب الله الأمثال » هو مَثَله ومثاله ، فقد اختلف ضرب عن ضرب ممثلاً ومثالاً ، مهما اتفقا في التذكير والبيان ، فالضرب الأوّل هو نصب الحق والباطل بالشهرة كما « هديناه النجدين» لتستدل عليه خواطرهم كما تستدل على الشيء المنصوب على مرتفع النجد وهو من قولهم : ضرب الخباء إذا نصبته واثبت طُنَبه واقمت عَمَده و « كذلك يضرب الله الحق والباطل » نصباً لمنارهما وإيضاحاً لأعلامهما ليعرف المكلفون الحق بعلاماته فيقصدوه ، ويعرفوا الباطل ببطلانه فيجتنبوه .

والضرب الثاني هو تسيير ما في البلاد وإدارتها على ألسنة الناس طول الزمان وعرض المكان، من قولهم ضرب في الأرض إذا توغل فيها وأبعد في أقاصيها ، وكذلك « يضرب الله الامثال » .

و « ماءً » في المثال يمثّل الحق الخالص الناصع ، من خالص العلم النازل من سماء الوحي، واتمّه واطمُّه القرآن ، وعلى ضوئه سائر الحياة الروحية، حيث القرآن هو أحيى الحياة وحق لحامل الرسالة العليا فضلاً عمن سواه .

فالماءُ المادة هو حياة الجسم : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » (٢١ : ٢٠) ، والماء الروح ـ من المعرفة والعلم ـ هو حياة الروح ، وقد مثلت الحياة الدنيا بماء، علياها هي أصل الحياة الإنسانية ، ودنياها هي المزيجة

بعراقيل الدنيا : « إنما مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً فجعلناها حصيداً كأن لم تَغنَ بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتّفكرون » (١٠ : ٢٤) « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً » (١٨ : ٤٥) « ألم ترى أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع في الأرض ثم يُخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب » (٣٩ : ٢١) :

وكما أن ماء السماء النازل إلى الأرض يسيل في وديانها بقدرها وهي المنخفضات المستعدة لاختزانه، وينزلق عن صلدها الناشز المترفع فلا ينتفع به أبداً ، ويمر على مستواها في مثلث : الصلد ، فلا ينتفع به كما نشز ، والرخو الطيب فانتفاعاً بقدره ، والسبخ النتنة فلا يزيدها إلّا خساراً .

كذلك القرآن النازل من سماء الوحي إلى أراضي القلوب ، فمن واعية بقدرها وخيرها أوعاها ، كما الوديان ، ثم الاراضي المستوية الرخوة الصالحة ، ومن رافضة له كالقلوب الناشزة الصلدة ، ترفعاً عن استماعه ، ام كالنتنة المستوية تقبلاً وازدياداً في نتنها ، والمثل هنا يخص الوديان القابلة للماء .

فعلى مسيل الوحي الصارم الدائم نجد أراضي القلوب ووديانها أوعية وخيرها أوعاها التي لا تحتمل زبداً ، لنضارتها وطهارتها فتزداد جلاءً كالقلب المحمدي والمحمديين من عترته المعصومين سلام الله عليهم أجمعين .

ومن ثم سائر الوديان الأوعية ، السائلة غير الكاملة ، إنها تسيل بقدرها ظرفاً واستعداداً ، فاحتمل السيل في كلٍّ زبداً رابياً طافياً عالياً على الماء يستره في ثبج الأمواج وحالة الهياج .

فالزَبدة الطالحة هنا تستر الزُبدة الصالحة ، مما يخيّل إلى الجهال أن الزَبدة هي الزُبدة لربوتها واعتلائها وجولتها « وإن للحق دولة وللباطل جولة » .

إن الزَبدة الباطلة الهاطلة المطلة على الماء الزُبدة ليست هي من أصل الماء ، فإنما هي غثاءٌ من الهواء والأودية ، زَبدٌ في أوعية القلوب لتضيُّقها وعدم صفائها كما يحق ، وزبدٌ في الجو المجتمع الذي ينزل فيه الوحي ، وهما يعمان زبد الأفكار والعقائد والأعمال والأساطير المتعوّدة ، ولكن قلب المؤمن المتحري عن ناصع الحق يصفو عن كدره قدر سعيه وكدحه،ولكن الذين في قلوبهم مرض يزدادهم فتنة : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلاّ خساراً » فالشيطان يلقي في أمنيات النبيين وهي وحي النبوات ، ولكن الله ينسخ ما يلقيه في قلوب المؤمنين من زَبَد الباطل ولا ينسخه عن الذين في قلوبهم مرض : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلاّ إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يُحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم . ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم مقيم » (٢٢ : ٥٥) .

وطالما الباطل يزهو ويطفو ويجفو ويربو ردحاً من الزمن ولكنه زاهق ماحق يذهب جفاءً ببراهين الحق « وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » فالحق - أياً كان - لا محالة ماكثٌ، والباطل زاهق رافث، لأنه هاجس لصالح النسناس .

وكما الأودية بين خاصة وأخرى جماعية عامة ، كذلك الماء النازل فيها بما تحتمل من زبد ، فطالما الباطل يرعد ويبرق ويتصدر في سيول المجتمعات الإنسانية بكل زور وغرور، ولكنه ذاهب جفاءً ، ودولة الحق باقية صارمة .

فالزبد - على أية حال - ذاهب جفاءً سواء أكان في أودية القلوب وأوعيتها ، إذا كانت مؤمنة حيث الله ينسخ ما يلقي الشيطان ثم يحكم آياته ، أم في أودية المجتمعات فإنه زاهق بأدلة الحق ، وسوف يزهق من أصله حيث لا يبقى له أثر كما في دولة القائم المهدي من آل محمد صلوات الله عليهم اجمعين .

ولكنما الحق لا بد له من امتحان وابتلاء ، « ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله » حيث يوقد على الفلزات الخليطة استخلاصاً لها عن زبدها ، كذلك أهل الحق ، كلما كانت درجاتهم أعلى فابتلاآتهم أشد وأنكى ، ودوائر السوء المتربصة بهم أكثر وأشجى : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم » (٤٧ : ٣١) « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » - ولتُبَلْبَلُنَّ بَلبلَة ولتُغَربَلُنَّ غربلة حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم اسفلكم ! وجماع القول هنا أن النازل من الله - أياً كان - خال من الكُدرة والإعوجاج ، وناصع ناصحٌ يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، سواءً

أكان من الرسل الأنفسية كالفطرة والعقل وسائر الجوانح والجوارح ، أم الآفاقية كالرسالات بآياتها وسائر الآيات التكوينية ، فإنها كلها هدىً خالصة كالماء الخالص النازل من السماء لو أن الإنسان تبنّى فطرته بعقله وعلى ضوء هدي رسالات الوحي وسواها، هداه الله إلى صراط مستقيم : « .. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » (٥ : ١٦)

ولقد أنزل الله القرآن منذ أربعة عشر قرناً، واحتملت سيول الوديان فردية وجماعية زبداً رابياً ضده، إطفاءً لنوره وإخماداً لناره ، ولكنه ما لبث بعيداً حتى برز حجة صارمة دحضت كل مكائد السوء ومصائده خالصة عن كل تحريف وتجديف وتزييف « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »(١) .

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾(١٨) .

هذه والتسع التالية لها تفريعات وتفريغات للمثل المضروب في سابقتها السابغة ، المقتسمة كافةَ المكلفين إلى زَبَدة وزُبدَة ، فآية ونصفين للزَبَدة

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٤٩٢ ح ٧٥ في الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل وفيه : وقد بين الله تعالى قصص المغيرين فضرب مثلهم بقوله « فأما الزبد فيذهب جفاءً واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » فالزبد في هذا الموضع كلام الملحدين الذين أثبتوه في القرآن فهو يضمحل ويبطل ويتلاشى عند التحصيل ، والذي ينفع الناس منه فالتنزيل الحقيقي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والقلوب تقبله، والأرض في هذا الموقع فهي محل العلم وقراره .. ».

الطالحة، والباقية للزُبدة الصالحة![1]:

والإستجابة للرب هي تقبل الربوبية بكل بنودها، استجابة لحكم الفطرة التي فطر الله الناس عليها، واستجابة لحكم العقل تبنياً لآيات أنفسية كأصل الفطرة وجاراتها، وأخرى آفاقية استدلالاً بها لمزيد المعرفة، ثم استجابة لنداءات الرسالات الإلهية علماً وتصديقاً وتطبيقاً ونشراً وهي الإستجابة الكاملة للرب.

لهؤلاء الأكارم الحسنى، قدر استجابتهم لربهم هنا وفي الآخرة، ولأن «الحسنى» هي تفضيل الأحسن صفة للجزاء او الحياة[2] وعلّها أحرى : «يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم» (٨ : ٢٤) : فما يعطيه الرب هو أحسن مما يستجيبه العبد : «ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيده من فضله» (٤٢ : ٢٦) فالرب يستجيب قدر ما يستجيبه العبد، استجابة لدعائه في توبة وسواها من كل ما يُحيي الإنسان بعد موته، و «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» (١٠ : ٢٦).

فـ «الحسنى» الجزاء للإستجابة هي الحياة الحسنة الطيبة أحسن من الإستجابة، دون ضياع : «فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى» (٣ : ١٩٥) وكشْفِ الضر : «فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر..» (٢١ : ٨٤).

---

(١) فالآية هي الـ (٢٥) والنصفين من هذه والتالية، والباقية لغيرهم.

(٢) قد جاءت الحسنى وصفاً للجزاء في آيات عدة «واما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى» (١٨ : ٨٨) «ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى» (٤١ : ٥٠) «ويجزي الذين احسنوا بالحسنى» (٥٣ : ٣١) وجاءت مطلقة كآية الرعد هذه و«للذين احسنوا الحسنى وزيادة» (١٠ : ٢٦) والحسنى المطلقة تعم الجزاء وغيرها فهي الحياة الحسنى، تعني احسن من حياته قبل الاحسان، فهي تعم الآخرة والأولى.

والخطوة الأولى لاستجابة الرب هي السمع لما يقول ، سمعُ الجوارح والجوانح وإنما ذلك للأحياء : « إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون » (٦ : ٣٦) والموتى هم الذين يتبعون أهواءهم : « فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهوائهم ومن أضل ممن اتبع هداية بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين » (٢٨ : ٥٠) .

وكما من الحياة الحسنى هي الحاضرة ، كذلك وبأحرى هي المستقبلة العاقبة في مثلث الحياة دنييّ وبرزخاً وعقبى وهي أحرى وأبقى « وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » .

ثم « والذين لم يستجيبوا له » وهم موتى الفِطر والعقول والقلوب ، فعقباهم الأخرى نكبة نكدة خاسرة حاسرة لحد « لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به » من عذاب يوم القيامة ، ولكنها لا تُقبل منهم ، إستحالة على أخرى ، ظلمات بعضها فوق بعض بما قدمت أيديهم : « إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبِّل منهم ولهم عذاب أليم » (٥ : ٣٦) « أولئك لهم سوء الحساب » وهو الحساب الدقيق غير الرفيق ، حسناً في ميزان العدل وسوءً في ميزان المحاسَب حيث يرجو التخفيف والتطفيف ، إذاً فهو « أن لا يُقبَل لهم حسنة ولا تغفر لهم سيئة »[١] حيث الحسنات حابطة والسيئآت خابطة، لا يعفى عنها أو يخفف .

فمن الناس من لا يحاسَب وهم السابقون والمقربون وأصحاب اليمين: « كل نفس بما كسبت رهينَة ، إلّا أصحاب اليمين » (٧٤ : ٣٩) « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » (٣٩ : ١٠) « فاولئك يدخلون

---

(١) المجمع في الحديث ، من نوقش في الحساب عذب وقيل هو : ... وروى ذلك عن ابي عبد الله -(عليه السلام) .

الجنة يرزقون فيها بغير حساب » (٤٠ : ٢٠) « وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء » (٦ : ٦٩) .

ومنهم من يُحاسَب حساباً فضلاً حسناً حيث تقبل حسناتهم ويُعفى عن سيآتهم جميعاً او بعضاً او يخفف عنهم ، وهم بين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال : « فأما من أوتي كتابه بيمينه . فسوف يحاسب حساباً يسيراً . وينقلب إلى أهله مسروراً » (٨٤ : ٩).

ومنهم من يحاسب سوء الحساب وهم أصحاب الشمال : « فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً » (٦٥ : ٨) .

« ومأواهم جهنم وبئس المهاد » وهو من مخلَّفات سوء الحساب فإنه سوء العذاب : « سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب » (٦ : ١٥٧) ويقابله ترك العذاب عفواً أم حسن العَذاب تخفيفاً .

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾(١٩).

علمٌ مختار بما اختار من الذرايع إليه ، تذرُّعاً بسليم الفطرة والعقل ، وتضرعاً إلى الله أن يهديه سواء السبيل ، استبصاراً بالآيات الآفاقية والأنفسية ، وتدبراً في آيات القرآن نفسه ، فعلماً أنه الحق من ربِّك دون باطل او مزيج منه ، فهذا هو البصير البصير ذو عقل وفير ولب غفير ، دون الأعمى الذي يتعامى عن آيات الحق ، فيعمي على نفسه وسواه وجه الحق ، فإنما يتذكر بذكرى الآيات أولوا الألباب فيعلمون أنها الحق من ربك ، وإنما يتذكر البون الشاسع بين العالم بحقها والجاهل بها أولوا الألباب الذين زالت القشور عن عقولهم وقلوبهم .

قشور الهوى وغشاواتها الغاشية لنور العقل والفطرة هي التي تحجبها عن البصيرة إلى العمى ،وعن الهدى إلى الردى ، وكما الأغشية الحاجبة للبصر تغشاه عن إدراك المَبصر ، كذلك البصيرة المحجوبة بغشاواتها مغشية عن إدراك الحقائق رغم بهورها وظهورها ، فتصبح بذلك العقول معقولة بقيود الهوى، والقلوب مقلوبة عن نور الهدى، فصاحبها ـ إذاً ـ أعمى في بصيرته ، مظلم في سريرته ، فهو بدل أن يعلم أنما أُنزل إليك من ربك الحق ، يجهل حقه أو يدعى العلم بباطله ، ويخوض في آياته خوض المبطلين المضللين، فما ألطفه تعبيراً تقابل الأعمى بمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق، أسلوب بارع منقطع النظير في هذا الكتاب البشير النذير ، في لمس القلوب وتجسيم الفروق بين السوي منها والمقلوب ، فالناس أمام هذه الحقيقة الكبرى فريقان ، مبصرون فهم يعلمون ، وعُميٌ فهم لا يعلمون ، فإنهم في عمى البصيرة فلا يبصرون، مهما قويت أبصارهم فيما يشتهون ، عائشون في انطماس المدارك واستغلاق القلوب وانطفاء قبسات المعرفة الروحية ، وانفصالها عن مصدر الإشعاع .

فالذين استجابوا لربهم لهم حسنى الحياة المعرفية إذ يعلمون أنما أنزل إليك من ربك الحق ، وحينها يستقر الحق في عقولهم وقلوبهم تصبح ألباباً فوق ما كانت ، ناظرة بنضارة الحق ، مبصرة ببصيرة اللب .

للإنسان فطرة وعقل وقلب ، ولكلٍّ لبٌ خالص عن غشاوات ، ومزيج أجيج من غشاوات الجهالات والشهوات ، والسالك سبيل الحق لا بد له من لب في هذه السبيل حتى يبصر الحق فيتبعه ، ويبصر الباطل فيجتنبه ، فإنما المتذكرون للحق هم أولوا الألباب : الذين لهم ألباب العقول والقلوب ، مدركة متذكرة متفكرة .

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾(٢٠).

فهذه واللتان بعدها مواصفات لأولي الألباب ، وحجر الأساس فيها هو الوفاء بعهد الله وعدم نقض الميثاق ، فوصل ما أمر الله به أن يوصل ، وإقام الصلاة ، والإنفاق مما رزقوا ، ودرءُ السيئة بالحسنة هي من مخلفات الوفاء بعهد الله .

كما خشية الرب والخوف من سوء الحساب والصبر ابتغاء وجه الرب هي من خلفيات عدم نقض الميثاق،وعهد الله هنا مطلق بين قديم الفطرة وهو الميثاق المأخوذ على ذرية بني آدم ، ثم بين العقول التي تتبنى الفطرة ، رسولان ذاتيان داخليان متجاوبان مع الرسل الخارجية ، ومن ثم بين جديد الرسالة مع الرسل الذين بعثوا لتجديد الإيمان وتجويده تذكراً بما في عهد الفطرة .

والسبيل الوحيدة إلى الوفاء بمثلث العهود هو تخليص الفطرة والعقل عما يحجبها ، والإخلاص إلى خالص الشرع دونما خلطٍ فيه مما ليس منه ، وهذا هو اللبُّ .

وكلما استحكم العهد بوفائه في ميثاقه ابتعد عن النقص والنقض ، فـ « يوفون بعهد الله » ينتج :« ولا ينقضون الميثاق » كما « ولا ينقضون الميثاق» ينتج :« يوفون بعهد الله » فإنهما متعاملان متجاوبان في أولي الألباب .

أولوا الالباب مذكورون في (١٦) موضعاً من الذكر الحكيم ، وفي كلها تختص بهم الذكرى والعبرة فالتقوى[1] إذاً فلا ذكرى ثم عبرة ثم تقوى إلّا لأولي الألباب ، ولغيرهم النسيان والطغوى ، فان إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى ، و « إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (٢٢ : ٤٦) .

---

(١) فالتقوى لهم في : ٣ : ١٧٩ ـ ١٩٧ ، ٥ : ١٠٠ ، ٦٥ : ١٠ والعبرة بالآيات ٣ : ١٩٠ ، ١٢ : ١١١ ، ثم فيما سواها العشر الذكرى !

إن الغشاوات الحاجبة للفِطَر والعقول تغشوهما عن ذكرى الحق في كل الحقول، عبرة بآياته، فتقوى في غاياته، فعملية السلب أصعب من الإيجاب، حيث الرسل الذاتية لا غبار عليها ولا ستار في ذواتها، فإنما على السالك سبيل الهدي أن يقيم وجهه للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر النّاسَ عليها، بتامل فيه عقلياً، وتعمّل في طرد ما ينافيه حتى لا يطرئه، وإزالة الطارىء ولكي يجلو ويشفَّ ويعفَّ عما يطارده ويستره.

ثم المترتب على الوفاء بعهد الله وعدم نقض الميثاق هو الوفاء بعهود الرسل وسائر خلق الله، وسائر العهود الفرعية مع الله، فالناهض بما يتوجب عليه في عهد الله، ناهض بكافة المتطلبات في عهود الشرعة الإلهيّة، قاعدة رصينة متينة تتكفل الحفاظ على سائر العهود المنبثقة عن العهد الاوّل.

إن واجب الوفاء بالعهد ـ أياً كان ـ ومحرّمُ نقض الميثاق ـ أياً كان ـ لهما دورهما الهام في القرآن، فقد نهى الله عن نقضه أشد النهي، وقدَّم فيه أشد التقدمة، وذكره في بضع وعشرين آية، نصيحة لكم، وتقدمة إليكم وحجة عليكم، وإنما تعظم الأمور بما عظمها الله عند أهل الفهم وأهل العقل وأهل العلم بالله، وقد يروى ان نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له»[1].

وكلما كان المعهود له أعظم ومادة العهد أضخم وأتم، فواجب الوفاء به وحرمة نقضه أهم، على اشتراك العهود المشروعة في واجب الوفاء وحرمة النقض.

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٥٦ ـ اخرج ابن جرير وابن ابي حاتم وابو الشيخ عن قتادة في الآية عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾(٢١).

« ما أمر الله به أن يوصل » ليست لتختص بصلة الرحم وإن كانت من أوسط مصاديقها ، « فلا تكونن ممن يقول للشيء أنه في شيء واحد »[1].

إنه كل صِلةٍ مامورٍ بها في شرعة الله ، أصلية وفرعية ، عقائدية وعملية ، فردية وجماعية أمّاهيه ؟ ومن أصول الصلات صلة الله معرفياً ، ومن أصولها هنا عملياً الصَّلاة فإنها خير الصِلات ، ثم صلة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والمعصومين من عترته ، ومن ثم العلماء الربانيين ، ثم المؤمنين الأقارب منهم والأغارب ، وفي كل هذه الحقول صلات روحية هي الأصيلة وأخرى سواها، وعلى هامشها من صِلات الإنفاقات الواجبة والمندوبة كما أمر الله .

صلات في مقال وحال وفعال حيث الجمع بينها هو الكمال ، فصِلة المقال دون حال او فعال،نفاق وإدغال ، وصلة الحال دون ظاهرة في فِعال هي غير واصلة إلى القلب ولا الى مَن يوصل ، وهما دون قالٍ قد تكون مجبورة مشكورة كعبادات السر ، أم مرجوحة لا مشكورة ولا ممنوعة كعبادات العلن ، وكلّ يقدَّر كما أمر الله .

وفيها يعد قطع ما أمر الله به أن يوصل إفساداً في الأرض ، دلالةٌ قاطعة على عموم فرض الصلة دونما اختصاص برحم وغير رحم ، فإنما هو

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٩٤ ج ٨٤ باسناده عن عمر بن يزيد قال قلت لابي عبد الله (عليه السلام) الذين يصلون ما امر الله به ان يوصل » فقال : نزلت في رحم آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد يكون في قرابتك ثم قال : فلا تكونن . . .

من مصاديقها في جو العائلة تبيناً لرباط عريق فيها، فإنها تتبنى الجماعة الصالحة ككلٍ.

لذلك ترى آية اللعنة على تارك الصلة تتاخر عن خشية الرب والخوف من سوء الحساب، والصبر ابتغاء وجه الرب، وإقام الصلاة، والإنفاق مما رزقوا سراً وعلانية، ودرءِ للسيئة بالحسنة، مما يبرهن أن ذلك كله مصاديق صادقة لواجب الصلة:

ولأن ميثاق الله يعم كل المواثيق فالصلة هي الصلة في كل المواثيق التي تخلِّف نقضُها اللعنة وسوء الدار وإفساداً في الأرض كما هنا، والخسران كما في أخرى: «الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض اولَٓئك هم الخاسرون» (٢ : ٢٧).

ومن ألعن القطع في الصِلات قطع صلة الولاية عن الله إيماناً وقطع الصَلاة، ثم الإنقطاع عن صلة الرسالة بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وصلة بالإمامة بالأئمة (عليهم السلام) وصلة الولاية عن ولاة الأمر العدول بعدهم، وصلة المؤمنين ككل ولا سيما الأرحام حتى غير المؤمنين منهم، كما وهي صلة كل ولي بالمولَّى عليه، فهي - إذاً - صلة ذات بعدين في كافة الحقول.

وقد يروى «هي رحم آل محمد ورحم كل مؤمن»[1] «وهي تجري في كل

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٩٥ في تفسير العياشي عن العلا بن الفضيل عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال: الرحم معلقة بالعرش يقول اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني وهي رحم آل محمد ورحم كل مؤمن وهو قول الله «والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل».

رحم »[1] كما روي « فلا تكونن ممن يقول للشيء أنه في شيء واحد » مما يعمم الصلة إلى كل الحقول كما عممتها آيات الصلة .

وفي الحق إن الشرعة الآلهية في صيغة مختصرة محتصرة ليست إلّا صِلات في واجبات ومندوبات ، وانفصالات عن محرمات ومكروهات ، وبينهما متوسطات المباحات ، وهذه الخمسة تعم الأقوال والأحوال والأفعال في كل وصال وفصال .

ثم وصلة الرحم ليست فقط أن تصل من وصلك ، بل ومن قطعك ، فليس الحليم من ظُلم ثم حلم، حتى إذا هيجه قوم اهتاج ، ولكن من قدر ثم عفى ، وليس الوَصول من وُصل ثم وَصَل فتلك مجازاة ، ولكن الوَصول كل الوَصول من قُطِع ثم وَصَل وعطف على من لا يصله » وقد بلغنا أن نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : إذا لم تمش إلى ذي رحمك برجلك ولم تعطه من مالك فقد قطعته »[2].

---

(١) المصدر ح ٨٩ عن محمد بن الفضل قال : سمعت العبد الصالح يقول الـذين يصلون ما امر الله به ان يوصل » قال : هي رحم آل محمد معلقة بالعرش يقـول : اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني وهي تجري في كل رحم .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٥٦ ـ اخرج ابن جرير وابن المنذر وابو الشيخ عن ابن جريج في الآية قال : بلغنا . . . وفيه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ان البر والصلة ليخففان سوء العذاب يوم القيامة ثم تلا الآية».

وفي نور الثقلين ٣ : ٤٩٤ ح ٨٤ عن الكافي بسند عن مولاة ابي عبد الله (عليه السلام قال : كنت عند ابي عبد الله (عليه السلام) حين حضرته الوفاة فاغمي عليه فلما افاق قال : اعطوا الحسن بن علي بن الحسين وهو الافطس سبعين ديناراً واعطوا فلاناً كذا وفلاناً كذا فقلت: اتعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة؟ فقال : ويحك اما تقرئين القرآن؟قلت: بلى قال : اما سمعت قول الله عز وجل «الذين يصلون ما أمر الله به ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » .

« يصلون .. ويخشون ربهم .. في صلاتهم ، والخشية هي رهبة في تعظيم وليست إلاّ عن عادل كريم ، والخوف يعم كل قوي عادلاً وظالماً ، فوَصْلُ ما أمر به أن يُوصل حقَّه أن يكون على أصل الخشية: « ويخافون سوء الحساب » وهو المداقة في الحساب ، فهي حَسَنٌ من الله في ميزان العدل ، وسوءٌ للمسيء إذ يُدخله عذاب النار ، وقطعُ ما أمر الله به أن يوصل يخلّف سوء الحساب : « اتراهم يخافون أن يظلمهم أو يجور عليهم ؟ لا ! ولكنهم خافوا الإستقصاء والمداقة »(١).

فمن سوء الحساب ان « لا تُقبل حسناتهم ويؤخذون بسيآتهم »(٢) ثم « أن تُحسب عليهم السيئآت وتُحسب لهم الحسنات وهو الإستقصاء »(٣) ثم وأصل السؤال عن السيئآت حتى اذا لم تُحسب عليهم ، فـ « لو لم يكن للحساب مهولة إلاّ حياء العرض على الله وفضيحة هتك الستر على المخفيات لحقٌ للمرءِ ان لا يهبط من رؤوس الجبال ولا يأوي إلى عمران ولا ياكل ولا يشرب ولا ينام إلاّ عن اضطرار متصل بالتلف »(٤):

فأسوء المسوء في الحساب هو الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، وكل هذه عدلٌ في ميزان الله ، والخائف من سوء الحساب يعمل عمل من لا

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٩٤ في كتاب معاني الاخبار باسناده عن ابي عبد الله (عليه السلام) انه قال لرجل يا فلان مالك ولاخيك ؟ قال : جعلت فداك كان لي عليه شيء فاستقصيت عليه في حقي فقال (عليه السلام): اخبرني عن قول الله عز وجل: ويخافون سوء الحساب اتراهم ..

(٢) المصدر عن تفسير العياشي عن ابي اسحاق قال سمعته (عليه السلام) يقول في سوء الحساب : لا تقبل . . .

(٣) المصدر عنه هشام بن سالم عن ابي الله (عليه السلام) في الآية قال تحسب . . .

(٤) المصدر عن مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) : لو لم يكن . . .

يحاسَب كالسابقين والمقربين وأصحاب اليمين .

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾(٢٢).

فالصبر ابتغاء وجه الرب صلة ، وإقام الصلاة صلةٌ ، وهما من صِلات الرب ، ثم الإنفاق مما رزقوا صِلةٌ بأمر الله لعبادة ، ودرءُ السيئَة بالحسنة هو مجمع الصلتين ، فالسيئَة العصيان تُدرء بالحسنة التوبة وبرجاحة الحسنات ، وبفعل كبائر الحسنات وترك كبائر السيئآت ، فهي صلة إلهية ، والسيئَة الإساءة إليك من عباد الله تدرءُ بالحسنة العفو والإغماض ، وبالنصيحة الإرشاد، فهي صلة خلقية بأمر الله : « ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم » (٤١ : ٣٤) و « اولئك » الذين يصلون ما امر الله به ان يوصل « لهم عقبى الدار » عقباها فيها حيث « العاقبة للمتقين » وعقباها بعدها في البرزخ والاخرى .

والصبر ابتغاء وجه الرب هو الصبر في الطاعة فعلاً وعن المعصية تركاً ، تحملاً لمرير الطريق الشاق الطويل المليءُ بالأشلاء والدماء والحرمانات والمهجرانات ، صبراً يتغلب على حاضر المشهوات وحاذر الخطرات وظاهر المغريات .

ثم وإقام الصلاة ليس ـ فقط ـ إتيانها ، وإنما إقامُها في نفسك وفي أهلك وذويك ، وفي سائر من يتعظون بعظتك ، او تتم عليهم الحجة بك .

ثم الانفاق مما رُزقتم يعم كافة النعم الموهوبة المحبورة ، التي يمكن الإنفاق منها ، من مال أو منال أو علم ومعرفة أو حال على أية حال ، ففيه صِلات روحية ويضمنها مادية .

ودرءُ السيئة أياً كانت ومن ايٍّ ، منك إلى الله أم إلى عباد الله ، أم

من غيرك إليك ، فتحاول وصلاً بحسنتك بعد فصلٍ بسيئة ، منك إليك أم إلى سواك أم من سواك .

ففي نفسك أن تجبر سيئتك بحسنة تدرئها كما أمر الله وقرر الله، سواء أكانت بجنب الله أم بحق عباد الله وكما يروى عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): « يا علي إذا عملت سيئة فاتبعها بحسنة تمحها سريعاً وعليك بصنايع الخير فإنها تدفع مصارع السوء »[1] وفي غيرك أن تدرء سيئآت الناس بجنب الله بحسنة الحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتي هي أحسن ، وسيئآتهم بجنبك أم سواك أن تدرءها بحسنة تُنهيها وتُمحيها فيرجع صاحبها كأنه ولي حميم: « إدفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون » (٢٣ : ٩٦) .

فلتكن حياتك حياة الجمع والوصل والدرء عن كل فصل يفصل عن خير ويحصل فيه شر ، فتكون نوراً تخرق الظلمات وتفلق البليات إلى إنوار الخيرات .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ(٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾(٢٤)

«جنات عدن» هي من عقبى الدار وأعلاها ولأنها لأناس خصوص ، فلتكن جنات خصوص ، وعلّها على حد المروى عن الرسول (صلى الله

---

(١) القمي حدثني أبي عن حماد عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

عليه وآله وسلم) «قضيب غرسه الله بيده ثم قال له كن فكان »[١] .

والعدن هو الإستقرار كما المعن هو مستقى الجواهر ، فهذه الجنات هي مستقر جواهر الصابرين الأصلاء ، لذلك لا نرى « العدن » الا في (١١) آية بين آيات الجنة والجنات الـ(١٣٧) وقد تبرهن مواصفات أصحابها في آياتها على اختصاصها بين الجنات بعُلاتها، وأنها معادن جواهر الإنسانية الأصيلة وكما يروى عن رسول الله (ص) : « لا يسكنه إلا نبي او صديق أو شهيد أو إمام عادل »[٢] .

«يدخلونها» هم الأصَلاء في صبرهم إبتغاء وجه ربهم ، «و» على ضوئهم وهامشهم «من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم »فلو أن «من صلح » تعني هنا كافة الصالحين لكانوا يدخلون في «يدخلونها » دون تثنية لهم بـ «يدخلونها » ولكنهم هم الأصَلاء في الصالحين فإنهم أولوا الألباب ، الموفون بعهد الله ، الواصلون ما أمر الله ،الخاشعون ربهم وسوء الحساب ، والصابرون ابتغاء وجه ربهم ، المقيمون الصلاة ، المنفقون مما رزقوا ، الدارئون بالحسنة السيئة ، وليس كل الصالحين كما هم ، بل هم الحائطون حومهم والمستضيئون بضوئهم ، يدخلون جنات عدن كما هم وحسب مراتبهم ودرجاتهم .

فهي إذاً كـ «الذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتْناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين » (٥٢ : ٢٣) وكما يرجوا لهم حملة العرش : «الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون

---

(١) الدر المنثور ج : ٥٧ ـ اخرج ابن مردويه عن علي (ع) قال قال رسول الله (ص) .

(٢) المصدر اخرج ابن جرير وابن المنذر الى . . . وحصاها اللؤلؤ .

بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدنٍ التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم » (٤٠ : ٨) .

في هذه الجنات العدن يألف شمل أولئك الصابرون مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، و«أزواجهم» تعم أزواج النكاح زوجاً وزوجة ، فقد يكون الزوج أصلاً والزوجة فرعه ، وأخرى تكون الزوجة أصيلة والزوج فرعها ، وثالثة يتفاوتان فريق في الجنة وفريق في السعير ، وإذا كانا من أهل الجنة فلكل الخيار فيما يختار[1] وكذلك الأزواج في الإيمان والصبر بمعنى القُرناء التابعين لهم بإيمان وكما في «واتبعتهم ذريتهم بإيمان» .

و«ذرياتهم» هنا كما الأزواج تعم ذريات النسب الصالحة ، وذريات التبعية الصالحة ، كما وأن «آبائهم» قد تعم آباء التربية إلى آباء النسب ، مع اشتراكهما في فرعية الصلاح ، أن فلاناً رباك ولكنك أصبحت خيراً منه إيماناً وعملَ الإيمان..

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٤٩٩ المجمع عن العياشي بالاسناد عن ابي بصير عن ابي عبد الله (ع) قال قلت له جعلت فداك اخبرني عن الرجل المؤمن له امرأة مؤمنة يدخلان الجنة يتزوج احدهما الآخر ! فقال يا محمد ان الله حكم عدل اذا كان افضل منها خيره الله فان اختارها كانت من ازواجه وان كانت هي خير منه خيرها فان اختارته كان زوجاً لها،وفيه عن الخصال عن موسى بن ابراهيم عن ابيه رفعه باسناده الى رسول الله (ص) ان ام سلمة قالت له بابي وامي المرأة يكون لها زوجان فيموتان فيدخلان الجنة لأ يهما تكون ؟ فقال يا ام سلمة تخير احسنهما خلقاً وخيرهما لأهله يا ام سلمة ان حسن الخلق ذهب بخير الدنيا والآخرة .

وإن هذه الجمعية الصالحة المتلاحقة المتصالحة في الإيمان، فيها لذة وحظوة تُضاعف لذة «جنات عدن» وثالثة أن «الملائكة يدخلون عليهم من كل باب» ورابعة «سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» سلام من الله كأصل السلام، ومن ملائكة الله كرسل السلام[1] مهرجان حافل باللقاء والإكرام وكل سلام وإعظام، فإن الدار هي دار السلام: «لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعلمون» وذلك «بما صبرتم فنعم عقبى الدار».

تلك الضَفَّة العليا للصابرين أولي الالباب. ثم على الضفة الأخرى للكافرين المكابرين الذين ليست لهم ألباب:

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٢٥)

ولأن عهد الله الموثق وما امر الله به ان يوصل فيه الصلة المُصلحة للأرض، فقطعها - إذاً - إفسادٌ في الأرض، فلا يحمل عهد الله وأمره إلا صالح الأرض بأهلها، دون صالحه تعالى، فالله هو الغني ونحن الفقراء..

ولأن عهد الله الموثق وما أمر الله به أن يوصل، هما بكل بنودهما

---

(١) الدر المنثور ٤: ٥٧ اخرج بعدة طرق عن بعد الله بن عمرو قال قال رسول الله (صل الله عليه وآله وسلم): اوّل من يدخل الجنة من خلق الله فقراء المهاجرين الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت احدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله تعالى لمن يشاء من الملائكة أئتوهم فحيّوهم فتقول الملائكة ربنا نحن سكان سماواتك وخيرتك من خلقك افتأمرونا ان نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال الله تعالى: ان هؤلاء عبادي كانوا يعبدون في الدنيا ولا يشركون بي شيئاً وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت احدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

المسرودة في الصفْقة الأولى تجاه الخالق وخلقه ، فيهما الصلة المصلحة للأرض بأهلها ، ومصلحة لساكنيها، فقطعها - إذاً - بمجرده إفساد في الأرض ، كما السعي في معاكستها سعي لإفساد الأرض ، فـ« اولئك لهم اللعنة » بما التعنوا وابتعدوا عن صالح الحياة ، حيث الإفساد بادئة في لعنته بالمفسد « ولهم سوء الدار » وعقباها فـ« من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . . » (٢٠ : ١٢٤).

ولأن كل عهد يتبنى عهد الفطرة فالناقضون عهدها ناقضوا كل عهد ، فحين يُنقض عهد العبودية لله تخلفاً عن الفطرة التي فطرَ الله ، فهنالك النقض - وبالأولى - لكل العهود المعهودة في كل صغير وكبيرة ، وهنا الطامة الكبرى حين لا يرعىٰ عهد الله وكل عهد لخلق الله ، حياة منفصلة عن كافة الحيويات ، مندغمة في كافة الحيونات والشهوات ، غير مستقرة على أية قرارات ، وهنالك الإفساد في الأرض دون أية مبالات و« أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » حيث يعيشون السوء واللعنة في الحياة من كافة الجهات .

إنّ ناقضي عهد الله من بعد ميثاقه آفاقياً وأنفسياً ، هم يحسبونهم أنهم يُحسنون صنعاً حيث يربحون بنقضهم الحياة الدنيا وهم جاهلون أن :

-﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾(٢٦).

فإنما الرزق بيد الله ، دون الأيدي الأثيمة الناقضة لعهد الله «يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» ولكنهم «فرحوا بالحياة الدنيا» كأنها هي الحياة لا سواها ، وهي الهدف الأسمى دون سواها «وما الحياة الدنيا في الآخرة إلّا متاع» تُبتغي به حياة الآخرة «وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» .

الحياة الدنيا ليست إلا متاع به يبتاع الحياة الأخرة، ولكنها «متاع الغرور» تغر الجاهلين بها وبالحياة الأخرى، أنها هي التي تبتاع بكل متاع «وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور» (٣ : ١٨٥) «يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع» (٤٠ : ٣٩) تتمتع بها في هذه الأدنى ابتغاء رحمة من الله بمتاعها في الأخرى بما قدمت يداك منها إليها.

أترى الحياة الدنيا هي في الأخرة حتى تكون فيها متاعاً؟ أجل، فإن الأحياء بها يحشرون إلى ربهم بنفس الحياة وما كسبوا فيها من عقائد وأعمال، فإنها لزامهم في هذه السفرة القاصدة، فيعيشون بها عيشة كما قدموا لأنفسهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر فـ «هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون» فإن الأعمال بأنفسها هي الجزاء حيث تظهر حقائقها: «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه..».

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾(٢٧)

من مقالات الذين كفروا إعذاراً لأنفسهم في كفرهم وإنكاراً لآية الرسالة الإسلامية: «لولا أنزل عليه آية من ربه» إذ لم يكونوا يحتسبون القرآن آية وهو الآية الكافية، البالغة الذروة العالية، فهم إنما يقترحون آية كما يشتهون دلت أم لم تدل، ويذرون آية دالة عبر القرون كأنها ليست بآية، «وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها» (٦ : ٢٥) وإنما القصد من الآية هو التدليل الصالح على صدق الرسالة، وليست هي بخيرة الرسول: «قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون» (٦ : ١٠٩) فكيف تكون - إذاً - بخيرة المتعنتين.

ثم وليست آية الرسالة هي الهادية لو أن المرسل إليه لا يريد الإيمان،

فإنما الضلالة والهدى بيد الله كما يختار المرسل إليه:«قل إن الله يضل من يشاء» وهو الذي لا ينيب إلى ربه:«فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» «ويهدي إليه من أناب» حتى وإن لم تأته آية الرسالة ، فإنما الآية حجة قاطعة لقطع الأعذار .

والإنابة الى الله تعني الرجوع إليه مرة تلو أخرى ، وقد عرف من أناب بالإيمان والإطمئنان :

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ
أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ
أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ
ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوۡ أَنَّ
قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ
ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ
حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾
وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ
عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ
أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ
بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ
مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ * مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَافِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(٢٨).

فالمنيب إلى الله مؤمن بالله قبل أن يأتيه ذكره، ثم بذكره يطمئن قلبه بالإيمان، و«ذكر الله» هو كل ما يذكر الله من ذكرى أنفسية فطرياً وعقلياً، أو ذكرى آفاقية من كتاب الذكر ورسول الذكر أم أي ذكر، والكون كله ذكر لله فإنه كله آية لله، وأفضل الذكر الوحي هو القرآن وعلى ضوءه الرسول، ثم من يحمل رسالته معصوماً.

فما آية الرسالاتة إلّا ذكراً تطمئن به قلوب مؤمنة من ذي قبل، وفي ذكر القرآن وآيته البارعة الخالدة كفاية عن كل ذكر: «وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين. أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون. قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً..» (٢٩ : ٥٢) والقرآن شهادة كافية وآية ورحمة وذكرى وافية تدليلاً على هذه الرسالة السامية!

وآية الذكر ـ هذه ـ هي الوحيدة في ساير القرآن، المنقطعة النظير في هذا الكتاب البشير النذير، وقد تحلّق على كل ذكر بدرجاته، كما تطمئن القلوب به بدرجاته ودرجاتها.

فكما أن «بذكر الله تطمئن القلوب» إلى الله كذلك به تطمئن القلوب المؤمنة بالله إلى من آمن بالله وكما يروى عن رسول الله «صلى الله عليه وآله

وسلم) قوله : « . . ألا بذكر الله يتحابون »[١] .

فكل ما يذكُر الله أو من يذكر الله فهو ذكر الله ، وعلى حده وحدَّته تطمئن القلوب إلى الله ، وعلى هامشه وفي سبيله إلى اولياء الله ، ثم ولا تطمئن القلوب بذكر غير الله كما وهو المستفاد من الحصر المدلول عليه بتقديم الظرف «بذكر الله » على فعله «تطمئن القلوب ».

وترى إذا «بذكر الله تطمئن القلوب » المؤمنة ، فما هو موقف الحصر في «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم . . » (٨ : ٢) فالقلب الوجل مضطرب ولا اطمئنان مع الإضطراب ؟!

إن الوجَل هو قضية الإيمان حيث يخافون عذابه بما تقدمه أيديهم من أسبابه ، وذلك قبل الإطمئنان التام ثم ـ «وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون» فهم مضطربون من وعد العذاب ، ثم يطمئنون برحمته على مزيد الإيمان عند تلاوة الآيات كما هي طبيعة الحال أمام القرآن : «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء » (٣٩ : ٢٣) .

فمهما تقشعر الجلود وتوجل القلوب في بادىء الذكر بما يذكر المؤمن من

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٥٨ ـ اخرج ابن مردويه عن علي (رضي الله عنه) ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما نزلت هذه الآية « الا بذكر الله تطمئن القلوب قال : ذاك من احب الله ورسوله واحب اهل بيتي صادقاً غير كاذب واحب المؤمنين شاهداً وغائباً الا بذكر الله يتحابون .

تقصيره أمام ربه خوفاً من عقابه ولكنه لا يلبث بعيداً أن يلين جلده وقلبه إلى ذكر الله ، حيث يذكر عظمته ورحمته ، ويتصل قلبه بمعدن النور اللاّ محدودة ، ويزيد نوراً على نوره ، واطمئناناً على إيمان ، ورجاء ثوابه ، فـ «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء» .

إن القلوب الخالية عن الإيمان هي خاوية عن الإطمئنان ، فهي مضطربة طول الحياة النكدة الكافرة ، عمي عن نظارة النضارة بذكر الله «وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور» (٢٢ : ٤٦) .

فإن بغية الإنسان فطرياً أياً كان هي الكمال اللاّ محدود ، وليس إلاّ الله ، فلا يصل إلى بغيته ما لم يتصل قلبه بالله ، والإطمئنان بذكر الله هو حقيقة مرموقة مرقومة على تلك القلوب المؤمنة بالله ، التي خالطت بشاشةُ الإيمان قلوبَهم فاتصلت بالله ، وتلك الإتصالة المعرفية الإيمانية هي التي تُطَمْئنها عن كل اضطراب تعيشه في الحياة الدنيا ، حيث الدنيا بزخارفها وحذافيرها ومحدودياتها لا تثبت القلوب عليها مطمئنة بها،فالقلوب لهواها غير المحدود من الكمال المطلوب،هي دائمة التنقِّل من هذه إلى تلك حتى إذا وصلت إلى الله فترتكن إليه وتطمئن به حيث تجد فيه بغيتها المرموقة المطلوبة ، فلا تهوى بعدُ تنقُّلاً وتبدُّلاً ، إلا تأنقاً وتعمقاً في هذه الركينة العالية الذروة ، واتصالة فاطمئنانةً أكثر وأكثر حتى تصل إلى مقام «أو أدنى» .

فكل اتصالة بغير الله هي انفصالة عن الله،فغربة واضطراب ، وكل انفصالة عما سوى الله هي إتصالة بالله وقربة وإطمئنان .

وليس في الحياة أشقى ممن يخلد إلى الأرض وكان أمره فرطاً ، راضياً

بالحياة الدنيا ، واجساً من كل شيء خيفة ، حيث لا يستشعر الصلة بالله ، فهو يعيش معيشة ضنكاً مهما عاش في القصور العالية والأموال الطائلة :

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا فَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾ (٢٠ : ١٢٤) .

في الكون اضطرابات لا يصمد لها الانسان أيا كان إلّا من يطمئن بذكر الله ، فالمرتكن بغير الله غريب وحيد وهيد دائم الاضطراب ، والمطمئن بالله قريب لا يحس اي اكتئاب .

فالنفس المطمئنة بالله تعيش ربها وترجع الى ربها راضية مرضية «يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي» والنفس المطمئنة بالدنيا وزينتها هي مضطربة: «ورضوا بالحياة بالدنيا واطمأنوا بها » (١٠ :٧) تعيش معيشة ضنكاً وترجع الى ربها غاضبة مغضوبة .

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾(٢٩) .

وهؤلاء هم المطمئنة قلوبهم بذكر الله حيث يُطَمْئنهم ويُؤمنهم ويحملهم على عمل الصالحات ، فهم لا سواهم «طوبى لهم » في الحياة كل الحياة ، حيث تطيب حياتهم الروحية بذلك الإطمئنان وعمل الايمان ، ثم ولهم «حسن مآب » حيث يرجعون الى ربهم راضين مرضيين .

«طوبى » وهي مؤنث أطيب صفة لمحذوف يناسب الحياة ، فهي الحياة الطوبى في الاولى وفي الأخرى : فـ «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون » (١٦ : ٩٧) .

والشجرة المتشجرة من هذه الطوبى هي اولاً في بيت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)[١] ثم في بيت علي[٢] وأغصانها وفروعها المتهدلة هي في بيوت المؤمنين الصالحين ، هنا مزيجة ، وفي الأخرى «حسن مآب» حيث لا تشوبها غير طوبى .

فـ «طوبى » هي الحياة الطيبة بمصاديقها المختلفة روحية ومادية في الدنيا والآخرة «فلا تكونن ممن يقول للشيء أنه في شي واحد » فإن هذه

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٥٩ عن ابي سعيد الخدري (رضي الله عنه). عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ان رجلاً قال يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) طوبى لمن رآك وآمن بك قال : طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني قال رجل وما طوبى ؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) شجرة في الجنة مسيرة مائة عام تخرج من اكمامها وفي نور الثقلين ٣ : ٥٠٤ عن اصول الكافي قال امير المؤمنين (عليه السلام) في حديث له عنه علامات اهل الدين «وطوبى شجرة في الجنة اصلها في دار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وليس مؤمن إلا وفي داره غصن منها لا يخطر على قلبه شهوة شيء الا اتاه به ذلك ولو ان راكباً مجداً سار في ظلها مائة عام ما خرج منه ولو طار في اسفلها غراب ما بلغ اعلاها حتى يسقط هرماً الافغي هذه فارغبوا ان المؤمن من نفسه في شغل والناس منه في راحة اذا جن عليه الليل افترش وجهه وسجد لله عز وجل بمكارم بدنه يناجي الذي خلقه في فكاك رقبته الا فهكذا كونوا .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٥٩ ـ اخرج ابن ابي حاتم عن ابن سيرين قال : شجرة في الجنة اصلها في حجرة علي وليس في الجنة حجرة الا وفيها غصن من اغصانها وفي نور الثقلين ٣ : ٥٠٢ عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لما دخلت الجنة رأيت في الجنة شجرة طوبى اصلها في دار علي وما في الجنة قصر ولا منزل الا وفيها فتر منها . . . أقول الجمع بين الاصلين ان اصلها الاول في دار الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) واصلها الثاني في دار علي (عليه السلام) لانه استمرار للرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم). ولا تدخل مدينة علم الرسول الا من باب علي (عليه السلام).

الوحدات ليست إلاّ مصاديق للمفهوم الواسع .

وفي عدم تعريف «طوبى » رغم أنها المبتدأ تأييد لتعميمها لكل طوبى دون اختصاص بشجرة في الجنة أمّا هيه .

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ (٣٠) .

«كذلك » البعيد في أعماق التاريخ الرسالي والسنة الرسالية المستمرة مدى الزمان « ارسلناك » أنت يا حامل الرسالة الأخيرة العليا «في أمم قد خلت من قبلها أمم » فـ « ما كنت بدعاً من الرسل » ولا هم بدع من الأمم ، « أرسلناك » بجمعية الرسالات على ضوء جمعية الصفات إذ تحمل في رسالتك كافة الرسالات «لتتلو عليهم » الأمم كل الأمم في الطول التاريخي والعرض الجغرافي من الكون المكلف كله «الذي أوحينا إليك » ونوحيه ، حيث المضي في «أوحينا » تطوى مثلث الزمان ، أم يعني وحي القرآن المحكم الماضي ليلة القدر، وقد تفصله الآيات المفصلات ماضية وحالية ومستقبلة، والأصل الاوّل في «الذي أوحينا إليك» هو القرآن المحكم ، ثم الثاني هو القرآن المفصل ، ومن ثم قرآن السنة فإنه وحيه في معناه وهو صنع الرسول في لفظه ، وكل الثلاثة وحي يتلوه الرسول على الأمم ، تلاوة لفظية وعملية وتطبيقية، وتلاوة إسماع وتعليم وتزكية « يتلوا عليهم آياتنا ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » (٢ : ١٢٩) .

«وهم » رغم هذه التلاوة المجيدة، التالية تلاوات الرسل «يكفرون بالرحمن » الذي عمّم الرحمة الرسالية لكل الأمم ، كأنهم يختصون رحمانية هذه الرحمة وعامتها بجماعة خصوص خلوا ، فهم أولاء خلو من رحمته الشاملة، أم ليسوا هم بحاجة إلى تلك الرحمة الرسالية ، فلا جواب

لكفرهم هذا إلاّ كلمة الرسالة الجامعة لكل الرسل : «قل هو ربي» الذي رباني بهذه الرسالة السامية دون ظَنَّة ولا ضِنَّة ، وكما هو رب الرسل الذين خلوا من قبل، فقد رباني بتلك التربية المكملة لما خلت حتى أربيكم بها فتفوقوا كل أمة خلت «لا إله إلا هو» الذي رباني ورباهم ورباكم ، فالرسالة واحدة من رب واحد مهما اختلفت درجاتها ، وإن كنتم صامدين في نفوركم وكفوركم ، متربصين بي دوائر السوء فها،أناذا «عليه توكلت» في رسالتي ودعوتي كما في كل شئوني،لا عليكم،حتى إذا كفرتم أترك دعوتي أو أكفر « وإليه متاب » ومرجعي في نهايتي لا إليكم « فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » (١٣ : ٤٠).

وهذه حجة قائمة صارمة تقضي على كل لجة عارمة وشجة خارمة ، فإنهم مهما ارعدوا وأبرقوا فـ «حجتهم داحضة عند ربهم » .

يا عجبا أنهم يكفرون بالرحمن الذي تطمئن بذكره القلوب،ويؤمنون بالجبت والطاغوت ، يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ولكنك لا شأن لك إلاّ «لتتلو الذي أوحينا إليك » :

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَايْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾(٣١) .

إن هذا القرآن فيه الكفاية الوافية لمن يتحراه ويسمعه ويراه ويفكّر في مدلوله ومغزاه فـ «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (٥٩ : ٢١).

إن هذا القرآن تسيّر به العقول غير المعقولة بعقالات الهوى ، وتقلب به القلوب غير المقلوبة عن الهدى ، «ولو أن قرآناً سيرت به

الجبال . . . »ليلمسوا منه آية بصرية بديلاً عن آيته في البصيرة ، فيكون فيه حملٌ على الهدى ، لم يكونوا ليؤمنوا كما لم يؤمنوا بآيات ملموسة من ذي قبل ، ولو شاء الله لهداهم رغم هواهم ، ولكن «من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» وهذا القرآن خير آية لمن يفتش عن إيمان عبر الآيات الرسالية !

«ولو أنزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلّا أن يشاء الله» (٦ : ١١١) «بل لله الأمر جميعاً أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً . .» .

وعلّ «قرآناً سيرت به الجبال» إجابة عن متطلَّبة جاهلة حمقاء من المتعنتين المتعذرين في آية القرآن وكما تقول الروايات[1] .

وهنالك جبال الإنيات وأراضي القلوب وموتى الأفكار والإدراكات تحررت وتغيرت بقارع البيان المعجز في القرآن ، أولم يكف ذلك الخارق العظيم البارق كونه آية تفوق الآيات التي تسيّر الجبال وتقطع الأرض ويكلم بها الموتى ؟

لقد سيّر القرآن ما هو أهم وأضخم من الجبال وهو تاريخ الأمم والأجيال ، وهو جبال الإنيات والفرعنات ، وجبال الطغيان من بني الإنسان ، حيث سيّرها عن مقاعدها ، واستأصلها عن قواعدها ، وألانها عن صلدها ، أم ازالها بصلدها، وكما نراه واقعاً منذ بزوغ الإسلام ، وما أنّ واصل المسلمون في صمودهم الإسلامي السامي ، ونراه في نبؤءت هيّلذ :

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٤٢ - اخرج ابن ابي حاتم وابو الشيخ وابن مردويه عن عطية العرفي قال : قالوا لمحمد (ص) لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها او قطعت لنا الأرض كما كان لسليمان (ع) يقطع لقومه بالريح او احييت لنا الموتى كما كان عيسى (ع) يحيي الموتى لقومه فانزل الله تعالى الآية،اقول وفي معناها باختلاف الألفاظ روايات عدة .

﴿ آتِيا أمتا مِزْعْ زَع برياتا عابِدا هَدْمِتا بِيَدْ بِنْ أمتا ﴾

ستأتي امة تزعزع العالم وتحدث خرابات واطفائات بيد ابن الامة .

﴿بِعالمًا وَنشا وَحرْدِين كَرْشا جِبارِين حاشا وَهَلْمِين تَشا﴾ .

يلقي في العالم الخراب ـ الحراك ـ الزعزعة ـ الخوف ـ الإزعاج ، يُبعد و«يسير» ويهدم ويكسر[1] .

وفي كتاب حبقوق النبي ضمن البشارة بظهور القدوس من باران (حرى) في الآية٦ من الفصل ٣ يقول :

﴿ عامِدْ وِيمودِدْ أرص رآه وِيتّر غُويِم وَيّت يِمصّو هَرْري عَد شَحُو جِبْعُوت عُولام هَليخوت عُولام لو﴾ :

وقف ومسح الأرض ، نظر وأذاب الأمم ، وتبددت الجبال القديمة وخسفت وانحنت آكام وأتلال القدم،مسالك الأزل له .

ثم أراضي القلوب وأوعيتها ، الصالحة لماء الحياة ، المتقبلة للإنبات قُطّعت عن جدبها إلى شقها عن نبتها فأنبتت وأينعت ثمار الإيمان وصالح الأعمال : «أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها . . . » .

ومن ثم نرى ميت الإنسان في قبور الجهالات والغفلات حيث أحييت بروح القرآن على قدر قابليتها وتقبلاتها وإقبالاتها في تحري الحق أم عدم التجري على الحق: «أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » (٦ : ١٢٢) .

---

(١) هذه من وحي الطفل (لحمان حطوفاه) باللغة الأنقلوسية : العبريّة المرموزة ، وقد نقلناها تماماً في كتابنا « رسول الإسلام في الكتب السماوية » وما بين الخطوط الأفقية من ترجمة الجملة الثانية ، هي من مختلف الترجمات لعلماء اليهود نقلنا عن منقول الرضائي لمؤلفه الحبر العظيم اليهودي الذي اسلم والف كتابه هذا رداً على اليهود .

فلقد أحيى. القرآن مَن هم اخمَد من الموتى وأموَت من الهلكى ، حيث قتل الطغيان والأوهام - ارواحهـم ، أفلا يكون هذه وتلك وتياك أعظم وأضخم وأقوم تأثيراً من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى ؟ وهؤلاء الموتى بكامل الكفر ، وحماقى الطغيان، يستبدلون هذا القرآن بالذي هو أدنى !

إنه ليس أمر الإيمان بيدك ، ولا بأيدي آيات الرسالة بصرية وبصيـرية ، حتى إذا جاءتهم آمنوا دون نكير ، «بل لله الأمر جميعاً » من شاء هداه ومن شاء أضله ، كُلًّا كما يهواه ويعمل له دونما فوضى جزاف ، فله أمر الآيات بنتيجتها كما يشاء وهي أدل وأحرى دونما تهواه أنفسهم ويشتهون ، وهم بآيات الله يلعبون .

«بل لله الأمر جميعاً » في أصل الرسالة ووحيها وآياتها وأوقاتها وأدوارها وأكوارها وأبعادها وحملتها .

«أفلم ييأس الذين آمنوا » من إيمان هؤلاء الحماقى المتظاهرين بلمحة الإيمان لو استُجيبوا في تطلّبات الآيات ؟

«أفلم ييأس الذين آمنوا » من استقلال التأثير لهذه الآيات مهما صغرت أو كبرت ، قلت أو كثرت ؟

وما أجدر نتيجـة اليأس هذا «أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعـاً » أن يحملهم على الهدى دونما اختيار ،ولكنه أراد هدىً باختيار وضلالاً باختيار ، وهو يعلم الذي يختارون الهدى ، أم يختارون الردى ، فهم منصرفون عن آيات الله مهما كثرت : «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » (٧ : ١٤٦) .

« ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة » تقرعهم في ذوات نفوسهم ختماً على قلوبهم وعلى سمعهم ، وغشاوة على أبصارهم : . « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » أم تقرعهم بما تصرعهم وتبيدهم كما في الأمم الهالكة في القرون الخالية بعد قرعهم في قلوبهم .

« أو تحل قريباً من دارهم » قارعة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ، وليعتبروا ، « تحل » قرب المكان او قرب الزمان ، بحيث تكون بمسمعهم ومرآهم شهود الواقع أم شهادة التاريخ .

هم لا يزالون على حالتهم التعيسة هذه والبئيسة « حتى يأتي وعد الله » عذاباً منذ الموت حتى القيامة الكبرى « إن الله لا يخلف الميعاد » و « ذلك بما كسبت أيديهم وان الله ليس بظلام للعبيد » !

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾[٣٢]

قارعة من قوارع التاريخ المتواصلة على المستهزئين برسل الله ، إملاء ثم أخذاً ثم عقاباً فهم في تباب ، وإنها تكفي معتبرًا لمن يستهزؤن بك يا حامل الرسالة الإلهية الأخيرة « فلا تك في ضيق مما يمكرون » فالأمثلة حاضرة حاذرة ، وفي مصارع الغابرين عبرة بعد نظرة وإمهال ، فاصمُد على دعاية صارمة لرسالتك ، ولا تكن من الآيسين « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[٣٣] .

انه تعالى قيوم بنفسه سبحانه ولخلقه ككل ، « قائم على كل نفس » في نفسها فإنها قائمة به في كونها وكيانها و « بما كسبت » روحياً أم مادياً في مثلث

الزمان أياً كان وأيّان .

قياماً على كل نفس بالقسط : « قائماً بالقسط » (٣: ١٨) في التكوين والتشريع والعطيات والجزاء ، وقياماً في الحفاظ عليها: « ويرسل عليكم حفظة » (٦: ٦١) « يحفظونه من أمر الله » (١٣ : ١١) وقياماً لإحصاء مكاسبها خيرة وشريرة ليجازيها بها وكما هي تشهد كما صدرت لأصحابها : « وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون » (٨٢: ١١) والقيام المجرد يختلف عن القيام « على » في معنى القيام ، فليس هو الإنتصاب والقيام بعَمَد(١) .

فهو ـ إذاً ـ قيام علمي وتكويني وحفاظي للأعمال بأصحابها .

وقد يعني قيامه على كل نفس ـ ككل ـ دوامه عليها دونما نعسة ولا نكسة . فـ «كل يوم هو في شأن» ، كما الماء القائم هو الدائم الذي لا يجري ، فالله تعالى دائم على كل نفس يجريها ولا يجري ، قياماً ربوبياً قيومياً يحلّق على كل المتطلبات والحاجيات الخلقية لأولاها وأخراها .

فقيامه على كل نفس هو هيمنته عليها، وبما كسبت هو تدبيره لها ، فلا يخرج من نفس خارج،ولا يفلت منها فالت عن قيامه عليها وقيامه بها فيما لها

---

(١) نور الثقلين ٢ : ٥٠٨ في في اصول الكافي علي بن محمد مرسلاً عن ابي الحسن الرضا (عليه السلام) قال : اعلم علمك الله الخير ان الله تبارك وتعالى قديم ـ الى ان قال ـ : وهو قائم ليس على معنى انتصاب وقيام على ساق في كبد كما قامت الاشياء ولكن قائم يخبر انه حافظ كقول الرجل : القائم بامر فلان والله هو القائم على كل نفس بما كسبت والقائم ايضاً في كلام الناس الباقي،والقائم ايضاً يخبر عن الكفاية كقولك للرجل : قم بامر بني فلان اي إكفهم.والقائم منا على ساق فقد جمعنا الإسم ولم يجتمع المعنى .

وفي العيون رواه مسند متصلاً عنه (عليه السلام) مثله .

ومنها وإليها وعليها في كافة النشآت التي تعيشها .

أفهذا القائم الدائم تحق له الربوبية ، أم الشركاء الذين جعلوا له ، وهم لا يقومون على أنفسهم ولا بما يكسبون فضلاً عن عابديهم: « لايستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون » .

« و » هؤلاء الحماقى « جعلوا لله شركاء » : لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا نشوراً ـ « قل سموهم » لأ قل تقدير إذ لا يوجد لهم مسميات « أم » هي كائنة بأسمائها والله لايعلمها وهي شركائه الذين جعلهم في زعمهم شركائه « أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض » من شركاء وأنتم تعلمون ؟ « أم تنبؤنه بظاهر من القول » بأسماء ليست لها مسميات.

كلا ! فلا هناك في الكون مسميات الشركاء ولا أسمائها « بل زين للذين كفروا مكرهم » في اختلاق الشركاء كما يهوون « و » بهذه الحجب الظلمانية بين الخلق والخالق « صدوا عن السبيل » إذ حصروا العبودية للشركاء ، أو الطاعة للطواغيت ، فلم يبقوا لله مكانة في طاعة ولا عبودية ، « ومن يضلل الله » بما أزاغ قلبه حيث زاغ ، وطبع على قلبه بعدما انطبع « فما له من هادٍ »أنهم لا يملكون لشركهم ولشركائهم اي برهان من هذه أو تلك ، إذ لا يقول بها ذو جِنَّة ، بل زين لهم مكرهم ، فلا يهدفون من جعل الشركاء لله إلا الصد عن سبيل الله ، أن ينشغل العباد بها عن الله،فيعيشون حياة الحرية اللّامبالات ، غارقين في حيونة الشهوات .

فهل القائم على كل نفس بما كسبت ، لا يقوم على أنفس الشركاء بما كسبت ـ في زعمكم ـ من شرك في الربوبية،فهل هي تكسب ذلك المقام السامي إلاّ بما يُكسبه الله . . «أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض » وهو يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، « أم بظاهر من القول » لا يملك باطناً وواقعاً من كائن الشركاء ؟! وهل إن قضية الألوهية بلغت من التفاهة والهزل بحيث تتناول

بظاهر من القول وليس له مدلول ، وكل ما له مدلـول سوى الله فقير إلى الله وقائم بالله !

فهؤلاء الممجيون الحيارى السكارى يكسبون بهذه الإختلاقة الجنونية عذاباً فوق العذاب :

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾(٣٤) .

ومن عذابهم في الحياة الدنيا ضمن ما تصيبهم من قارعة فيها ، او تحل قريباً من دارهم ، هو جفاف القلب من ندى الإيمان ، وحيرته دونما اطمئنان ، واضطرابه في كل آن « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . . » مهما كان لهم هنا من واق « ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق » !

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾٣٥ .

المَثَل هو الذي يمثّل الشيء توصيفاً يقربه أم نموذجاً من جنسه ، وهو هنا التوصيف بأمور ثلاثة : « تجري من تحتها الأنهار » لأنها ملتفة الأشجار من فوق والأنهار في أرضها جارية « اكلها دائم » لا يفتر « وظلها » دائم .

ودوام الظل هناك دليل دوام الشمس فلا ليل فيها ، أم الظل الدائم في نهارها حيث يظل أهلوها في ظلها بعيدين عن حرّ الشمس ونفاذ نورها وأذى نارها ، وطبعاً هي شمس الآخرة المخلوقة بعد تكور شمسنا هذه يوم قيامتها .

« تلك عقبى الذين اتقوا » إيماناً وعمل الإيمان ، دون الذين آمنوا دون عمل ، أم عملوا صالحاً دون إيمان ، وإنما التقوى الجامعة لهما هي الكافلة

لذلك الوعد الصادق الأمين .

إذاً فـ « الكافرين » هنا كما يعني كفر العقيدة والعمل ، كذلك يعني الكفر في كل مهما آمن بالآخر ، ولا سيما كفر العقيدة حيث لا يصلح عمل في كفرها ، مهما نجى تارك الصالحات بعقيدة الإيمان بعد عقبى النار في برزخه وعقباه .

وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ
الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن
يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ
إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا
عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ
مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا
مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ
أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾
يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾
وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا

عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ
لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ
وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾[٣٦] .

« الذين آتيناهم الكتاب » هم عامة أهل الكتاب ، التالين له حق تلاوته ، العارفين به ، سواء في ذلك كتاب الإنجيل او التوراة أم أي كتاب عرف وسواه ، حيث الحق متجلٍّ في كتابات السماء دون مرية،مهما دخل فيها الباطل بأيدي الدس والجهل .

هؤلاء هم « الذين آتيناهم الكتاب » لا « أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون » (٢ : ٧٨) فإنهم لم يؤتوا إلا ما يؤتيهم

علماءهم، فمنهم صالحون ومنهم دون ذلك كانوا طرائق قدداً ، وطبيعة الحال في إيتاء الكتاب علماً ودراسة هي الفرح « بما أنزل إليك » حيث الوحي قبيل واحد مهما اختلفت درجاته . فالعارف بوحي الكتاب يعرف حق الوحي في القرآن وزيادة فإنه مهيمن على الوحي كله .

فـ «الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فاولئك هم الخاسرون » (٢ : ١٢١) لأنهم « .. يعلمون أنه منزل من ربك بالحق .. » (٦ : ١١٤) فهم « .. يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » (٦ : ٢٠) « ... وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (٢ : ١٤٦) .

فهم - على أية حال - « يفرحون بما أنزل إليك » حيث يصدق ما أنزل إليهم ، ويتجاوب معه في الأصول العقائدية والأحكامية ، وتحمل بشارات بحق القرآن ونبيه ، وذلك فرح التصديق بكله والإيمان به ، مهما كان :

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

« ومن الاحزاب من ينكر بعضه » وهم المتحزبون خلاف الحق ممن أوتي الكتاب، كالمحرفين الكلم من بعد مواضعه والتابعين لهم ، انكاراً للبعض الذي يشير أو يصرح ببشارات في كتابات السماء ، والمصرح خلاف الاختلافات اللاهوتية الثالوثية في الانجيل ، او الشركية التجسيمية في التوراة ، وثالثة احكامية تعارض مخلفات الاحكام الكتابية ، واخباراتها بحق المرسلين وسواهم ،

ومنهم الاحزاب غير الكتابيين اذ لا يقدرون على انكار القرآن كله، كما ومنهم من يؤمن به كله : « وكذلك انزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون » (٢٩ : ٤٧) .

فالاحزاب المنكرة لبعضه هم اعم من اهل الكتاب والمشركين ، ولكن طبيعة الحال للذين آتيناهم الكتاب هي الايمان به بحجة الكتاب ، فما كفرهم به بعضاً او كلاً إلاّ تخلفاً عن حكم الكتاب جهلاً او علماً .

والمحور الرئيسي في نكران البعض هو التوحيد حيث الكتابات العتيقة والجديدة (العهدين) مليئة من اختلاقات تغشي وجه التوحيد الحق لحدّ يسمى ثالوثهم « توحيد الثالوث » كأنه الحق لا سواه !

لذلك فـ« قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا اشرك به إليه ادعو واليه مآب » رافضاً ما تدعون اليه من ثالوث الالوهية ، واشراك المسيح مع الله في العبودية ، والاياب اليه كما الى الله المآب !

فالفريق الصادق من اهل الكتاب ، والمتحري الحق من غيرهم « يفرحون بما أنزل إليك » حقيقة نفسية في القلوب الصافية الضافية وهي فرح الإلتقاء على الحق وزيادة اليقين بصحة ما لديهم كتابياً أو فطرياً حيث يؤازره الكتاب الجديد في الحق السديد .

﴿ وَكَذٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾٣٧ .

إن القرآن حكم في كافة الحقول ، عربي واضح لا تعقيد فيه لدى كل العقول ، فهو دون توجيه وتحميل يوافق وحي الفطرة كإجمال ، ويوافق وحي الرسالة في كتاباتها كتفصيل ، دون حاجة إلى لزق التوجيهات غير المتحمّلة ، او لصق البراهين الخارجية ، فإنه في نفسه حجة عربية لا ريب فيه ، ولا شبهة تعتريه .

فالقرآن كله حكم منزل، يعم الأحكام الفطرية والعقلية والفرعية الشرعية، لا تجد فيه آية إلّا وتحمل حكماً أو أحكاماً عربية: واضحة لائحة لدى العقول الصافية، لا تعقيد فيها:لا في التعبير لمكان الفصاحة القمة وبلاغتها، ولا في المعبّر عنه لمكان التجاوب والملائمة التامة مع الفِطَر والعقول والواقعات والمتطلّبات.

فلا يعني من «حكماً» فقط الأحكام الفرعية، ولا من «عربياً» عربية اللغة، حتى ينبري المبشر الانجيلي قلاتلاً أنه يختص بالعرب دون سواهم، فالحكم هو كل حكم، والعربية هي كل واضحة لائحة، فقد يكون الحكم عربي اللفظ في اللغة، والمعنى معقّد، ام عربي الدلالة والمعنى مبهم لدى العقل والفطرة، ام عربي المعنى دلالة ومدلولاً ولكنه معقد في التصديق او التطبيق، فالحكم الذي لا تعقيد فيه دلالة ومدلولاً وتصديقاً وتطبيقاً هو العربي المطلق المطبق، وكذلك القرآن«فبأي آلاء ربكما تكذبان»!

أجل ولا تجد آية طيلة الرسالات الإلهية، عبر آياتها الرسالية، أعرب من آية القرآن وأحكم، لحدّ تعتبر الآية الوطيدة، غير الوحيدة، آية كافية وافية لمتطلبات الآيات وزيادة هي رمز الخلود لمن يستقبلونها طول الزمان حتى القيامة الكبرى، كما كانت لمن مضى.

كما وأنه الحكم كلُّه وكلُّ الحكم، حكم الآية التكوينية كآية الرسالة الختمية، على كونه حكم الآية التشريعية كمادة الرسالة في الأصول الأحكامية وفروعها، وفي كافة الأقضية على مختلف الحقول الفردية والجماعية، السياسية والاقتصادية، الثقافية والحربية أما هيه من أحكام تربط فصالات المجتمعات أو الأفراد، وهو - ككل - حكم قيادي يقود كافة المكلفين في دولة مباركة واحدة بزغت منذ الدولة الإسلامية في المدينة المنورة رغم العراقيل التي حالت دون شمولها، وسوف تشمل العالم كله إرغاماً للعراقيل كلها زمن القائم المهدي من آل محمد (ص). «فالحكم لله العلي الكبير» (١٢:٤٠).

أفبعد ذلك الحكم العربي الكامل الشامل يبقى مجال لا تباع الأهواء من الذين أوتوا الكتاب أمن سواهم ، مسايرة معهم لكي يوافقوا على القرآن ويصادقوه ؟

ويا لذلك التهديد الظاهر الصارم «ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق» من تحديد لموقف القرآن العظيم ورسوله النبي الكريم ، أنهما خالدان عبر الأعصار والأمصار، دونما غيار بأي عيار . فلا تسامح «بعدما جاءك من العلم» في أي تحوير وتغيير ، وحتى لو كان من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولن ! حيث الولاية الكافية والوقاية الوافية لا توجدان إلاّ في ذلك الحكم العربي لا سواه .

ففي حكم القرآن العربي تجد الولاية المطلقة ، والوقاية المطلقة ، النازلة من مُنزِل الوحي إلى مَنزِله «ولئن تجد من دونه ملتحداً» .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾٣٨ .

«ولقد» تحقق-في تأكيدين-السنة الدائبة الرسالية للرسل كافة أنهم بشر مثلنا،فلا يملكون شيئاً من غيب الله وحياً وآية رسالية إلا ما أذن الله ، فلييأس الناس المتعنتين على الرسول أن يأتي بآية كما يشتهون ، حيث الآية الرسالية غيب كما الوحي غيب : «ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين »(١٠ : ٢٠) «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » (٦ : ١٠٩) وليست الآيات تتشابه إلا في مدلولاتها دون صورها وأبعادها ، فلا ينزلها الله إلا في آجالها المكتوبة لها كما تقتضيه الحكمة الرسالية ، فـ «لكلِّ أجل» من آجال الرسالات وسواها «كتاب» مرقوم رقمه الله ، وحياً وآية لرسالته ، كما أن «ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا

يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون » (٧ : ٣٤) .

فكل أمة رسالية لها أجل طال أم قصر كما حدده الله ، وأجل الأمة الإسلامية أجل الكون كله وهو القيامة الكبرى ، ولكل أجل كتاب يرسم شرعته وحياً هو الشرعة ، وآية رسالية تثبت الشرعة ، وكما ليس الشرائع شرعة واحدة إلا في جذورها وهي الدين الواحد ، كذلك آياتها ليست واحدة إلا في مدلولاتها وهي إثبات وحي الشرعة .

فكتاب كل أمة وحياً وآيةَ الوحي يناسب أجله طوله التاريخي وعرضه الجغرافي ، وكتاب الأمة الإسلامية يجاوب في خلوده أجلها حتى القيامة الكبرى عبر الأمصار والأعصار ، فلا كتاب يحق له إلا كتابه الذي جمع وحيه وآية وحيه ، كتاباً منقطع النظير عن كل بشير ونذير ، مهيمناً على ما بين يديه من كتاب ، ومتقدماً على تقدم الزمن بكل عقلية وعلمية بارعة ، بل هو أمام العلم وإمامه ، « ولن تجد من دونه ملتحداً » !

فلا يملك آجال الأمم وكتبهم إلا الله دون رسل الله « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا باذن الله » دون تخويل له ان يأتي بها كما يشاء ، ولا تعطيل ألاّ يأتي الله بأيّة آية ، فان فيه تعطيل الرسالة ، بل هو عوان بين ذلك دون إفراط التخويل ولا تفريط التعطيل ، بل هو إذن الله قريناً بفعل الرسول أم دون فعله ، وإنما التدليل على أن الآية للرسول حتى يصدَّق في وحيه الرسالي بالآية الإلهية .

﴿ يَمحُو اللهُ ما يَشاءُ وَيُثبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكِتابِ ﴾٣٩

آية وحيدة منقطعة النظير لا ثانية لها في سائر القرآن إلا أم الكتاب : « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » (٤٣ : ٤) ولان المحو ليس إلا إذهاب الكائن برسمه أو أثره ، والإثبات هو استمراره ، فمَقسم المحو والإثبات هو الثابت قبلهما بثبات يقبل المحو والإثبات .

ولأن الثبات الأول هو قبل المحو والإثبات ، فليكن هو الأم الثابت في علم الله ، وفيه كل كائن أياً كان وأيان إلى يوم القيامة ، ثم الكتاب هو تحقيق العلم وتطبيقه ، محواً لبعض بعد ردحه إلى اجله كما يشاء ، وإثباتاً لآخر كما يشاء ، « وهل يمحى إلاّ ما كان وهل يثبت إلا ما لم يكن »[1] ؟

فـ « لكل أمر يريده الله فهو في علمه قبل أن يصنعه وليس شيء يبدو له إلا وقد كان في علمه إن الله لا يبدو له من جهل »[2] و « ما بدا لله في شيء إلا كان في علمه قبل أن يبدو له »[3] فلا يعني البداء علماً بعد جهل ، بل فعلاً كان يعلمه قبل ويجهله خلقه فبدا لهم غير ما كانوا يظنون .

فلا محو في علمه بعد كونه ، ولا إثبات فيه بعد أن لم يكن ، وإنما محو وإثبات في تكوين أو تشريع لما كان في سابق علمه ،فصبغه بسابغ مشيئته وإرادته وقدره وقضائه وإمضائه .

ولأن قوله قبل « لكل أجل كتاب » قد يخيّل إلى جاهله أنه يبدو له تعالى فيما يؤجّل من أجل ويكتب من كتاب ، فآية المحو والإثبات تقرر كضابطة سارية أن المعلوم من تكوين وتشريع في الخلق عند الله ، إنه لا تتغير عما كان ، فإنما يمحو مما كان ويثبت مما كان أجلاً وكتاباً أم أياً كان ، في مرحلة الخلق والإبرام .

فقد يمحو عن الخاطرة خَطرة كانت منذ زمن بعيد أو قريب ، أم يثبتها

---

(١) في الكافي وتفسير العياشي باسناد عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية . . .

(٢) نور الثقلين ٢ : ٥١٢ عن ابن سنان عن ابي عبد الله (عليه السلام) يقول : ان الله يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ويمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده ام الكتاب وقال : لكل امر . . .

(٣) المصدر : ٥١٦ باسناده عن عبد الله بن سنان عنه (عليه السلام) : . . .

فلا ينساها صاحبها كما القرآن : «سنقرئك فلا تنسى» .

أو يمحو رسالة بوحيها عن وجوب الإتباع كسائر الرسالات ، إلّا الأخيرة الإسلامية حيث يثبتها حتى القيامة الكبرى .

أو يمحو آية رسالية تثبت وحيها ، يمحوها عن صورتها إلى صورة أخرى علها أحرى منها أو مثلها في رسالة أخرى:« ما ننسخ من آية أو نُنسها نأت بخير منها أو مثلها » والسيرة هي السيرة تدليلاً على صدق الوحي ، أو يمحو آيات بصرية عابرة عبر رسالاتها ويثبت آية يخلّدها عبر الأعصار والأمصار إلى يوم لقاء الله كما القرآن ، فإنه وحي ثابت وآية ثابتة تجاوباً صادقاً مع شرعته الثابتة إلى يوم القيامة .

أو يمحو أجلاً في أمّ الكتاب إلى أقل منه ، أو يثبته إلى أجله المحتوم ، أو يمحو آجالاً معلّقة أو يثبتها ، في أعمار وأرزاق أمّاهيه .

أو يمحو سيآت بمكفراتها ، أم يثبتها ركاماً على بعض إذ لا مكفر لها ، وكل ذلك حسب الحكمة الربانية ، وفقاً للأقدار المخيرة في التكاليف ، والمسيَّرة في غيرها ، دونما فوضى جزاف وأن الله ليس بظلام للعبيد .

وإذا تسآل العالم كيف علم الله ؟ فالجواب الرائع البارع الجامع : « علم وشاء وأراد وقدر وقضى وأمضى ، فأمضى ما قضى ، وقضى ما قدر ، وقدر ما أراد ، فبعلمه كانت المشيئة ، وبمشيئته كانت الإرادة ، وبإرادته كان التقدير ، وبتقديره كان القضاء ، وبقضاءه كان الإمضاء ، والعلم متقدم المشية ،والمشية ثانية ،والارادة ثالثة ، والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء ، فلله تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء ، وفيما أراد لتقدير الأشياء ، فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بداء ، فالعلم في المعلوم قبل كونه ، والمشيئة في المنشأ قبل عينه ، والإرادة في المراد قبل قيامه ، والتقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلها عياناً ووقتاً ، والقضاء بالإمضاء هو المبرم من المعقولات

ذوات الأجسام ، المدركات بالحواس من ذي لون وريح ووزن وكيل ومادب ودرج من إنس وجن وطير وسباع وغير ذلك مما يدرك بالحواس ، فلله تبارك وتعالى فيه البداء مما لا عين له ، فإذا وقع العين المفهوم المدرك فلا بداء والله يفعل ما يشاء »(1).

إذاً فليس أن الله فرغ من الأمر بما علم قبلُ، فقدّره حتى لا تكون لنا خيرة ، ولا لله محو أو إثبات كما قدره بمختلف الخيرة ، فلا إختيار - إذاً - في خير ولا شر ، ولا ينفع دعاء قلباً او قالباً ، ولا توبة واستغفار وشفاعة ولا أية وسيلة مختارة تقتضي محواً عما كان أو إثباتاً له أو تجديداً ، كلا ! بل لله الأمر جميعاً «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » .

أمّ الكتاب كأصل مقرر في علمه ليس إلاّ عنده ، ثم عندنا الأعمال حسب الآمال ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، فـ «يمحو الله ما يشاء » مما ثبت في علمه الأوّل إذا تسببتَ في محوه «ويثبت» ما ثبت في علمه الأول اذا تسببتَ في إثباته ، فالأصل الأول هو الخير لكل كائن في العلم الأول ، ثم ويعلم الله من يستحق إثباته أو محوه ، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاءُ وعنده أم الكتاب .

وليس البداء في علمه سبحانه وتعالى عن جهل ، بل هو فينا حيث يخيل إلينا حصول أمر بتخيُّل حضور أسبابه ، ثم نراه لم يحصل فيبدو لنا أن أسبابه ناقصة ، فهو إذاً ليس إلاّ ظهور أمرأو إرادة منه تعالى بعدما كان الظاهر لنا خلافه جهلاً منا بحقائق الأمور ، فـ «من الأمور أمور محتومة كائنة لا محالة ، ومن الأمور أمور موقوفة عند الله يقدم فيها ما يشاء ويمحو

---

(1) نور الثقلين ٣ : ٥١٦ ح ١٧٨ عن اصول الكافي الحسين بن محمد عن يعلى بن محمد قال : سئل العالم كيف علم الله؟ قال : يعلم . . .

ما يشاء ويثبت منها ما يشاء لم يُطلع على ذلك أحداً يعني الموقوفة فأما ما جاءت به الرسل فهي كائنة لا يكذب نفسه ولا نبيّه ولا ملائكته»[1] و«كان علي بن الحسين (عليه السلام) يقول: لولا آية في كتاب الله لحدثتكم بما كان وما يكون إلى يوم القيامة: «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»[2].

فالأمور المحتومة ما لا يعنيها الإختيار ولا تعنيها الأسباب المختارة، والموقوفة هي المترتبة على أسبابها المختارة، فالله تعالى يعلمها بأسبابها، فلو أظهر هذه الحوادث المستقبلة للعاملين لبطلت مختلف المحاولات ومختلف الحالات، ولعاش المكلفون إتكاليات دون سعي وعمل!.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾(٤٠).

عليك بلاغ الوحي تبشيراً أو إنذاراً، أحكاماً وإخباراً، وعلينا الحساب قبل أن نتوفينك أم بعده. فلا تستعجل لهم «الذي نعدهم» ولا تستأجل «فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب»!

فلا عليك ولا لك أن تتبع أهواءهم فيما يتطلبون من آية الرسالة أم آية العذاب «فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب».

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(٤١).

«بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون» (٢١ : ٤٤).

---

(١) تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار قال سمعت ابا جعفر (عليه السلام) يقول:...

(٢) المصدر عن زرارة عنه (عليه السلام)...

«أولم يروا» عطف على محذوف علّه بمناسبة المقام «بعض الذي نعدهم» حيث العذاب عذاب سواء أكان لهم «أن تصيبهم بما صنعوا قارعة» أم لأضرابهم «أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله ..»(٣١) فان لم يروا عذاباً في أنفسهم «بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم» «أو لم يروا» في سير التاريخ وسَبْره «أنا نأتي الأرض» إتيان القدرة الفعالة والربوبية الحكيمة، دون إتيان الذات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وجمعية «أنا نأتي» هي جمعية الصفات، فقد يأتي الأرض إتيان الغضب على الجاحدين فينقصها من أطرافها وجوانبها الجبارة من قصور وأهليها المستكبرين، وهنا الأطراف جمع «الطَرَف»: الجانب، وهو جانب الظلم وثقل الزور والغرور، وفي ذلك النقص رحمة لأهل الله وعامة المستضعفين حيث غُلب هنالك المبطلون «أفهم الغالبون»؟ فقد «يعني بذلك ما يهلك من القرون فسماه إتياناً»[1].

وقد يأتيها ينقصها من أطرافها: كرائمها وعيونها الناظرة الناضرة

---

(١) نور الثقلين ٣: ٥٢٠ ح ٢١ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام) وقال: اولم يروا ان نأتي الأرض ننقصها من اطرافها «يعني بذلك ما يهلك من القرون فسماه اتياناً ..»
وفي تفسير البرهان ٢: ٣٠١ عن ابن شهر آشوب عن تفسير وكيع وسفيان والسدي وابي صالح ان عبد الله بن عمر قرأ الآية يوم قتل أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال: يا امير المؤمنين لقد كنت الطرف الاكبر في العلم، اليوم نقص علم الاسلام ومضى ركن الايمان، والزعفراني عن المزني عن الشافعي عن مالك عن سدى عن ابي صالح قال لما قتل امير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام) قال ابن عباس: هذا اليوم نقص العلم من ارض المدينة ثم قال: ان نقصان الارض نقصان علمائها وخيار اهلها ان الله لا يقبض هذا العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الرجال ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فيسئلوا فيفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا.

وهي «علمائها»(١) ودعاتها إلى الحق ، وهنا الأطراف جمع الطَرْف : الجفن والنظر ، وجمع الطِرف : الشيء الكريم ، وهو الذي يُطرَف اليه ويُنظر ، وفي ذلك رحمة لهؤلاء الأطراف أن يُخرجهم من دار الظالمين إلى جوار رحمته ، وابتلاءٌ للمؤمنين فان في ذهاب العالِم ذهاب الرحمة وثلمة في الإسلام لا يسدها شيء .

ولكن اين ذهاب من ذهاب ، فالعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأنفسهم في القلوب موجودة ، والمستكبرون الجهال ذاهبون حال حياتهم فضلاً عما بعد ذهابهم «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض»

فذهاب علماء الأرض هو من تأويل الآية وتعميمها عن موردها ، وذهاب عملاءها من تنزيلها حيث وردت بنظيرتها فيهم ، «فلا تكونن ممن يقول في شيء أنه في شيء واحد» .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ففي ذهاب العملاء المستكبرين عبرة للكافرين ، وفي ذهاب علمائها عبرة للمؤمنين ، إمتهاناً للأولين وإمتحاناً للآخرين .

كما وأن في ذهاب أرض الكافرين وملكهم نقمة لهم ونعمة للمؤمنين ، وفي ذهاب أرض المؤمنين آية وذكرى لقوم يؤمنون .

فالأرض بمن عليها وما فيها منقسمة إلى صالحة وطالحة ، ونقصها من

---

(١) نور الثقلين ٣ : ٥٢٠ في اصول الكافي عن جابر عن ابي جعفر (عليه السلام) قال كان علي بن الحسين (عليه السلام) يقول : انه يسخى نفسي في سرعة الموت والقتل فينا قول الله «او لم يروا انا نأتي الأرض ننقصها من اطرافها»وهو ذهاب العلماء،ومثله في الفقيه وسئل عن قول الله عز وجل : . . . فقال : فقد العلماء .

أطرافها يعمهـا ، مهما نـزلت الأيتان في انتقاص الطالحين ، حيث النقص للصالحين إمتحان وابتلاء،وهو نقضٌ للطالحين وامتهان وبلاء .

« والله يحكم » هنا وهناك لا سـواه و« لا معقب لحكمة » يتعقبه فيغلب عليه فإن « الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » « وهو سريع الحساب » في الأولى والآخرة ، فمهما خفي حسابه هنا فهو جلي هناك « ولا ينبئك مثل خبير » .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ(٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ(٤٣) ﴾ .

ان «الذين كفروا »-متعنتين معاندين-لم يكونو ليؤمنوا مهما أتيتهم بكل آية ، فلئن يطلبوا آية على هذه الرسالة فإنها تملك الآية القمة الخالدة وهم بها كافرون ، فضلاً عن الآيات الحسية العابرة فإنهم بها أكفرو لها أنكر وأمكر !

فتراهم بعد كل هذه الحجج يقولون «لست مرسلاً » فهنالك يا رسول الهدى «قل » قولك الاوّل والأخير كحجة دامغة «كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .

فكتاب الله : القرآن هو شهادة كافية لله ، ورسول الله شهادة ، ومَن عنده علم الكتاب-وهو شاهدٌ من رسول الله حيث رباه كما رباه الله ، وهو العالم من اهل الكتاب-هما شهادة من الله ، شهادات أربع و«كفى بالله شهيداً .

فالقرآن شهادة كافية في بعدي الرسالة وآيتها الخالدة:« وقالوا لولا أنزل

عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً . . » (٢٩ : ٥٢).

والرسول شهادة هو بنفسه لرسالته وكما المرسلون أجمع:«قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون » (٣٦ : ١٦) حيث التربية الرسالية لائحة في أحوالهم ، ظاهرة في أقوالهم وأعمالهم .

وخليفة الرسول شهادة لهذه الرسالة ،كما العلماء الربانيون من أهل الكتاب «أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به فمن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه للحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » (١١ : ١٧) .

فالرسول على بينة من ربه هي القرآن ونفسه المقدسة ، وشاهد منه الذي يتلوه هو الإمام علي (عليه السلام) حيث صنعه كنفسه وربّاه كما رباه ربه على عينه ورعايته ، فهو من آيات رسالته كما هو استمرارية لرسالته « «ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة » حيث يحمل بشارات في تصريحات وإشارات بحق القرآن ونبي القرآن وشاهد منه ! «ومن عنده علم الكتاب » قرآناً كمن يتلوه شاهداً منه وعترته المعصومون اجمعون ، وتوراةً كعلماء أهل الكتاب الربانيون حيث يفرحون بما أنزل إليك وهم به يؤمنون .

أفبعد هذه القواعد الأربع من الشهادات الإلهية «لست مرسلاً» فلئن أتى بآيات النبيين أجمع لم يكن مرسلاً ـ في زعمكم ـ بطريقة أولى، فإنها أدنى من شهاداته العليا .

النسخة الأصيلة الأولى ممن عنده علم الكتاب هو«شاهدٌ منه » علي

امير المؤمنين (عليه السلام) واضرابه[1] والنسخة الثانية علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام[2] وأضرابه ، وافضل الشهود بين الأربعة هو القرآن

---

(١) الدر المنثور ٤ : ٦٩ اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قدم على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اسقف من اليمن فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هل تجدني في الانجيل رسولاً ؟ قال : لا فانزل الله «قل كفى بالله . . . » يقول : عبد الله بن سلام.أقول:وفي روايات عدة ان عبد الله بن سلام كان يفتخر بنزول الآية فيه في مواطن عدة ، وفي روايات أخرى منهم عبد الله بن سلام والجارود وتميم الداري وسلمان الفارسي.أقول: وكون السورة مكية لا ينافي كون امثال عبد الله بن سلام من مصاديق «من عنده أم الكتاب » فإنه من باب الجري كما الائمة المعصومون وسائر علماء اهل الكتاب بعد العهد المكي كلهم من مصاديق هذه الآية دونما استثناء .

(٢) نور الثقلين ٢ : ٥٢١ في الاحتجاج عن سليم بن قيس قال سأل رجل علي بن ابي طالب فقال له وانا اسمع اخبرني بافضل منقبة لك قال : ما انزل الله في كتابه ، قال : وما انزل الله فيك ؟ قال : قوله «و . . . ومن عنده علم الكتاب » اياي عنى بمن عنده علم الكتاب،وفيه عن أصول الكافي باسناده عن بريد بن معاوية قال قلت لأبي جعفر (عليه السلام) «قل كفي بالله . . . » قال : ايانا عنى وعلي أولنا وأفضلنا وخيرنا بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)،وفي الخرايج والجرايح باسناده عنه (عليه السلام) مثله ،وفي امالي الصدوق باسناده الى ابي سعيد الخدري قال سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن الآية قال: ذاك اخي علي بن ابي طالب.أقول : وقد استفاضت الاحاديث في انه علي (عليه السلام) وهو من باب الإشارة الى أفضل المصاديق ، وكما استفاضت أنه ليس عبد الله سلام لأن السورة مكية وهو أسلم في المدينة ، وقد تعني الثانية انه ليس هو شأن نزولها كمصداق أجل،بل هو علي (عليه السلام) ومن ثم هو وأمثاله .

وفي كفاية الخصام ص ٤٣٦ اخرج ستة احاديث من طريق اخواننا وثمانية عشر من طريق اصحابنا ان «من عنده علم الكتاب » هو علي (عليه السلام) فمن الأوّلما اخرجه عن الثعلبي في تفسيره عن عبيد الله بن عطا عن ابي جعفر (عليه السلام) وعن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وابن المغازلي الشافعي =

ونبي القرآن ، ثم شاهدٌ منه «علي» (عليه السلام) من ثم علماء اهل الكتاب .

والكتاب هنا في القدر المشترك بين «من عنده علم الكتاب» هو كتاب التدوين قرآناً وسائر كتابات الوحي، وفي الحد الخاص بالأئمة المعصومين هو كتاب التكوين بأذن الله ، فقد كان عند آصف بن برخيا وزير سليمان علم من كتاب التكوين إضافة إلى كتاب التدوين ففعل ما فعل : «وقال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال إنه من فضل ربي ..» (٢٧ : ٤٠).

فهذا الذي عنده علم من الكتاب ، فكيف ترى من عنده علم الكتاب ؟ وهو عليٌ والمعصومون من ولده الطاهرين، فهم على هذه الخوارق باذن الله أقدر[1].

= باسناده عن علي بن حابس، وابو نعيم الاصفهاني والثعلبي بسندهما عن ابي الحنفية والشيخ علي بن يونس النباطي العاملي في كتابه الصراط المستقيم عن تفسير الثعلبي . وفي ملحقات احقاق الحق ج ١٤ ص ٣٦٢ عن العلامة ابن المغازلي الشافعي في المناقب (مخطوط) والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ج١ : ٣٠٧ بعدة طرق، والبدخشي في مفتاح النجا (ص ٤٠ مخطوط) والشيخ عبيد الله الحنفي الامرتسري في ارجح المطالب ص ٨٤ و١١١ والقندوزي في ينابيع المودة ص ١٠٣ وعبد الله الشافعي في مناقبه (ص ١٥٧ مخطوط) والحافظ حسين الجري في تنزيل الآيات ص ١٥ مخطوط ، كلهم اخرجوا نزولها في شأن علي (عليه السلام) .

(١) في تفسير البرهان ٣ : ٣٠٢ الا عن الكافي باسناده عن سدير قال كنت انا وابو بصير ويحيى البزاز وداود بن كثير في مجلس ابي عبد الله (عليه السلام) اذ خرج علينا وهو مغضب فلما اخذ مجلسه قال يا عجباً لاقوام يزعمون انا نعلم الغيب ما يعلم الغيب الا الله عز وجل ، لقد هممت بضرب جاريتي فهربت مني فما علمت في اي بيوت الدار هي =

علماء اهل البيت المعصومين يجمعون الى علم كتاب التدوين قرآناً وسواه من كتابات النبيين ، علم كتاب التكوين ، والحجة الشاهدة لهذه الرسالة السامية هي في شخص علي (عليه السلام) فانه شاهد منه ، وذلك يجري في ولده المعصومين ، ثم «من عنده علم الكتاب» توراة وإنجيلاً حيث يعرف البشارات الموجودة فيهما بحق هذا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) دون ان يعرف فيها او يخرف او يُحَرِّف ، ولقد افردنا كتاباً مستقلاً يحمل قسماً من هذه البشارات : رسول الإسلام في الكتب السماوية ، أوردنا فيه تسعاً وخمسين بشارة عن مختلف الكتب السماوية .

= قال سدير فلما ان قام من مجلسه وصار في منزله دخلت انا وابو بصير وميسر وقلنا له جعلت فداك سمعنا وانت تقول كذا وكذا في أمر جاريتك ونحن نعلم انك تعلم علماً كثيراً ولا ننسبك الى علم الغيب قال فقال يا سدير اما تقرء القرآن ؟ قلت : بلى ، قال فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عز وجل وقال الذي عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك، قال قلت جعلت فداك قد قرأته قال : فهل عرفت الرجل وهل علمت ما كان من علم الكتاب ؟ قال قلت فاخبرني به قال : قدر قطرة من الماء في البحر الاخضر فما يكون ذلك من علم الكتاب ؟ قال قلت جعلت فداك ما اقل هذا قال فقال يا سدير ما اكثر هذا ان ينسبه الله عز وجل الى العلم الذين اخبرك به سدير فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله عز وجل ايضاً «قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب»؟ قال قلت جعلت فداك قرأت قال: فمن عنده علم الكتاب كله أفهم أم من عنده علم الكتاب بعضه ؟ قال قلت : بل من عنده علم الكتاب كله وأومى بيده الى صدره وقال : علم الكتاب والله كله عندنا علم الكتاب والله كله عندنا .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرس

الموضوع ـــــــــــــــــــ الصفحة

﴿سورة يوسف﴾ في مقارنة كتابية ومختلف السنة .... ٥ - ١٦

حول الروءيّ بوجه عام، وخاصة رؤيا يوسف عليه السلام .... ١٨ ـ ٣٢

محاولة إخوته الماكرة لاستلابه عن أبيه ـ وشوراهم اللئيمة ....

وعذرهم الفاضح «فصبرٌ جميل» .... ٣٥ ـ ٥٣

يوسف مع السيارة ـ مع الذي اشتراه من مصر .... ٥٣ ـ ٥٥

مع امرأة العزيز وهو بالغ أشده وصاحب حكم رباني .... ٥٩ ـ ٦٥

شهود سبعة على براءة يوسف من همّه المتهَم .... ٦٦ ـ ٦٤ ـ ٧٢

استباق بين مجرمة ومعصوم وشهادة عاصمة .... ٧٢ ـ ٧٨

يوسف بين نسوة في المدينة والى السجن .... ٧٨ ـ ٨٩

يوسف السجين وصاحباه ـ يعظهما ويؤول رؤياهما .... ٩٠ ـ ١٠٥

«اذكرني عند ربك» كان اقتراحاً رسالياً ـ شهادات سبع على براءته من ...

التوسل الى غير الله .... ١٠٦ ـ ١١١

السجين يعبر رؤيا الملك وكأنه هو الملك .... ١١٣ ـ ١٢٠

يدعوه الملك ولا يستجيب حتى البراءة .... ١٢٠ ـ ١٢٣

«الآن حصحص الحق»! .... ١٢٥ ـ ١٣٢

هل في طلبه وزارة شؤون الاقتصاد غضاضة ؟ ....

انه مسؤولية رسالية في ظروفها الملائمة ! .... ١٣٢ ـ ١٣٨

الموضوع ———————— الصفحة

يوسف الملك ام هو أعلى منه بتمكين رباني ١٣٨ـ١٤٥
وأخيراً جاء اخوة يوسف ! وحصل ما حصل .. إنكم لسارقون ! ......
انها تورية باذن الله ١٤٩ـ١٨٢
اذهبوا فتحسسوا من يوسف .. اني انا يوسف ! لا تثريب عليكم .....
اليوم يغفر الله لكم ! .... ١٨٩ ـ ١٩٨
إني لأجد ريح يوسف .. فارتد بصيراً ـ آوى اليه ابويه ـ ....
لمن سجد ابواه ـ براءته من تقصيره أمامهما ٢٠٠ـ٢١٣
آيات سماوية تمرون عليها ؟ اكثر المؤمنين مشركون ! ...... ٢٢٥ ـ ٢٢٩
ما كان حديثاً يفترى ولكن .... ٢٣٧ ـ ٢٤١
﴿سورة الرعد﴾ العمد غير المرئية بين السماوات والأرض ؟ ٢٤٩ـ٢٥٣
كروية الارض ! لولا انزل عليه آية من ربه ؟ ٢٥٥ـ٢٧١
ما تغيض الأرحام وتزداد ـ له معقبات يحفظونه من امر الله؟ . ٢٧١ ـ ٢٨٣
يريكم البرق خوفاً وطمعاً ! ويسبح الرعد بحمده ـ له يسجد ....
طوعاً وكرهاً .... ٢٨٧ ـ ٢٦٧
بشارات من «نبوئت هَيْلد» بمكانة الرسول (ص)ص ٣٣٦
«وكذلك انزلناه حكماً عربياً» اوليس القرآن حكما لغير العرب ؟ ! .. ٣٤١
«يمحو الله ما يشاء ويثبت» .. نقص الارض من اطرافها ... ٣٤٨ـ٢٥٥